نجيب الكيلاني

قاتل حمزة

مؤسسة الرسالة

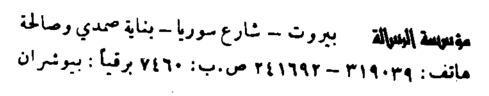


قاتل حمزة

الطبعة السابعة

١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م




مؤسسة الرسالة بيروت – شارع سوريا – بناية صمدي وصالحة
هاتف: ٣١٩٠٣٩ – ٢٤١٦٩٢ ص.ب: ٧٤٦٠ برقياً: بيوشران

بسم الله الرحمن الرحيم

١

امتد الليل البهيم حتى شمل العالم من حوله ، وغطى «مكة» وبطاحها بسواده ، ولم تستطع النجوم المتناثرة في كبد السماء أن تبدد إلا النذر اليسير ، فبدت مكة ببيوتها كتلة غامضة لا تكاد تبين معالمها ، والصمت يضرب أطنابه على الربوع ، انه صمت زائف يخفي تحت طياته انفعالات ثائرة ، وأحقاداً مبيته ، وآمالاً خطيرة يلونها الشذوذ والعناد .. فغداً يوم الثأر.. غداً تخرج قريش بقضها وقضيضها .. لتثأر من محمد رسول الله ... فهي لم تنس يوم « بدر » .. تلك المعركة الخالدة التي قتل المسلمون فيها عدداً كبيراً من رجالات مكة وأبطالها .. وأسروا عدداً آخر ..

وفي خضم ذلك الظلام ، خارج مكة ، كان هناك رجل تجلس إلى جواره فتاة ، وحيدين في خلوتهما البعيدة ، وبدا الرجل شارداً بعض الوقت ، تمتمت الفتاة وقد آلمها شروده :

— « ما بك يا وحشي ؟؟ » .

— « عواصف هائلة تضطرم في نفسي .. » .

— « لم لا تأخذ الحياة ببساطة ويسر ، اننا نقضي لحظات حلوة لكنك تحاول دائماً أن تنغص علينا متعتنا .. » .

أدار إليها وجهه الأسود ، وبريق عينيه يومض في الظلمة، وقال :

— « نحن العبيد أتعس ما في الوجود .. حياتنا سقيمة .. معقدة .. قوامها الذل والكدر والأحزان .. السعادة شيء نسمع عنه ولا نلمسه أو نمارسه .. فلا تحدثني عن البساطة والمتعة .. »

أمسكت بذراعه القوية المفتولة ، وتمتمت في براءة :

— « ويحك يا وحشي !! انني أعيش في بيت سيدي .. أعمل وأنام ، وآكل وأشرب ، واختلس بعض الساعات لأجلس إلى جوارك .. واستشعر في ذلك كله متعة كبرى .. انني خلقت لهذا . ولماذا تطمع الأمَةُ التي مثلي في شيء أكثر من ذلك ؟؟ » .

قهقه في سخرية حاقدة وقال :

— « الحرية .. » .

قالت في خوف :

— « الحرية ؟؟ عجيب أمرك .. ستكون الحرية عبئاً لا تحتمله كواهلنا الضعيفة .. سنبذل جهوداً مضاعفة لننال اللقمة وسنصبح عرضة للعدوان والازدراء ، ان سادتنا يبسطون علينا حمايتهم . ويجودون علينا بالطعام والشراب .. انهم يؤمنون لنا المستقبل أيها الأبله .. » .

تنهد « وحشي » في حسرة ، وأخذ يجوب الآفاق السوداء

بنظراته القلقة . ويتطلع إلى النجوم البعيدة يائساً ، وقال وهو يهز رأسه شارداً :

— « وماذا لو علم سيدك أنك تسللت تحت جنح الظلام في هذا الوقت المتأخر من الليل . لتقابلي عبداً حقيراً مثلي .. يشده إليك حب كبير ؟؟

أطربتها كلمة الحب . ولمست أوتار قلبها لمساً حنوناً شجياً وقالت :

— « سيلهب ظهري بالسياط .. وسأكون في منتهى السعادة وأنا استشعر الألم الشديد يحز في جسدي من أجلك .. من أجلك أنت يا وحشي » ثم وضعت أناملها على عنقه وزنده العاري . تتحسسهما في شغف . فدفعها في غيظ . وهدر :

— « انني أكره هذه الحياة .. أكره كل شيء .. الناس .. والدواب .. السادة والعبيد .. مكة والمدينة .. انني لم أتلق منهم غير الذل والاحتقار ، ولن أعطيهم غير الحقد والغيظ المدمر .. » .

تمتمت وقد آلمها تصرفه وآذى شعورها :

— « أليس حراماً أن تشعر بمثل هذا الشعور نحو الذين أحسنوا إليك » .

أمسك بذراعها النحيلة في عنف ، وهزها دون رحمة وهو يقول :

— « ليس في الحياة حلال وحرام .. الحياة هي القوة والمال .. العبيد الفقراء ليسوا أحياء .. الضعفاء ليسوا أحياء ..

نحن موتى أيتها البلهاء .. الشاة والناقة والحمار كلها تجد العناية من صاحبها .. أما نحن .. واكرباه !! لم نصل إلى مرتبة الإنسان ، ولم نحظ بمرتبة الحيوان .. » .

ودارت رأس الفتاة ، ان كلمات فتاها أصبحت غريبة وخطيرة في الآونة الأخيرة . لقد تخلى عن أحاديث الحب والبطولة ، وأصبح يتحدث عن أشياء لا تروق لها . وان هذه الأحاديث لتوشك أن تبدد أحلامها وذكرياتها الحلوة جواره ، ماذا جرى له؟؟ وماذا جرى للدنيا ؟؟ آه .. منذ أن جاء محمد برسالتة والناس في هرج ومرج ، والأفكار تتصارع والسيوف تسل ، هل هذا هو السبب ؟؟ أوه .. انها توشك هي الأخرى أن تنصرف إلى ما شغل به الناس أنفسهم من أمور غريبة في هذه الأيام .. انها لم تحضر لمثل هذه الأمور .. لقد جاءت تحلم بالكلمات الحلوة ، واللمسات الحنونة . والأحلام الوردية .. فانتزعت نفسها انتزاعاً من شرودها وقالت لوحشي :

ـ « حدثني عن الحب .. » .

عاد يقهقه في سخرية :

ـ « وماذا بعد الحب ؟ » .

ـ « لا شيء يا وحشي .. انه الغاية .. » .

مد ساقيه ، وحك شعره المجعد ، ولحيته القصيرة ، ثم قال :

ـ « لو علم سيدنا بما يجري بيننا ، لسحق أحلامنا ، وفرق بيننا إلى الأبد ، ألا تفكرين في ذلك ؟؟.. »

– « انه لم يحدث بعد فلِمَ أفكر فيه ؟؟ » .

– « النمل يخزن طعامه للشتاء .. » .

– « ونحن لا نرهب الشتاء . فالطعام في بيت سيدي وفير »

صاح في حدة :

– « سيدك ألعن من الشتاء .. » .

وشردت لحظات ، وأخذت تتمتم : لقد فكرت ذات يوم أن يبعث الله إلينا برسول من عنده يشترينا . ثم يعتقنا ويهبنا الحرية .. ألم يفعل محمد وأصحابه ذلك ؟؟ اشتروا بلالاً واعتقوه .. حقاً إن بلالاً تعذب كثيراً . . لكنه الآن ينعم بالحرية . ولا يرهب المستقبل. »

انتفض وحشي واقفاً وصاح :

– « لا تطرقي هذا الحديث .. » .

– « لماذا ؟؟ » .

– « انني أكرهه ..هأنتذا تعودين وتتحدثين عن المستقبل وعن الحرية .. والأدهى من ذلك تتحدثين عن محمد ... » .

هتفت في ذعر :

– « معذرة .. أنت محق ،فمنذ أن قتل عم « سيدنا » في غزوة بدر ،ونحن لا نطرق الحديث عنه إلا خفية..لكن هل صحيح أن بلالاً كان يقتل سادة قريش في بدر؟؟ أليس هذا غريباً ؟؟ ».

لم يجب وحشي عليها بشيء . لقد أخذ يتذكر ذلك الحديث الغريب الذي دار بينه وبين مولاه « جبير بن مطعم » . وهل يستطيع أن ينسى ذلك الحديث ؟

لقد قال له سيده : « أي وحشي .. انني أعرف براعتك في استعمال الحربة ، ان رميتك يا وحشي لا تخيب .. أهل مكة يعرفون بطولتك وبأسك منذ زمن بعيد .. ولقد أدركت فيك هذه المواهب ، وكنت أراك جديراً بكل تقدير وحب .. وأراك أيضاً جديراً بأن تنعم بالحرية .. أن تكون سيد نفسك يا وحشي .. عند ذاك تستطيع أن تعود إلى الحبشة بلادك .. أو تبقى في مكة حراً ، يربطك بي حلف مقدس .. حتى لكأنك واحد من أهلي .. لكن لكل شيء ثمن يا « وحشي » وعندما تدفع الثمن غالياً ، فسيصبح ما تحصل عليه أغلى وأقيم .. تلك طبيعة الحياة .. أنت تعلم أن رجال محمد قد قتلوا عمي «طعيمة ابن عدي » في معركة بدر .. قتله حمزة عم الرسول .. والله يا وحشي لئن قتلت حمزة لأهبنك الحرية ، وأغدقن عليك ما يؤمن مستقبلك .. وبعد أيام نخرج للقاء محمد لنرى ما أنت فاعل .. انها فرصة العمر يا وحشي .. فماذا أنت قائل ؟؟

تذكر وحشي كل ذلك ، وهل يستطيع أن ينسى اللحظات الحاسمة في تاريخ حياته الذليل المليء بالتعاسة ؟؟ لسوف يذكر دائماً ذلك اليوم الذي ساقوه فيه إلى النخاس فأخذ يقلبه ، ويتفحصه يميناً ويساراً ، ثم اشتراه بثمن بخس ، ولسوف يذكر دائماً تلك النسمة الرطبة التي بعثت في حياته غير قليل من الانتعاش والثقة ، ألا وهي فتاته التي تجلس إلى جواره ، ولسوف يذكر أيضاً حديث سيده جبير بن مطعم وهو يلوح له بنعمة الحرية وبعد هذا الحديث فاضت نفس وحشي بعشرات المشاعر المتضاربة

لم يكن عبداً ككل العبيد ، كان يحلم دائماً بالحرية .. ولقد خفق قلبه خفقات حلوة قبل ذلك .. أجل .. يوم أتى محمد برسالته .. لقد فكر بادىء ذي بدء في أن ينطلق إليه ، ويؤمن برسالته .. لكن سيده « جبير » لم يكن ليتركه حياً كما فعل سيد « بلال » .. انه يعرف شدة سيده ، وضيقه بمحمد ورسالته وخاف وحشي أن يفقد حياته وحريته معاً .. فآثر الانتظار .. وها هو سيده يطلب منه الثمن .. عند ذاك هتف « وحشي » في فرح وجنون :

– «سيدي .. ان الأخذ بثأر عمك أمانة في أعناقنا جميعاً.. ولو لم تعدني بالحرية ، لما قصرت في تنفيذ أوامرك .. لقد كان – وما زال – العار يلحقنا جميعاً منذ ذلك اليوم المشئوم .. وسأرشق حمزة بحربتي هذه رشقة لا يبرأ منها .. » ولم يمر الحديث بالبساطة التي أبرزها الحوار الذي دار بينهما ، لقد كان وحشي يفكر ، ان الطريق إلى الحرية وعر شاق . ووحشي على استعداد لأن يفعل أي شيء حتى يولد من جديد ، وينعم بالحرية .. من سنين طويلة ونفسه تطفح بالمرارة . ونظراته تسكب الحقد الدفين ، وأحلامه السوداء يمتزج فيها الدم بالسياط والصيحات المرعبة .. ليذهب العالم كله إلى الجحيم . اللعنة على جبير وعمه وعلى كل من في الأرض .. انه يبحث عن حريته المفقودة . لأنه لم يجد سبباً معقولاً لأن يفقدها وقد ولدته أمه حراً .. ولم يعد في فكر وحشي معنى محدد للحلال والحرام. والحق والباطل ، والخير والشر ، ان الحرام والباطل والشر

كلها تركزت لديه في معنى ذاتي واحد..هو أنه عبد.. فلتصطرع المبادىء والأفكار ، ولتحتدم المناقشات حارة وباردة، ولتشتعل الحروب ، ويتساقط الصرعى .. وليكثر الحديث عن الله والشيطان ، والجنة والنار ، والكفر والإيمان ، ان كل هذه الأمور ــ حسبما يتصور وحشي ــ لا تهمه من قريب أو بعيد، وهو لا يفكر فيها إلا عابراً ، ولا يحاول أن يغوص في أعماقها أو يجوب أبعادها الأخرى ، فكونه عبداً حصره في عالم ضيق أسود كئيب ذي أسوار شائكة عالية ، لا سبيل إلى تخطيها .. فإذا جاء سجانه العنيد ، وعرض عليه أن يفتح له الأبواب كي ينطلق إلى الحياة والنور .. أيرفض مهما كان الثمن المطلوب منه ؟؟ وأفاق وحشي من أحلامه وذكرياته على صوت فتاته وهي تدفعه في غيظ وتقول :

ــ «ماذا ؟؟ هل غلبك النعاس ؟؟» .

ــ «لا .. ولكني سأنال حريتي ..» .

قالت في دهشة :

ــ «ماذا ؟؟ انك تهذي بما لا يُفهم ..»

ــ «وسأرحل مع قريش بعد أيام لحرب محمد ..» .

ــ «اني لا أكاد أفهمك ..» .

ــ «وسأعود من المعركة خلقاً آخر ..» .

ــ «وحشي !!!» .

ــ «سأصبح بشراً سوياً ، آكل ما أشاء ، وأفعل ما أشاء ، وأنام وأصحو في الوقت الذي أريد ..» .

– « أمحموم أنت يا وحشي ؟! » .

–« وسيكون لنا أبناء أحرار .. لا يفزعهم صياح السادة ، ولا تؤرقهم أسواط العار ، ولا تطحن نفوسهم مرارة الذل والاحتقار .. » .

نظرت إليه في دهشة وهي تقول :

– « كيف ؟! »

أدار إليها عينين مبللتين بالدموع . ووجهاً متقبضاً من الانفعال ، وقال وهو يلوح بيده :

– « بحربتي هذه .. » .

ثم تمتم :

– « الحرية تؤخذ ولا تعطى .. الحرية بالدم .. أي دم .. سواء أكان دم الشرفاء أو الأشرار .. » .

– « انك تتخبط يا مسكين ، وتقول كلمات مدمرة ، وتبين عن ذات نفسك بطريقة مخيفة وان كانت غامضة . وامصيبتي !! انني لا أفهم شيئاً مما تقول .. » .

– ٢ –

العيون ترمقني باحترام ، والابتسامات تستقبلني أينما اتجهت ، وكلمات المديح والاطراء تتسلل إلى أذني كاللحن الجميل ، أصبح الجميع يقولون « وحشي » أتى .. « وحشي » ذهب .. وحشي أكل .. وحشي نام .. اسمي يتردد في أروقة

البيت دائماً ، يهتف به سيدي « جبير » في فخر ، وتردده سيدتي على شفتيها الرقيقتين في حنان ، والأطفال يتحسسون ساعدي القوي ، وينظرون إليّ في اعجاب بالغ ، لقد أصبح العبد الذليل الحقير مناط التدليل والاحترام .. أيها الأوباش الملعونون انني احتقركم ، وأبصق على قيمكم الرخيصة ، وأسخر من ريائكم ، وأحقادكم الملوثة بالأوحال .. وفتاتي الساذجة ترمقني في وله ، وتسدد إليّ نظرات الوجد الزائد والهيام الغريب ، وتهمهم : « وأنت يا وحشي تنال من المكانة في هذا البيت ما لا يناله إلا صاحب البيت وسيده العظيم .. ماذا جرى ؟؟ انني لا أكاد أفهم شيئاً » وأنا أراقب تلك التصرفات بتلذذ غريب ، استغرق فيها بكل كياني ، وأبدي أزاءها رضى أشبه بالاحتقار المستتر .. ها .. ها .. ها .. انني في خدمتك يا سيدي ، إن في ومهارتي الحربية ، وقوة جسدي وأعصابي ، كلها طوع يمينك .. أريد أن أثبت للجميع انني أستطيع أن أتفوق على السادة المالكين في بعض الأمور .. هناك كثير من الأمور لا يؤديها على الوجه الأكمل سواي .. سواي .. أنا العبد المحتقر .. إن سيدي ينيبني عنه في أمر مقدس .. أن أنال ثأره ، وأحفظ للقبيلة شرفها وعزتها .. أثأر ممن ؟؟ من حمزة بن عبد المطلب فارس العرب الهمام ، وعم رسول الله ، وسافك دم الكبار الأعزة من رجالات مكة يوم « بدر » المشهود .. إنني على أتم استعداد لأن أرتكب أية حماقة ، أو آتي أي إثم لأثبت وجودي .. لأحقق ذاتي .. لأنفي عن

نفسي وصمة العار والعبودية .. رحمك الله يا عنترة بن شداد..
لقد احتقرك بنو عبس .. وأذاقوك الهوان يا عنترة . حاولوا
تحطيم كبريائك ، و حاولوا سحق مشاعرك وحبك العظيم من
« عبلة » .. لأنك عبد .. أسود السحنة .. لأنك عبد يا عنترة ..
ولأن عبلة بنت سيد السادات .. وذات حسب ونسب .. ونسوا
يا عنترة ان عواطفك ليست سوداء كوجهك ، وان دمك
لا يختلف عن دمهم ، وأنك من حيث « القيمة » قد تكون
أعظم وأنفع من ألف سيد وسيد .. رفضوا الاعتراف بحقك
في الحياة والحب لأنك عبد .. وأسود البشرة .. وعندما دارت
الدائرة عليهم يا عنترة ، وأوشك الأعداء أن يدمروا مجد
القبيلة ، ويسبوا نساءها ، ويذلوا أعناق رجالها .. هتف بك
الشقي « كر يا عنترة » فقلت لهم : « العبد لا يحسن الكر »
فتوسل إليك قائلاً : كر وأنت حر .. » يا لها من كلمة ..
وأنت حر ..

وفعلت فيك الكلمة السحرية ما لم تفعله آلاف الكلمات ..
بعثت فيك الحرية طاقة مهولة ، هي أقرب إلى الأسطورة منها
إلى الحقيقة .. انني أعرفك جيداً يا عنترة ، يا بطل الأبطال ،
يا عاشق الحرية الأكبر ، أعرفك لأني احترقت مثلك بنار
الذل والهوان ، وقاسيت الأمرين وأنا أجتر الآلام والعذاب
النفسي المهول .. عشت أقتات الكراهية وأترنم بلحنها الصاخب
المشحون بالحقد ..

وجاءت « هند بنت عتبة » زوجة أبي سفيان بن حرب ،

جاءت بنفسها .. لتتحدث مع من ؟؟ معي أنا وحشي الأسود .. العبد الذليل .. لتسمع روابي مكة وبيتها المقدس .. هند بنت عتبة أتت إليّ ، وجلست باكية حزينة وهي تتمتم « قتل المسلمون ولدي حنظلة ، وأبي وأخي .. لم أضع الزيت على شعري ، أو الماء على جسدي من يومها .. أعلنت الحداد حتّى آخذ بثأر الأشراف من بني قومي .. لئن قتلت حمزة يا وحشي فلك مني ما تشاء من مال وذهب وإبل وأغنام .. سأكافئك أعظم مكافأة » .

هند تتوسل ، وظلال الدموع في عينيها ، يحجبها الكبرياء، ويمنعها من أن تتدفق ، وهند بحسبها ونسبها ومقام قومها العالي لم تستطع أن تدفع عن شرفها المثلوم ، وتثأر لدمها المراق ، فأتت إلى العبد المهين ، تنشده العون ، وتضرع إليه بدموعها الصامتة المتحجرة ليحفظ لها شرفها ، ويدفع عنها عارها ، ويأخذ بثأرها .. لشد ما أتمنى أن يمتد الوقت ، وأن تستطرد هند في حديثها الذي يشجيني .. اضرعي .. اضرعي .. يا بنت الأكرمين .. وابعثي بنظراتك المتوسلة إليّ .. واسكبي الرجاء تحت قدمي الحافيتين .. يا نار اللذة المجوسية التي تلهب كياني وروحي .. اشتعلي بقسوة وعنف وعناد .. ويا جبير بن مطعم .. حدثني كثيراً عن الحرية ، وعن ثمنها الغالي إن هذه اللحظات من أحلى وأروع لحظات عمري .. لكأني أملك الحياة والموت.. حياة حمزة وموته على الأقل .. أيها الماكرون التائهون من رجالات مكة .. ليس لكم دين إلا السجود لأحقادكم وترهاتكم

اللعنة على عتبة وشيبة وأبي جهل : لشد ما أنا معجب بحمزة هذا الذي صرع أبطالكم ، ومرغ كبرياءكم في الرغام ! ! إن حمزة لعظيم .. لكني سأقتل ذاك العظيم .. سأقتل حمزة لأكون أعظم منه في نظركم .. لكن أأصل إلى هذه الرتبة فعلا؟؟ أينسى الناس ماضي في العبودية والهوان أم سيقولون لقد قتل « العبد » وحشي حمزة عم رسول الله ، فأعتقه سيده جبير ، وكافأته هند زوجة أبي سفيان ؟؟ واحسرتاه ! ! ألا يمكن أن تمحى تلك الحقبة السوداء من تاريخي ؟؟ إن أهل هذه البلاد مغرمون بحفظ الأنساب ، ورواية الأحداث ، وليس في استطاعة أحد أن يفرض عليهم النسيان ولو كان هذا « الأحد » أقوى ملوك الأرض قاطبة .. لكن لماذا أدمن التفكير في هذه المسألة الشائكة الكئيبة ؟؟ ليكن الماضي ما شاء القدر .. فأنا ابن اليوم.. ابن المجد الذي أصنعه بيدي وحربتي .

وعندما أوشك الجيش على الرحيل بقيادة أبي سفيان بن حرب ، قدم « وحشي » إلى فتاته ، واختلى بها بعيداً عن الأنظار وقال :

— « اني راحل .. » .

— « لكم أخاف عليك أهوال الحرب يا وحشي .. » .

— « التعساء لا يموتون هكذا ببساطة ، إن الاقدار تطيل في أعمارهم لتسقيهم مزيداً من التعاسة يا فتاة .. » .

قالت في قلق :

— « لك في الحياة آراء لا يمكن أن تؤخذ مأخذ القاعدة

الثابتة .. » .

— « انني أتكلم من واقع مأساتي الخاصة .. ولا أنصاع كثيراً لآراء الآخرين وتجاربهم .. » .

— « لماذا ؟؟ » .

— « لأن الناس يكذبون ، وأكثر الناس كذباً أدعياء الحكمة .. » .

التفتت إليه في أسى وقالت :

— « انك لا تحترم النصوص المقدسة » .

— « أجل ، لأنها ترهات ، سطرها فئة من السذج والبلغاء »

— « أسُذّجٌ و بُلغاءُ في نفس الوقت ؟؟ » .

— « يا حمقاء .. البلاغة كلمات جوفاء .. ومن ثم فهي أدخل في عالم السذاجة .. » .

— « لكن البلاغة والحكمة قرينان كما أعرف.. » .

دار بنظراته الحزينة ذات اليمين وذات اليسار ، وقال شارداً :

— « ان دمعة ملتاع أبلغ من ألف بيت من الشعر ، ولحظات تعاسة لعبد ذليل مقهور لا يستطيع التعبير عنها أعلى الفلاسفة شأناً .. ما أوسع البون بين الحقيقة والتعبير .. » .

— « أكاد لا أفهمك .. » .

— « البلاغة لن تتجسد أبداً في كلمات .. الكلمات عاجزة سجينة .. بداخلي يا فتاة عالم كبير يضج بملايين الرغبات والعواصف وعندما أتكلم أجدني عاجزاً عن التبيان .. عالمنا مليء بالعجزة

والمغرورين .. » .

وسادت فترة صمت كئيبة ، وتندت عيناها بالدموع وتمتمت :

– « هل ستعود ؟؟ » .

– « لا بد أن أعود .. » .

– « احذر الحرب .. » .

قهقه ساخراً :

– « انني لن أحارب .. » .

– « كيف ؟؟ » .

– « أنا لا أشغل نفسي بما بين المسلمين والكفار من حرب ضارية .. ولن أرفع سيفاً ، أو اقذف بنفسي في معمعة ، إن قضية الطرفين غير مفهومة لدي تماماً ، لأني لا أفكر فيها كثيراً إن ما أفكر فيه هو مأساتي أنا .. عبوديتي الذليلة .. إنني ذاهب لآتي بحريتي .. » .

قالت في دهشة :

– « لتأتي بحريتك ؟؟ » .

– « أجل .. ان ثمنها في يدي .. » .

– « ماذا تعني ؟ » .

لوح بالحربة التي يقبض عليها في استماتة ، وقال وقد تقبضت عضلات وجهه ، ولمعت عيناه ببريق شرير :

– « لسوف آوي إلى مكان أمين ، وأترصد خطاه .. فإذا ما بدا لي أطلقت حربتي نحوه .. دون أن يراني .. ثم ينتهي

كل شيء .. أنزع حربتي وأعود إلى مكان بعيد عن الدماء وصراع السيوف ، وأظل انتظر حتّى تنجلي المعركة .. فإن كان النصر لمحمد هرولت بأقصى ما استطيع من سرعة عائداً إلى مكة لأبدأ حياة جديدة .. وإن حلت الهزيمة بالمسلمين .. عدت في موكب رائع أحمل الحرية والمال والمجد .. المهم أن أقتله .. هذا ما أفكر فيه .. » .

قالت الفتاة متلهفة :

— « من هذا ؟؟ » .

— « حمزة بن عبد المطلب .. عم الرسول .. » .

— « أنت تقتله ؟؟ تقتل حمزة ؟؟ » .

— « أجل .. لأنه الثمن .. الثمن الذي يريده مولاي جبير كي يهبني الحرية ، وهند بنت عتبة وزوجها أبو سفيان على ذلك شاهدان .. » .

وانتزع نفسه انتزاعاً ، ومضى خارجاً ...

وظلت الفتاة الحائرة تنظر إليه وهو يمضي في عصبية ، يوسع الخطو ، ويحرك ذراعيه مهرولاً ، ويرفع هامته السوداء إلى السماء متحدياً ، وعلى الرغم من وضوح ما سيفعله في ذهنه إلا أنه كان يمضي وكأنه يضرب في تيه لا نهاية له .

وجففت الفتاة دمعة انحدرت على خدها ، وشهقت شهقات مكتومة ، ثم عضت على أسنانها في حيرة وحزن وأخذت تتمتم :

— « مسكين يا وحشي !! لشد ما تغيرت في هذه الأيام ، إن كلماته لم تعد مفهومة لدى ، إنه مضطرب .. ثائر .. لم

يعد ينعم بنوم أو يقظة ، ويبدو أنه لا يستسيغ طعاماً أو شراباً . لقد أصبح يجلس إلى جواري دون أن يمتلىء قلبه بوجودي ، لكأنه في عالم آخر غير عالمي .. إن حاجزاً ضخماً يحول بيني وبينه .. إن وحشي قد حبس نفسه في سجن غامض من صنع يديه .. إنه أسير أهواء قاتمة السواد .. لشد ما يحزنني أمره ! ! ».

وحينما أفاقت إلى نفسها كان شبحه قد اختفى من أمام ناظريها ، وبقيت صورة وجهه المتقبض ، وعينيه اللتين تقدحان بالشرر عالقة بذهنها ، وظلت أصداء كلماته الغريبة تطن في رأسها المتعب ، ومع ذلك وجدت نفسها تفكر في محمد .. وفي أشياء كثيرة سمعتها عنه .. وسرعان ما نسيت وحشي .. وأخذت تفكر كيف تذهب إلى حيث يلتقي النسوة المؤمنات بمحمد ، واللائي يتحدثن عن معاني جديدة مثيرة ..

٣

الطريق بين « مكة » وجبل « أحد » المجاور « ليثرب » طريق طويل مملوء بالصعاب والمزالق والمتاهات ، والليل يخلف النهار ، والنهار يعقب الليل ، وجيش الثأر العرمرم وعلى رأسه أبو سفيان يحث الخطى ، ترف على موكبه المغبر أمنيات شيطانية حمراء ، وسادات قريش يتقدمون الصفوف ، وعندما يحطون الرحال للراحة تدور الأحاديث ، وتنحر الجزر ، وتمتلىء الكؤوس وتفرغ ، لكن خوفاً مبهماً يطحن النفوس ،

ويبعث القلق الغامض .. ويقف « وحشي » بين هاتيك الجموع يرقب ويسمع ، يسدد نظراته الحاقدة هنا وهناك . وصورة حمزة تملأ عليه خياله .. ويتحسس الحربة .. ترى متى تبدأ المعركة ؟؟ إن وحشي في عجلة .. يريد أن يرى أسعد يوم في حياته .. يوم أن يصبح حراً ..

ويستمع وحشي إلى أحاديث السمار :

هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان تقول : « يا صناديد العرب .. إن هي إلا جولة قصيرة . وينتهي أمر محمد .. فتشتفي النفوس ، وتهجع نيران الثأر .. » .

لكن أبا سفيان يهز رأسه قائلاً : « نار الثأر لا تنطفيء أبداً يا هند .. أتظنين أن قتل محمد أو حمزة سيمحو تماماً كل أثر للألم والأحزان على مصرع الأحباب ؟؟مستحيل أن يحدث ذلك يا هند .. إننا ندافع عن كرامتنا وهيبتنا . ونعاقب المعتدين هذا كل ما في الأمر . أما حزنك على ولدك « حنظلة » وأساك على أبيك وأخيك . ولوعة القلب على الأحبة .. كل هذه ستبقى أبد الآبدين يا هند .. قالت هند في شيء من الضيق : « إنك تهوّن في الأمر .. والله لو سفك دم حمزة . وقتل محمد لما تبقى في قلبي مثقال ذرة من حزن .. الموت مكتوب ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره .. إن الثأر سيجعل من موت الأحبة موتاً عادياً .. أتفهمني يا رجل ؟؟ » .

وقال عكرمة بن أبي جهل : « إن ما نفكر فيه الآن هو الثأر الثأر وحده .. كلما تصورت ما جرى لأبي في مأساة بدر

تعصف بي الأحقاد المدمرة .. أكاد أذوب خجلاً كلما تصورت أن حقيراً من الحقراء قد داس بقدمه القذرة على جسد شريف من أعظم أشراف مكة .. يا للعار !! » .

وأخذ كل واحد منهم يتحدث عن ثأره . ووحشي يستمع إليهم في غير قليل من الشماتة والاحتقار . ويحادث نفسه « أيها الأوباش التعساء . إنكم جميعاً صرعى الغرور والحماقة .. هياكل سادة وقلوب عبيد عميان .. لو وزن الناس بعقولهم ومشاعرهم لكنت سيدكم جميعاً .. وما أبو جهل وعتبة وشيبة وغيرهم إلا أكوام متعفنة من الجمود والعسف والحماقة .. اللعنة عليهم جميعاً .. وعليكم أنتم .. » وشرد وحشي بذهنه إلى بعيد .. إلى فتاته المسكينة في بيت من بيوت السادة في مكة :

« آه يا حبيبتي .. لسوف أعود إليك وقد نفضت عن كاهلي أحزان العبودية وأدرانها .. إن العبد الذي حرر نفسه بكفاءته ومقدرته دون عون من أحد ، لهو السيد حقاً .. وحريته تكون أثمن حرية في الوجود .. عند ئذ سأحتقر الناس جميعاً .. سأحتقر السادة الذين أهدروا كبريائي وأهانوا إنسانيتي وشووا جسدي بالسياط .. وسأحتقر العبيد البلهاء الذين يصبرون على الذل والهوان ، ولا يسلكون سبيل العنف والقهر لينتزعوا حريتهم من أيدي الظالمين .. سأعود إليك يا فتاتي سيداً يشار إليه بالبنان »

وسمع وحشي من خلفه صوتاً يقول :

ـ « وحشي .. الحرية .. والمال .. وعز الدهر .. والشهرة التي ستطبق الآفاق .. لا تنس ذلك .. إن هند لا تحنث بعهدها ولا تغدر بوعدها .. تذكر ذلك جيداً يا وحشي »

رماها وحشي بنظرات زائغة تائهة وتمتم :

ـ « إن الظمأ يكاد يقتلني يا هند .. » .

ـ « الماء كثير .. » .

ـ « الماء لا يروي ظمأي .. إنما يروي ظمأي شيئان الدم والخمر .. واليوم خمر يا هند ، وغدا دم .. » .

وانفرجت شفتاها عن ابتسامة بشعة وقالت :

ـ « لشد ما يطربني حديثك .. » .

ثم تركته ، وعادت بعد دقائق ، ومن خلفها جارية تحمل إناء ممتلئاً بأجود أنواع الخمر ، وقالت وهي تأخذه من الجارية وتدفعه إليه :

ـ « لو كان كل رجال جيشنا على شاكلتك يا وحشي لتحققت المنى ، واشتفى القلب مما يعتصره من آلام .. إنني أعرف جيداً أقدار الرجال .. » .

استدار إليها وحشي في لهفة وهو يقول :

ـ « وما هو قدري عندك يا هند ؟؟ » .

ـ « لو كنت أصنع الأنساب والأحساب ، لجعلتك سيداً من سادات قريش .. » .

ـ « أو تظنين أنني جدير بهذا الفخر كله ؟؟ » .

ـ « وأكثر منه يا وحشي .. » .

— « منذ متى تظنين هذا الظن ؟؟ » .

— « من زمن بعيد .. كنت أسمع عن عنادك . وتصديك لسيدك ، وتقبلك لأقسى ألوان العقاب . وعن بطولتك .. فأقول هذا رجل خلق ليكون سيداً من السادة لا عبداً من العبيد.. لكنك لم تكن قد وجدت الفرصة المناسبة لإظهار كفاءتك.. ».

وصمتت برهة . ثم استطردت تقول :

— « وقد حانت الفرصة يا وحشي .. إنك إن قتلت حمزة فستنال منزلة لم يرق إليها أحد من قبلك .. ستهدم ركناً ضخماً من أركان الإسلام .. وحمزة يا وحشي جيش بذاته .. وحمزة يا وحشي قاتل الأحبة . ومبدد شمل الأبطال .. وحمزة يا وحشي عم محمد .. والأثير إلى قلبه وروحه .. » .

وطرب وحشي لحديث هند . إن إيقاعاته الصارخة . وموسيقاه الصاخبة تطن في أذنيه . وتنسكب في قلبه . وتشعل روحه . ووحشي يقف قبالتها — وإناء الخمر في يده — وهو يميل طرباً .. اللحظات الحلوة في حياته ، هي تلك اللحظات التي يستمع فيها إلى ثناء على بطولته . وإطراء لشخصيته . منذ أمد بعيد وهو ضائع .. تائه .. محتقر .. واليوم أصبح ذا قيمة كبرى .. إن كلمات هند في أذنيه أحلى من ترانيم الكهان ماذا يريد وحشي بعد ذلك ؟؟ ألا تأتي فتاته لتسمع ماذا تقول هند ؟؟ .

ومضت هند لشأنها ، وانتحى وحشي جانباً . وجلس يعب الخمر عباً .. يا لأساه ! إنه يشرب وحده بل يختفي عن

عيني سيده .. لماذا لا يأتي عكرمة وأبو سفيان وجبير بن مطعم ليشاركوه الشراب ؟؟ آه .. لم يزل عبداً .. لا نديم ولا سمير . طوال حياته يشرب الخمر وحده .. ويتخيل رجالا يتسامرون معه . ويحدثهم ويحدثونه . وقد يدب بينه وبينهم الخلاف ، فتثور ثائرته . وتلعب الخمر برأسه ثم يأخذ في الهياج ويضرب بقبضتيه هنا وهناك . ويصيح ويتهدد ويتوعد ، وقد يأتي سيّده ليراه يخوض معركة وهمية : « وحشي .. ماذا تفعل أيها المجنون فيقول له : « انني أؤدب هؤلاء المارقين .. إنهم يسخرون مني .. » فيرد سيده : لكني لا أرى أحداً يا وحشي .. » فيقول وحشي انني أراهم .. إنهم يهربون يخافون أن أبطش بهم » ولا يفيق وحشي إلا على السوط الحارق يلهب ظهره ووجهه .. يا لها من أيام .. إنه يعود مرة ثانية إلى الشراب .. لم يزل وحده .. لا .. إن حربته معه .. هذه الحربة أهم لديه من كل أشراف مكة .. إنها لا تتذمر ولا تسخر ولا تهرب منه ، أو تبدي له لوناً من ألوان الاحتقار .. هذه الحربة لم تغرر به .. كلما قذف بها أصابت المرمى ، وحققت الغاية .. في كثير من الأحيان يشعر وحشي بألفة وثيقة وغريبة لدى الأشياء .. إنها جماد .. لكنه يشعر نحوها بعطف وثقة كبرى .. هذه الحربة أعز لديه من ألف « جبير بن مطعم » .. من ألف « هند » .. كلهم يغدرون ويخونون ويسخرون أما حربته فليست كذلك.. هذه القطعة المعدنية المدببة سترد له حريته .. إذن فهي حياته ووجوده .. ويظل وحشي يفكر في حربته وهو يقذف في

جوفه بالكأس تلو الكأس ... إن وجهه يختقن . ورأسه تتمايل . وعيناه تقدحان بالشرر . ويهب من جلسته مترنحاً .. ويصرخ في جنون « يا صناديد مكة .. لتبرزوا إليّ فرداً فرداً .. إنني قادر على سحقكم جميعاً » .. ويضج الجميع بالضحك والصخب ويقول جبير :

– « هذا السكران لا يعرف رأسه من رجليه » .

– « دعه وشأنه .. نريد أن نتسلى .. » .

– « بل انزعوا الحربة من يده .. إنه لا يعي ما يقول أو يفعل .. أنا أعرفه .. » .

وهب جبير واقفاً . ثم مضى نحو وحشي ثابت الخطى . وسدد إليه نظرات حادة ، وصرخ في وجهه :

– « أعطني حربتك » ..

قال وحشي في رعب وهو يتشبث بها :

– « مستحيل .. إنها حياتي .. » .

– « أيها المجنون .. أعطنيها وإلا فصلت رأسك عن جسدك

وارتجف وحشي . ثم قال والدموع تتدفق من عينيه :

– « لا أستطيع .. لا أستطيع .. إنها حربتي .. » .

واقترب سيده منه أكثر . وهدر بصوت آمر :

– « أعطني الحربة .. » .

– « لكني سأقتل بها حمزة .. سأختبيء خلف شجرة وأترصده .. سأتركه يصول ويجول .. سأبعثها إلى أحشائه كالبرق الخاطف .. عندئذ ينتهي كل شيء ..

وأشار جبير بطرف عينه . فأطبق مجموعة من الشبان على « وحشي » من الخلف وغللوا يده . وانتزعوا الحربة منه . وهم يقهقهون ويصخبون . ثم دفعوه فارتمى على الأرض وهو ينشج نشيجاً عالياً :

ــ « أنتم تسلبون حياتي .. لا أستطيع فراقها .. هي دائماً أخلص رفيق . وأحنى عليّ من أبي وأمي .. بالله ردوها إليّ .. لقد قلت فيها شعراً لم أترنم به لأحد .. » .

وشقت هند الصفوف . وسط الصخب . والقهقهات العالية . وصاحت :

ــ « ما هذا الذي تفعلون ؟؟ كلكم تعربدون وتشغبون . والسيوف معلقة بأحزمتكم .. دعوا وحشي وشأنه .. » .

ثم اقتربت من جبير . وتناولت منه حربة وحشي . وعادت إلى العبد الباكي الملقى على الرمال وقالت في رقة مصطنعة :

ــ « هذه حربتك يا وحشي .. لا تحزن .. »

تناولها في شوق . وتحسسها في عشق . ثم طبع عليها قبلة حنونة وتمتم :

ــ « أي حبيبتي الغالية .. إنهم يحاولون أن يفرقوا بيني وبينك . والله إن فراقك لأشق على نفسي من فراق أبي وأمي .. »

فضج الجميع مرة أخرى بالضحك ، وقال أحد الساخرين :

ــ « دعوا وحشي وشأنه .. لا تفسدوا عليه خلوته .. إنه يعاني أزمة عشق حادة . ولن يفيق منها إلا بعد ساعات .. »

ثم انحنى على وحشي قائلاً :

— « أما زالت حربتك عذراء ؟ » .

فرفع إليه وحشي عينين دامعتين وقال جاداً :

— « إنها شريفة . عذراء .. لم تتلوث بإثم .. » .

فعادوا يضحكون . وقال آخر :

— « إن لي بها علاقة قديمة .. » .

هتف وحشي في غضب :

— « كذبت .. إنها لم تعرف في الوجود سواي .. » .

ولم يكفوا عن عبثهم ولهوهم إلا بعد وقت طويل ..

وأقبل المساء . ووحشي ملقى على الرمال ، محتضناً حربته يلفها بذراعيه القويتين . وكأنه يخاف أن تلمسها نسمة الليل. ورأسه مثقل بآلام شديدة . لكنه يفيق رويداً رويداً .. ورائحة الإبل والشاة الذبيحة تتسلل إلى خياشيمه . إنه يشعر بجوع شديد ففرك عينيه . وأخذ ينظر يمنة ويسرة . محاولا اكتشاف موقعه برغم العتمة الضاربة التي تثقل على صدره كصخرة ضخمة عاتية.

— ٤ —

وقف وحشي يتطلع إلى جبل أحد في ذلك اليوم المشهود . الجبل الشامخ لا يطأطىء رأسه لأحد . يرمق ما يجزي في صمت وجمود ، والناس يتصارعون في استماتة بالغة . والغبار ثائر . والسيوف تلمع تحت وهج الشمس الحارقة . وصيحات الرجال

تتعالى . والمسلمون يتقدمون في نظام وثقة . وحمزة يبحث عن فريسته .. أين حمزة ؟؟ ماذا أرى ؟؟ آه .. هذا عبد من عبيد مكة .. إنه يحارب في صفوف محمد .. لقد نال حريته .. أتراه سعيداً .. إنني اذكره جيداً .. لقد تحمل عذاباً لا طاقة لبشر كي يتحمله .. رفض أن يكفر بمحمد وبدينه .. كان في إمكانه أن ينطق بكلمة الكفر لينجو . لكنه أبى .. ما أعجب ايمانه !! وأخيراً اشتراه أحد أتباع محمد فنجاه من العذاب واعتقه .. أصبح سيداً ينافح عن عقيدته وحريته .. ولكنه سيظل مديناً لمحمد بهدايته . ومديناً لمن أعتقه بحريته .. آه .. إنني أرفض ذلك ..لا أريد أن أكون مديناً لأحد .. ليس هناك حق وباطل .. هناك القوة التي تسير هذا الوجود .. وحريتي سأنتزعها بيدي .. ولن يكون لأحد عليّ فضل .. ماذا أرى ؟ إن حامل اللواء يسقط بسيوف المسلمين .. وأبو سفيان مضطرب وقائد الفرسان خالد بن الوليد لا يستطيع أن يقوم بحركة التفاف خلف محمد ورجاله .. إن رماة النبل من المسلمين يحبطون أية محاولة للالتفاف .. وحامل اللواء الثاني يسقط هو الآخر .. والمسلمون يتقدمون وسمع وحشي من خلفه صوت امرأة يترنم بأبيات من الشعر :

إن تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

— « هند يا بنت عتبة .. إن حملة اللواء من مكة يسقطون

أدارت إليه وجهاً لونه الحنق والغيظ .. وهتفت :

— « ألم تجد حمزة بعد ؟؟ » .

— « أنا لن أتعجل أمري .. أبحث عن الفرصة المناسبة .. »

وتحتدم المعركة ، ويوشك أبو سفيان أن يفقد حياته لولا رجل من رجاله نهض لانقاذه ، وهند ترى السيف فوق رأسها فترتاع وتولول . فيدرك الفارس المسلم انها امرأة ملثمة ، فيبتعد عنها وهو يتمتم « ما كنت لألوث سيف رسول الله بدم امرأة » .

وينظر وحشي إلى الجحيم المشتعل .. حملة لواء مكة ما زالوا يتساقطون . ماذا لو انتصر المسلمون ؟؟ أيفرح وحشي إذا اصطاد حمزة ، وقضى عليه ؟؟ ويحه إن سقط أسيراً . لن يكون أسيراً فحسب . بل سيكون الأسير الغادر الذي اغتال حمزة عم الرسول .. يا للكارثة !! إن دبيب الوهن يتسرب إلى قلبه .. ووحشي يرتجف ، ويسود وجهه الأسود شحوب ظاهر .. لكن المسلمين قلة وجيش مكة ضخم العدد والعدة . فلماذا تنتصر القلة على الكثرة المدعمة بكل ألوان القوة والحقد والثراء ؟؟ لا بد أن تكون الغلبة لقريش تلك سنة الحياة .. أما المبادىء فهي وهم .. لا وزن لها إلا ما يدعمها من قوة .. ليكن محمد على حق . وليكن أبو سفيان غائصاً في أوحال الباطل حتى أذنيه .. الحرب تحسمها القوة وحدها .. وقهقه وحشي في سخرية وهو يقول :

— « إن لكل إنسان في هذه الحياة مبدأ أياً كان هذا المبدأ ..

له أفكار تحركه ، ولديه أشياء يدافع عنها .. أجل هنا مبادىء ، وهناك مبادىء وإن اختلفت طبيعة الاثنين .. لكن لماذا يستميت أنصار محمد هذه الاستماتة الغريبة ، ويتسابقون إلى الموت هذا التسابق الغريب ؟؟ انهم يطربون لما يسمونه الشهادة وريح الجنة.. مسميات لا أفهمها .. أنا أعرف أن الموت هو الموت .. وما وراء ذلك لا أعرف عنه شيئاً ولا أثق به ، إن ما أثق به هو وجودي .. حاضري .. عذابي الذي أكتوي بنيرانه .. ملعونة تلك الحياة .. إنني عاجز عن فهم بعض أسرارها ودوافعها الغريبة .. لم أعد أرى سوى شيء واحد .. ذاتي المضطهدة الضائعة التي تذوب أسى وحنيناً وهي تبحث عن حريتها ..

وهب وحشي واقفاً ، وقد تصلبت يده على حربته ، واكفهرت ملامحه ، واكتسى وجهه بسحنة شيطان ، وجمدت نظراته الشرهة على شيء بعيد :

ـ « إنه هو .. حمزة بلحمه ودمه .. ها هو كالجمل الأورق .. يفرق الصفوف ويصرع الأبطال ، وينطلق كالصاعقة المدمرة .. حمزة بن عبد المطلب عم الرسول ، وملتقى ثارات المحزونين من بيوتات مكة العريقة .. السيد المهاب .. والفارس الذي لا يشق له غبار .. » .

وداخل وحشي رعب من نوع جديد ، ماذا جرى له ؟؟ تلك هي اللحظة التي طالما حلم بها ، وحمزة هو الشخص الوحيد الذي يستطيع وحشي عن طريقه ان يؤكد ذاته ، وينال حريته وبين وحشي وغايته مسافة قصيرة ، لن يجتازها بقدميه ، ولن

يعرض نفسه فيها لاخطار ، ستنوب عنه حربته ، هذه الحربة ستقطع تلك المسافة في ثوان معدودة .. لن يراه أحد وهو مختبىء خلف الشجرة أو مستتراً وراء تلك الصخرة . فإن نفذت حربته إلى غايتها فقد نال ما تمنى .. وإن طاشت فلن يراه أحد .. ليس في إمكان وحشي أن يلقي الفارس المسلم وجهاً لوجه في معركة صريحة .. إنه أضعف من ذلك بكثير .. لقد ابتعد حمزة . ووحشي ما زال نهباً للتردد والرعب الغامض الذي اجتاحه .. وصرخ :

– « يا نفسي الذليلة . لم هذا الخور والوهن ؟؟ » .

وأخذ يبحث بنظراته المرتجفة عن حمزة .. إنه هناك يصول ويجول .. وجرى وحشي بسرعة نحو شجرة قريبة من حمزة ، واتخذ له مكمناً أميناً خلفها .. وحمزة يجالد في استماتة .. مركزاً اهتمامه في الدائرة الصغيرة التي تحيط به . ويضرب بسيفه يميناً ويساراً .. ماذا ؟؟ إنه يشعر أن آلة حادة قد اخترقت أحشاءه في قسوة .. لكنه ظل يصارع .. وشعر بسائل لزج ساخن يبلل ملابسه وجسده .. وأن قواه تخور .. حاول أن يتماسك . لكنه شعر برأسه يدور ، وجسده يتراخى .. والمرئيات تختلط أمام عينيه ، والضجيج يخفت في مسمعه رويداً رويداً .. ويشعر أخيراً برأسه يتوسد الحصى ، والروح تتسرب من جسده . فيحاول أن ينطق بكلمات كبرى . فتخرج واهنة لا تكاد تسمع « الحمد لله الذي كتب لي الشهادة . وأماتني على الإسلام » . وارتسمت على ثغره ابتسامة

خالدة ، لم يستطع الموت أن يطفىء نورها القدسي .. وهكذا لفظ حمزة أنفاسه الأخيرة .. بينما وقف « وحشي » خلف الشجرة مشدوهاً لفترة لا يدري أطالت أم قصرت ، وعيناه على البطل الشهيد والحربة المغروسة في أحشائه ، والدماء التي تسيل منه ، وأفاق وحشي إلى نفسه ، وفرك يديه في عصبية ، وأخذت عضلات جسده تنتفض بشدة ، وتمشت البرودةالشديدة في أطرافه ، برغم حرارة الجو ، وتوهج الشمس ، وامتلأت عيناه بسائل لا يدري كنهه ، أهي دموع الفرح ؟ ثم عادت الحقيقة الضخمة تملأ رأسه وعالمه كله « لقد قتلت حمزة بن عبد المطلب » وصاح بأعلى صوته في هذيان محموم « قتلته .. قتلته .. أين مولاي جبير بن مطعم ؟؟ أين أنت يا هند بنت عتبة ؟؟ أين عكرمة بن أبي جهل .. أين الثكالى والذين يحرقهم الشوق إلى الثأر ؟؟ العبد الحبشي الحقير « وحشي » قد أخذ بثأركم .. » .

وتلفت حواليه فلم يجد أحداً ممن ذكر أسماءهم . حتى القريبون منه كانوا في شغل شاغل عنه بالحرب وبأنفسهم ، لقد ضاعت صيحاته في خضم الضجيج الهائل في المعركة الضارية فارتمى خلف صخرة منهكاً محطماً .. كان يود أن يركز الجميع أبصارهم عليه وحده .. على حربته وهي تنفذ في أحشاء حمزة لكنه أنهى أعظم مهمة أوكلت إليه في حياته دون أن يراه أحد.. أو يصفق له أحد .. دون أن تصب في أذنيه عبارات المديح والإطراء التي تسكره . وتدغدغ حواسه ..

وتذكر وحشي أن حربته لم تزل في أحشاء الشهيد ، إنه لا يستطيع فراقها .. يكاد يذهب عقله بددا او عاد بدونها ، فهب واقفاً ، وانطلق متسللاً ، ثم انتزعها .. وعاد .. وجلس خلف الصخرة يمسح عنها ما علق بها من دماء .

– « يا حربتي الغالية .. لقد نهلت اليوم حتى أطفأت ظمأ السنين .. لن تظمأي بعد اليوم أبداً .. وكيف تظمأ من شربت من دم حمزة ؟؟ » .

ورمى الوجود المضطرم من حوله بنظرات فاحصة . ثم تمتم : « الآن .. أصبحت حراً .. » ثم أخذ يصيح ويقهقه : « حراً .. حراً .. حراً .. ها ها ها .. » .

وعاد ينظر إلى الوجود مرة أخرى . ثم صعد أنفاسه في شيء من الارتياح ..

– « لكن السماء هي السماء .. و « أحد » ينتصب قبالتي شامخاً دون أن يعنيه من أمري شيئاً .. الوهاد والآكام لم تتغير .. كل شيء على حاله . إنني أصبحت حراً . لكني لم ألمس بيدي شيئاً بعد .. قلبي يدق في عنف . وأنا غارق في طوفان من المشاعر الهادرة .. » .

« أيها الأجير ... » .

سمع هذه العبارة فكأنما لدغته حية سامة فتاكة . ترى من نطق بهذه العبارة ؟؟ وتلفت حواليه فلم ير أحداً . انفض الناس من حوله ، وتحركت الجموع المتحاربة من مكان لمكان وجثة الشهيد حمزة ترقد في سكون والابتسامة الخالدة ترتسم

على ثغره . لكن عبارة « أيها الأجير » تطن في رأس وحشي .
وتدق جمجمته من الداخل دقاً رهيباً . وكأنها قادوم ثقيل .
ما زالت العبارة تطن « أيها الأجير » من قالها ؟؟ أهي مجرد
خاطر خبيثاً تسلل إلى فكره . فيخيل إليه أن هناك من يهتف
بها في أذنيه ؟ أوه .. ربما يكون حمزة قد صرخ بها .. لكن
حمزة ميت .. الموتى لا يتكلمون .. الأحياء وحدهم هم الذين
يتفوهون بالحماقات والسخافات ..

وعاد ينظر إلى الوجود من حوله . وقال بصوت جريح :

— « لم يتغير شيء ملموس .. » .

فسمع من خلفه صوتاً :

— « بل حدث تغير كبير يا « وحشي » . لقد حلت بنا
الهزيمة .. وجموع مكة تفر هاربة انج بنفسك .. » .

وانتفض وحشي واقفاً . وأعاد النظر .. الناس يهربون
أمام موجة الزحف الإسلامي المنتصر . وجيش المسلمين يستولي
على الغنائم . ويطارد الهاربين . يا للكارثة ! ! أيقع « وحشي »
أسيراً في يد المسلمين ؟؟ ألا ينعم بحريته سوى لحظات قليلة .
ثم يسقط ثانية في رق الأسر ؟؟ وليت الأمر وقف عند هذا
الحد . إن محمداً لن تخفى عليه خافية . قد يدله أحد علي
ويشهد بأني قتلت حمزة غيلة وغدراً . ومن ثم أفقد حريتي
وأفقد معها حياتي هي الأخرى . ولا يبقى من وحشي سوى
خبر تافه حقير يتسلى به الساخرون والماكرون ...

— « لماذا تقف هكذا كالأبله يا وحشي ؟؟ فلتطلق ساقيك

للريح ..» لم يكن هناك وقت للتفكير . التفكير عندئذ مضيعة للوقت والحياة ، وجرى وحشي . كان يجري ويلهث كحيوان خائف يطارده صائد عنيد . وانكفأ وحشي ، ثم نهض مسرعاً.. العرق الغزير يغرق وجهه ويختلط بالغبار .. دائماً يشعر بالمطاردة طوال حياته يجري ويلهث . لم يغتنم الراحة في حياته . ولم يذق طعم السعادة حتى في اللحظة التي ظن أنه نال حريته ..

ثم وقف – وقد بلغ مكاناً آمناً – ليلتقط أنفاسه ..

وابتسم وحشي في مرارة .. « في لحظات الرعب . يتعطل الفكر . ويتحول الإنسان إلى حيوان تحركه غرائزه .. لم أكن أفكر في شيء سوى النجاة .. ساقاي هما اللتان تفكران .. يا لتعاستي !! كيف تغلب القلة هذه الكثرة الهائلة ؟؟ سؤال لا أجد له تفسيراً .. لكني لن أسلم نفسي لمحمد ورجاله .. لسوف أهيم في البرية . وأساكن الوحوش والذئاب . وأؤاكل الثعالب .. ولن آمن لإنسان على وجه الأرض . لم أعد أثق في أحد .. لكن لا بد أن أعود إلى مكة . ليرى الجميع أنني أصبحت حراً .. وأنني أخذت بثأر السادة العاجزين المنهزمين.. ولترى فتاتي الطيبة الجميلة أنني نلت حريتي بيدي لم أتلقها هبة من أحد .. سترى أنني سيد نفسي .. عندئذ تركع تحت قدمي الحافيتين . وتبللهما بدموع الحب والوفاء . ولا تناديني إلا بكلمة سيدي .. أو مولاي .. إنني مثل جبير بن مطعم تماماً .. أنا لا أفكر في شيء سوى هذا .. أما « هبل » وغيره من آلهة قريش فلا يعنيني أمرها .. لو كان هناك شيء يعبد حقيقة

لعبدت ذاتي .. أنا كل شيء .. تلك هي الحقيقة .. الذين يدافعون عن « هبل » لا يدافعون عن صنم .. إنهم يدافعون عن ذواتهم .. عن أمجادهم ومراكزهم .. إنني أعرف جيداً ما يفكر فيه هؤلاء الحمقى الكذابون .. لو خدعوا العالم كله فلن يخدعوا وحشي الذي أنضجته الأحزان والحرمان والذل الطويل .. » .

وسمع خلفه صوت امرأة: « وحشي .. لماذا تقف هكذا؟؟ »

— « ألم تدر الدائرة علينا ؟؟ » .

— « أيها الذاهل .. هذه فرصتك لقتل حمزة قبل أن يقتله غيرك ، لقد عصى رماة المسلمين أمر نبيهم ، وهرولوا متسابقين لجمع الغنائم فاستطاع خالد بن الوليد أن يقوم بحركة التفاف مباغتة ، فعادت قريش إلى المعركة من جديد ، وأخذ المسلمين على حين غرة .. وهناك من يزعم أن رجالنا قد قتلوا محمداً نفسه .. » .

أدار إليها وجهه وهو لا يصدق ما يسمع . وهتف :

— « محمد ؟؟ » .

— « أجل يا وحشي .. » .

هز رأسه دون اكتراث وقال :

— « أما أنا فقد انتهت مهمتي .. قتلت وحشي .. » .

ضحكت المرأة في سخرية وقالت :

— « تعني أنك قتلت نفسك .. » .

أفاق من شروده وقال :

— « لا .. لا .. أقول قتلت حمزة » .

— « أنت ؟؟ » .

— « أجل .. وهذا يكفيني .. لقد دفعت الثمن .. ونلت حريتي .. » .

وسمع مرة أخرى تلك العبارة القاتلة « أيها الأجير » . فثارت ثائرته . وفارت الدماء في رأسه ولوح بحربته مهدداً :

— « اخسأي يا امرأة .. ماذا تقولين ؟؟ أنا لست أجيراً ولا مأجوراً .. لم أعد عبداً ولن أقبل إهانة بعد اليوم .. » .

قالت المرأة في دهشة :

— « لم أقل شيئاً مثل هذا . هل جننت يا وحشي ؟؟ » .

وشعر وحشي بعرق الخجل يغمر جبينه . فطأطأ رأسه في أسى . ولم يعلق بكلمة واحدة . بينما قالت المرأة :

— « لسوف أسرع إلى هند زوجة أبي سفيان لأبلغها النبأ السعيد .. » .

وجلس وحشي وحده يفكر ، لقد انتصرت الكثرة بما يدعمها من قوة في العدد والعدة ، وعادت الثقة إلى نفس وحشي وإلى مبادئه ، لقد أصبح من الضروري بالنسبة له أن ينهزم المسلمون . لا رجعة لوحشي بعد أن قتل حمزة ، لقد ارتبط مصيره بمكة وبأبي سفيان وجبير وعكرمة وغيرهم .. وسيكون تصديه للمسلمين مسألة حياة بالنسبة له ومع حدوث النصر الذي سمع به الآن إلا أن شيئاً غير قليل من الخوف قد داخل نفسه ..

وأفاق من هواجسه على ضجة تقترب إنها هند قد أتت وحولها النسوة يترنمن بالأراجيز . ويتغنين بالنصر المؤزر ، وأحطن بوحشي من كل جانب . يسألنه عن حمزة . هل قتله حقيقة ، انتعشت نفس وحشي وعاوده زهو غامر ، فأشرقت ملامحه ، وأشار إليهن أن يتبعنه . إنه يمضي منتصب القامة ، هذا هو يوم المنى والمجد يا وحشي . كلمات الثناء تنصب في أذنيه ، ويحث الخطى كبطل أسطوري . نسي الغدر والغيلة ، ولم يعد يذكر سوى المجد الذي طالما حلم به طويلاً ..

ووقف عند رأس الشهيد قائلاً :

ـ « هذا هو حمزة .. وهذا هو مكان الإصابة .. » .

وولولت هند من شدة الفرح . ثم زغردت . واستلت خنجراً وانقضت على بطن حمزة تبقره ..

أشاح وحشي بوجهه وانصرف .. لم يعد لوجوده معنى ، إن لهند بنت عتبة طقوساً رهيبة تريد أن تؤديها . وستنغمس في طقوسها الشاذة وتنسى « وحشي » . وهو لا يريد أن يقف ليتفرج ..

وعادت هند بعد لحظات وقد جدعت أنف حمزة . وقطعت أذنيه وجعلت من ذلك وغيره أقراطاً وأساور تحلت بها . ثم أمسكت بأساورها الذهبية وأقراطها المطعمة بالجواهر . ووهبتها هدية لوحشي .. ونحروا الجزر .. وشربوا الخمر .. وسكروا بالكأس وبحلاوة النصر .. وترنموا بالقصيد ، وتغنوا بالثأر .. ووحشي جالس وحده منكب على كأسه يتجرع منها حتى

كاد أن يفقد وعيه لولا أن انتزعوا الكؤوس من يديه ، وابعدوا الخمر عنه .. وأخذ يهذي ولسانه الثقيل لا يكاد يسعفه بما يريد قوله :

— « لكنكم كذبتم عليّ .. إن محمداً لم يمت .. لقد جمع شتات جيشه لسوف يعود مرة أخرى .. المهم أن حمزة لن يصحو من غفوته الأبدية .. آه يا حبيبتي يا حربتي الغالية .. إنك لم تخذليني في ذلك الوقت العصيب .. لا .. لا .. لن يأخذها مني أحد .. أبعدوا عني .. إن حربتي أخلص لي من أي مخلوق في هذا الوجود .. إنها لا تكذب .. لا تغدر .. لا تخون .. وأنا اعشقها .. لم تزل عذراء .. » .

وتحسس حربته في رقة . ثم أخذ يقبلها في شغف ....

— ٥ —

عاد وحشي ومعه المجد .. والمال و .. الحرية .. ملأ رئتيه بالهواء . وحرك ذراعيه . وفردهما ثم تناهما . وسعل بصوت عالٍ دونما حاجة . وتحسس ذهب هند ومالها . وتذكر ما أفاضوا به عليه من النعم جزاء صنيعه العظيم .. إذ قتل حمزة .. ولكني لست مأجوراً .. قتلته في حرب .. ونلت مكافأة .. غيري يعودون بالأسلاب والغنائم والسبايا .. وأكاليل النصر وأنا عدت بحريتي .. كل يتقاضى شيئاً ويدفع الثمن . والحياة أخذ وعطاء » .

لكن قصة حمزة تدور في كل مكان . وتمثيل « هند »
بجثة الشهيد يتناقلها الركبان . ومحمد — كما يقولون — وقف
على جثة حمزة حزيناً دامعاً . وتمتم « ما وقفت موقفاً أغيظ
من هذا الموقف » ، إذن فإن مصرع حمزة قد آلم محمد أشد
الإيلام . الخسارة في حمزة فادحة ومثيرة . وتمتم « وحشي »
« محمد لن يغفرها لي .. إنني سأعيش طول عمري مهدور الدم..
إنه عبء ثقيل .. لكن هل هناك حرية بدون أعباء ؟؟ ليكن ..
فلن أخاف محمداً .. سأمارس حياتي الجديدة كيفما أشاء ..
سأقهر كل المنغصات . لا بد أن تكون الحرية قرينة السعادة
والأمان .. ومحمد بعيد عن مكة .. إنه هناك في المدينة ، يداوي
جراحه ويجمع شتات المسلمين . ويستعد لجولات جديدة.. يتطاحن
مع اليهود . ويصارع القبائل . ويحسب حساب قريش ..
إن لديه آلاف المشاغل . ولن يفكر كثيراً في رجل مثلي ..
آه .. ماذا ؟؟ انني أشعر بغير قليل من الملل .. لم أزل وحدي ..
لم الخداع ؟؟ انني لا أشعر بتغير كبير .. إن حصولي على الحرية
حدث ضخم . وكسب هائل . لكني كنت أتصور أنه
ستنتابني هزة كبرى .. سيملؤني شعور جارف غريب من
نوع لم أتذوقه طول حياتي .. لم أزل وحشي الوحيد القلق الذي
يضنيه التفكير والعذاب .. إن حصولي على الحرية في حد ذاته
أمر يبدو هيناً .. العالم كما هو .. أبو سفيان سيد مطاع ، جبير
ما زال يحظى باحترام الجميع .. ونظرة الجميع إليّ لم تتغير
كثيراً .. فهم ما زالوا ينظرون إليّ من عل .. والكارثة أن

العبيد في مكة يعاملونني في ود حتى لكأني واحد منهم .. هؤلاء الحمقى يباركون مجدي ، لكنهم لا يعلون قدري إنهم لا يحنون ولا يخفضون رؤوسهم احتراماً . ولا يخاطبونني في نبرات ذليلة خجولة .. قسماً لأحطمن جمجمة كل عبد يتجرأ على مقامي الجديد .. وهؤلاء السادة الذين يأبون أن ينسوا ماضيّ . لأجدعنّ أنوفهم .. لكني وحدي بلا قبيلة ، وأجر ورائي ماضياً مثقلاً بالعبودية والأحزان .. لم أنل غير كلمات الثناء التي تسكرني .. لا .. إن كلمات الثناء وحدها لا تكفني .. آه .. الناس حمقى لا ينسون .. وأحياناً يكونون حمقى لأنهم ينسون .. إنني حائر لم أزل أذكر هتافاتهم المدوية بعد النصر على المسلمين وهم يرددون « أعل هبل » .. ايعل هبل .. لينخفض هبل وايرم به في الأوحال .. إن تلك الهتافات تخنقني وتبعث في نفسي التقزز والغثيان .. فأنا لا أقدس شيئاً .. لم أزل ظامئاً إلى أشياء غامضة .. إنني حزين برغم الحرية .. أترى كان شعور « عنترة بن شداد » مثل شعوري الآن ؟! لا .. لقد كان سعيداً .. ترنم بأشعار عظيمة تنبي عن سعادته وهدوء باله.. آه .. لقد تزوج عبلة .. أميرة الأميرات .. آه تذكرت .. الليل يبسط رواقه على الوجود . وفتاتي لا شك تنتظرني الآن .. هذا أول لقاء بعد العودة .. » .

وانتزع وحشي نفسه من همومه ومجلسه . وارتدى ملابسه وشد قامته . ومضى تحت ستار الليل . يشق الظلمة إلى المكان المعهود . مهبط الذكرى والحب و الحنان .. لا شك أنها تنتظره

على أحر من الجمر .. إن مجرد التفكير فيها يخفف الكثير من عناء وحشي وضيقه ، ويبدد ما ينتابه من قلق . التفكير فيها يطغى على كل ما عداه .. إنها الابتسامة الوحيدة التي تشع في ليل حياته الحالك . لشد ما يحب هذه الفتاة .. لقد حركت في نفسه بعض المشاعر التي وجد لها طعماً سائغاً حلواً .. مشاعر أحلى ألف مرة من تلك المشاعر التي خفقت في قلبه يوم أن نال الحرية ... لا شك أن « عبلة » قد حققت لعنترة مثلما تحقق له فتاته الآن ... وبلغ وحشي مكان اللقاء . فازدادت خفقات قلبه . وجف ريقه .. سيلتقيان لأول مرة .. ودلف إلى الركن المقدس .. لكنها ليست هناك .. هي تعلم أنه ذاهب.. لا شك أنها ستأتي بعد قليل .. فلينتظر .. إنه لا يطيق الأنتظار . جسده يحترق من الانفعال . وقلبه يعتصره الخوف . إن تأخرها إهانة لكرامته . وتصغير لشأنه .. لن يغفر لها هذه الهفوة .. إن وحشي اليوم غير وحشي الأمس . وهي تعلم جيداً كيف تعامل السادة . هو سيد مثل جبير تماماً . وربما أخطر شأناً منه . لسوف يعطيها درساً في الأدب لا تنساه .. إذا كان جبير قد اشتراها بماله . فهو لا يملك إلا جهدها . أما وحشي فهو سيد عواطفها .. مالك قلبها ..

وامتد الوقت ولم تأت فتاته تلك التي يحلو له أن يسميها « عبلة » على الرغم من أن لها اسماً آخر ... تشبهاً بعنترة بن شداد .. وقد التصق بها هذا الاسم .. وثارت ثائرته .. إنها لم تكن لتعصي أمره في الأيام الخوالي . فكيف تتمرد الآن ؟!

آه « يا ليل العشاق الباهر .. عبلة لم تأت .. وعنترة يتلوى من الشك والهموم والعذاب .. وعبلة القديمة سيدة بنت سيد ، يقف دونها الأب والأخ والحراس .. وأنت يا مسكينة سائمة في بيت جبير .. لا يفكر فيك أحد إذا ما دهم النوم أهل البيت . وغابوا عن الوجود .. أين أنت .. يا نبع الحنان الصافي في عالم التشويه والنفاق والطغيان ؟؟ »

واعتلى ربوة عالية . وأخذ يدقق البصر في الطريق الذي يتلوى ولا يكاد يبين . إنه لا يرى شيئاً ، ولا يسمع حساً . كل شيء حوله مقفر ساكن ، ونجوم السماء ترشقه بسخريات صغيرة ..

— « الجميع يتحدثون عن الله .. وأنا وحدي لا أعير هذا الأمر التفاتاً .. الكهان يرغون ويزبدون .. وأحبار اليهود يكثرون في الحديث والاستشهاد .. والقساوسة والرهبان يقولون كلمات مؤثرة .. ومحمد يحير الجميع بكلماته البسيطة الخالية من الغموض والطلاسم والرموز .. بساطته برغم قوتها تبعث الشك . وغموض أعدائه برغم تفاهتهم تثير الفكر .. وما امتلأت مكة في يوم من الأيام بالأحاديث الصاخبة عن الله كما تمتلىء الآن .. والناس غارقون في متاهات التفكير بالإله .. أنا .. لا دخل لي بهذا كله .. إنني غارق في متاهات من نوع آخر .. يا عالمي الذاتي الغريب لقد ضعت في سراديبك المتشعبة »

وعاد ينظر إلى الطريق ، ويحاول جاهداً أن يتغلب على شدة الظلام . لعله يبصر بشبحها قادماً من بعيد ، فترد إليه

الروح ، وتخفف من هواجس نفسه ، وأحزان روحه ..

لكن عبلة لم تأت ... وامصيبتاه !! أتسخر منه هذه الجارية الذليلة ؟؟ لماذا يتسرع في الحكم عليها ؟؟ ألا يجوز أن يكون سيدها أو سيدتها قد أوكلت إليها عملاً معيناً ؟ ؟ أو ربما يكون قد باغتها مرض أقعدها عن السير إليه ، يجب أن يلتمس لها عذراً ، ويصبر حتى تأتي ، غير أن الصبر قد بات ثقيلاً على قلبه . وهذه الفتاة الحمقاء كان يجب أن تأتي مهما كانت الأسباب .. ولن يبيت وحشي ليلته حتى يعرف الحقيقة ، مهما كلفه ذلك من ثمن وأخذ يدق الصخر بقبضة متوترة جامدة ، ويلتقط أنفاسه بصعوبة ظاهرة ، فهو يحترق ويكاد يختنق مما انتابه من ضيق وقلق .. ثم هب واقفاً واتجه نحو مكة .. وانحدر إلى شوارعها ، وقصد تواً بيت جبير سيده القديم ، إنه يعرف مسالك البيت ومداخله . وهو يفد إلى هذا البيت بشعور يختلف عن شعوره القديم .. غادره عبداً ، وعاد إليه حراً .. لكن البيت جامد صامت . لا تشرق له طلعة ولا يبدو عليه أدنى اكتراث .. ولا يطرب لمقدم الرجل الذي قتل حمزة ، وأغاظ محمداً ، وأدمى قلوب أصحابه ، ودفع الباب بهدوء فلم ينفتح .. فدار دورة حول البيت . ثم وثب فوق جدار منخفض يشكل جزءاً من سور صغير .. وشعر بحرج بالغ .. ما هكذا يكون شأن الشرفاء ، ومثل هذا التصرف يسيء إلى فاعله إساءة بالغة . ويؤذي شعور أهل البيت . وقد يؤدي إلى فضيحة . لكن الفتاة لم تأت . وهو يريد أن يعرف مهما كلفه ذلك من ثمن . ثم

أن العهد ببيت سيده لم يبعد . ولم يزل له دالة على مولاه ..
والأمر سهل ميسور فهو يعرف أين تأوي الفتاة ، وتوسط ساحة
البيت وخطا عبر الظلام خطوات .. وانحرف وهو يرتجف
نحو حجرة جانبية .. وما أن دفع بابها ، حتى روعته صرخة
مدوية .. هرول على أثرها صاحب الدار وعبيده وأبناؤه .
فوجدوا وحشي ينتصب في بلاهة وجمود . لم تكن فتاته
وحدها ، بل كان معها عدد آخر من الجواري .. ثلاثة ..
ومن ثم أصابهن الرعب حينما وقع ضوء الشمعة الخافت على
وجه الوافد الذي لا يتوقعه أحد .. فصاحت إحداهن مستنجدة..
فتسمر في مكانه، بعد أن فقد القدرة على سرعة التفكير والتصرف
وشعر بحرج بالغ ، وهو يرى نفسه في هذا المأزق السمج » .

وعضت فتاته على شفتيها في حيرة ، والتزمت الضمت ،
مع أن خفقات قلبها كادت تحطم أضلاعها .. وقال جبير بن
مطعم وقد اكفهر وجهه ، وامتلأت نبراته بفيض الغضب :

— « ما الذي أتى بك الساعة إلى هنا ؟؟ » .

أطرق وحشي دون أن يجيب ..

فخطا جبير نحوه وأمسك بكتفه ، وهزه في عنف :

— « أيها الحقير .. من علمك أن تقفز فوق الجدران ،
وتقتحم حرماتها .. » .

— « سيدي .. » .

— « اصمت أيها الآبق .. إن نفسك لن تتغير .. نفس
عبد ذليل .. » .

— « سيدي .. » .

دفعه جبير بشدة . وأشار إلى عبيده قائلاً :

— « اقذفوا به إلى خارج البيت... » ثم استدار إليه قائلاً :

— « لو رأيت وجهك الأسود هنا مرة أخرى لحطمت رأسك ... » .

وهجم العبيد على وحشي وأمسكوا به . لكن جبير جرى وأمسك به مرة أخرى . ثم قال :

— « أريد أن أعرف لماذا جئت هنا الساعة ؟؟ أجئت لتسرق أم لتعتدي على الحرمات أم ماذا ؟؟ » .

دمعت عينا وحشي . وحاول أن يتصرف بلباقة فقال :

— « سيدي ، لم تزل الدار داري .. فأنا بالأمس غلامك وسأظل طول عمري في خدمتك . لقد ساقني الولاء والحنين .. وجدت الباب مغلقاً . لم أستطع .. كنت أريد أن آوي إلى مكاني المعهود .. الوحدة والفراغ يكادان يحيلان ليلي إلى جحيم تلك هي القضية .. ولا شيء غير ذلك .. » .

وقهقه جبير في مرح . بعد أن رق قلبه وقال :

— « على الرغم من حماقتك وشراستك فأنت طيب القلب »

وشمخ جبير بأنفه في ثقة وقال :

— « لا بأس .. اذهب واقض بقية الليل مع رفاقك القدامى إلى جوار حظائر الشياه .. » .

وافتر ثغر وحشي عن ابتسامة ساخرة لم تتضح معالمها في ضوء المصباح الزيتي . وتمتم :

– « شكراً لك يا سيدي .. انني سعيد بذلك .. انك تعرف ألفتي للمكان ومن فيه .. هذا يثلج صدري .. » .

وكان وحشي في داخل ذاته يتفجر غيظاً وحنقاً ، بل تمنى في تلك اللحظات ان ينقض على عنق جبير ، ويقبض عليه بيديه المتشنجتين ، ولا يتركه إلا جثة هامدة ، لشد ما يكره هذا السيد وبيته ومن في البيت ،ان ذلك كله مجموعة من الذكريات المرة المؤلمة لنفسه ، المؤذية لشعوره لكنه كان في موقف لا يمكنه ان يتصرف ازاءه سوى ذلك التصرف برغم ما فيه من غضاضة وتحقير .. كل ذلك من أجلها .. من أجل الملعونة التي أحبها قلبه ، وغامر في سبيلها تلك المغامرة الصبيانية ..

وعندما جلس إلى جوار رفاقه في حجرتهم القذرة ، تمتم أحدهم ساخراً :

– « انك تحن إلى العبودية » .

وقال آخر :

– « ان وحشي عبد من أخمص قدميه إلى قمة رأسه .. » .

وتمتم ثالث :

– « لو كنت مكانك يا وحشي لما حومت حول هذا البيت طيلة حياتي .. » .

وصرخ وحشي في حدة :

– « أيها الحمقى .. اصمتوا وإلا قطعت ألسنتكم .. » .

تبادلوا النظرات الحائرة ، وألقوا باجسادهم المنهكة على

الأرض صامتين ، انهم لا يستطيعون ان يفهموا دخيلة هذا الرجل الغريب الأطوار .. » .

– ٦ –

غادر بيت سيده متخفياً قبل ان يفضحه نور الشمس ، لقد قضى ساعات تعسة أشق عليه من سنوات الذل والعبودية ، كل ذلك من أجل فتاته ، أمله الوحيد الباقي في هذه الحياة ، والشعاع الذي يضيء ظلام نفسه المقهورة المضطرمة ، وعاد إلى خمره وكؤوسه يعب كيما ينسى ، وهل يستطيع ان ينسى كلمات « جبير » الجارحة ؟؟ انه لم يزل يعيره بأنه عبد ذليل ، ان عتقه لم يغير من وضعه شيئاً ، ألهذا كان يكافح ويسفح دم سيد من سادات قريش ، ويعادي نبياً ، ويعيش مراق الدم طول حياته ؟ أين أمانيه الحلوة ، وأحلامه الساحرة ، وما كان يتمناه من حرية وشرف وكرامة ؟؟ لكنه هو الذي دفع بنفسه لهذا الحرج ، وألقى بها في هذا المأزق ، بل ان فتاته هي السبب.. لكن كل شيء يهون في سبيلها .. إلا شيء واحد .. حريته ..

واستطاع وحشي ان يتصل بها وان يلتقي بها في خفية ، وعندما ضمهما مكانهما المعهود ، قال في توتر :

– « كيف تغدرين ؟؟ » .

ولما لم تجب ، هدر في عصبية واضحة :

– « جلست انتظرك حتى كدت أفقد عقلي ، من أنت

حتى تسبي لي مثل هذه الكوارث ، وتعرضي كرامتي للهز والسخرية ؟؟ » .

وظلت معتصمة بالصمت ، فاستطرد :

— « يجب ان تفهمي أنني مثل سيدك تماماً ، لا فرق بيني وبين جبير الآن ، أم أنك تشكين في هذه الحقيقة الأكيدة؟؟

ثم ابتلع ريقه ، واتجه إليها بكل اهتمامه متسائلاً :

— « لماذا لم تحضري في الموعد المضروب ؟؟ » .

— « لم يكن لدي رغبة .. » .

لكأنما سددت إلى قلبه سهماً قاتلاً ، وصرخ :

— « كيف ؟؟ أتستطيعين ان تقولي مثل هذا الكلام لسيدك جبير ؟؟ » .

— « لا أستطيع .. » .

— « لماذا ؟؟ » .

— « لأنه سيدي .. اشتراني بماله ، ورباني وحماني .. » .

— « وأنا ؟؟ ألست في منزلة سيدك ؟؟ » .

قالت في اصرار :

— « انك لا تملك هذا الحق !! » .

— « هل افهم ان ولاءك لمن اشتراك أكثر من ولائك لمن تحبين ؟؟ » .

وشردت بضع لحظات ، وتمتمت :

— « لقد اصبحت اشعر ان هناك حاجزاً ضخماً يحول بيني وبينك ، امتلأ قلبك بترهات وأفكار غريبة ، فلم يعد

فيه مكاناً لمثلي ، لقد فقدت وحشي المتواضع المخلص البسيط..
تمزقت بيننا أواصر الحب والآلام والعذاب .. انني لا أثق
في حب السادة .. » .

قال وهو يمد يده نحوها :

ـ « أيتها الغبية .. لئن نلت حريتي ، وتخلصت من
عبوديتي .. فاني سأظل بالنسبة لحبك عبداً ذليلاً طول حياتي.. »
وما أن لمست يده كتفها ، حتى ارتجفت وابتعدت عنه .

ـ « ماذا جرى ؟؟ » .

ـ « لا أعرف .. لقد زرعت في نفسي الوساوس والهموم
كنت أفكر فيك وفي كلماتك وأنت في الحرب ، لم أخرج
بشيء من ذلك كله ، اللهم إلا القلق والشك في كل شيء ..
لقد أصبحت أخاف منك .. أنت الذي ملأت سماءنا الجميلة
بسحب قاتمة .. أصبح كل شيء معقداً مخيفاً .. يكفي انك
حر وأنا أمة مشتراة .. » .

تمتم في ضيق :

ـ « أيتها البلهاء ، وما شأنك بهذا كله ؟؟ لا تفكري في
شيء من هذا ، الأمر الوحيد يجب أن يشغل بالك هو مصيرنا.
لا بد ان نتزوج ونعيش معاً إلى الأبد .. ليس بيننا حواجز من
أي نوع .. سأحاول ان احررك بمالي .. سأدفع لسيدكما يشاء.. »

همست في سخرية :

ـ « تشتريني ؟؟ » .

ـ « ولم لا ؟؟ » .

هب واقفاً ، وواجهها في حيرة قائلة :

— « الحقيقة انني لا أفهم شيئاً مما تقولين ، ولا اقتنع بكلمة واحدة .. قولي صراحة .. هل تغير قلبك نحوي ؟؟ » .

— « أجل .. » .

هوت الكلمة في أذنيه كالصاعقة ، وهزت كيانه ، فارتعشت ساقاه ، وأوشك ان يتهاوى ، لكنه تماسك وقال في صوت مرتجف :

— « إنك مثلهم .. انت تسخرين مني ومن كبريائي ، وتحتقرين تجربتي العظيمة في التحرر ، انتم جميعاً تتآمرون عليّ تريدون ان تحرموني من الكسب العظيم الذي حققته ، تصرون على ان تشعروني بتفاهتي وحمقي .. منذ متى تعلمت هذه الوقاحة والتبجح ؟؟ انه لانقلاب غريب لم أكن اتصوره .. لقد كنت أطوع لي من بناني وأنا عبد ذليل ، فكيف تعترضين على مشيئتي وأنا حر أبي لا سلطان لأحد عليّ ؟؟

تمتمت في أسى :

— « دعني أفكر .. » .

— « تفكرين ؟؟ كيف ؟؟ » .

— « ان سيدي نفسه لا يستطيع ان يحرمني من التفكير .. ».

— « لقد اصابك مس من الشيطان .. » .

— « أنت الشيطان نفسه .. انك لم تعد تر شيئاً .. او دققت النظر في مرآة لهالك التغير الذي طرأ عليك .. ان نظراتك التي كنت أرى فيها الوجد والخضوع والحب تغيرت تماماً ..

أرى الآن فيها تحدياً وحقداً وشراهة .. ووجهك الساذج السمح قد تقلصت عضلاته .. أرى فيه انساناً في حالةمستمرةللانقضاض والوثوب والافتراس .. حتى كلماتك البريئة مسخت تماماً وأصبحت أشبه ما تكون بالأوامر .. آه .. أين أنت ؟؟ انني أبحث عنك فلا أجدك .. أين الرجل القديم الذي ملأ عليّ حياتي ، وأحال الحاضر والمستقبل إلى جنة وارفة الظلال ؟؟ ».

تمتم في حنق :

— « تحبين العبد الذليل » .

— « أجل .. » .

— « انه تعصب حقير لبني جنسك .. تقديس لنقائصكم ورذائلكم .. انك تحسدينني على ما نلت من حرية وكرامة .. يا جنس العبيد .. » .

قالت وقد احتقن وجهها غضباً :

— « انك لا تفكر إلا في نفسك .. » .

— « أنا ؟؟ » .

— « ولا تفكر في الحب إلا بالقدر الذي يروي ظمأك.. ا نني أعرفك .. وبالطريقة التي تحقق ذاتك ، وتغذي كبرياءك انني أعرفك .. » .

— « أنا ؟؟ » .

— « ليس لديك حق ولا باطل ، ولا تعترف بحلال ولا حرام .. » .

— « كيف ؟؟ » .

— « نفس الكلمات التي قلتها بالحرف الواحد ذات يوم.. »
— « لم أقصد الاساءة إليك .. » .
— « إنك تسيء إلى نفسك أولاً .. وإلى جميع الناس.. ».
اقترب منها ، وانحنى في ضراعة قائلاً :
— « أنت حياتي .. وحريتي .. » .
— « لا تلمسني يا وحشي .. » .
صاح في جنون :
— « انني استطيع ان أسحقك .. » .
— لن تجني شيئاً .
— « والنتيجة ؟؟ » .
— « دعني وشأني .. » .
فاحتواها بين ذراعيه القويتين ، وضمها على الرغم منها إلى صدره وهي تصرخ وتقاوم ، وتدفعه في صدره بيديها الواهنتين ، وتصيح :
— « أيها الوحش .. » .
— « لن أتركك لحماقتك .. » .
لكنها ظلت تقاوم ، حتى تراخت يداه ، وهو يلهث ، بينما انطلقت تقول :
— « انني احتقر حريتك وأفكارك .. » .
قال وقد اشتعل جسده ناراً :
— « ان هناك رجلاً آخر .. » .
— « أجل .. » .
دارت به الأرض ، ولم يعد يرى شيئاً ، واستحالت حرارة

جسده إلى برودة وعرق وخفقات في صدره وتمتم فيحزن بالغ :

— « من هو ؟؟ » .

قالت في هدوء :

— « محمد .. » .

صرخ في ارتياع :

— « من ؟؟ » .

— « إنني أشهد أنه لا إله إلا الله . وان محمداً رسول الله ».

لم يستطع البقاء في مكانه ، تراخت ساقاه . وجلس على الأرض . وجحظت عيناه . حاول ان يتكلم فاحتبست الكلمات في حلقه ، وجاءه صوتها :

— « وكلمات محمد يا وحشي تحمل السلوى والعزاء للمحرومين .. ودينه يضم في مبادئه الخلاص .. ولو تحولت هذه المبادىء إلى حقائق في هذه الأرض لعم السلام ، ونعم الناس بالسعادة .. » .

صرخ في دهشة :

— « لكن أحاديثك السابقة كانت تخالف ذلك .. لم تنطقي بمثل هذه العبارات من قبل، تصرفاتك لم تحمل معنى يوحي بهذا التطور الخطير .. أبلغت بك البراعة هذه الدرجة من التخفي والتظاهر ؟؟ » .

قالت في هدوء :

— «انه نور انبثق في خاطري فجأة.. لا شك ان له هواجس قديمة في نفسي .. افكار أخذت تنمو وتكبر حتى وجدتني

ذات يوم انطق الشهادتين .. » .

وصمتت فترة ثم قالت :

— « انك تحاول ان تنال حريتك كفرد .. بجهد شخصي محدود .. اتعتقد ان هذا يغير كثيراً في القضية الكبرى لنا نحن العبيد ؟؟ مستحيل .. ان مجموع الناس هنا بتقاليدهم ومبادئهم يكونون مشكلة كبرى .. مأساتك ذرة صغيرة في بحرها .. ولن تسود العدالة والحرية إذا تحرر وحشي .. أو عشرات مثل وحشي .. ان وجه الحياة أعني النظام كله واسسه كلها يجب ان ينغير.. وأن ينطلق هذا التغيير من هنا (وأشارت إلى رأسها) ثم من هنا (وأشارت إلى قلبها) » .

التفت إليها دون ان تزايله دهشته :

— « لكن لماذا لم تخبريني بذلك قبل ان أذهب إلى الحرب؟؟ »

— « لم تكن الظروف مناسبة ، ولم أكن قد استقر قراري بعد .. » .

ضرب كفاً بكف ، وتمتم :

— « أصبحت الأمة البلهاء فيلسوفة .. » .

— « لا أعرف شيئاً عن الفلسفة يا وحشي .. انها كلمات سمعتها وآمن بها قلبي ، وما أنا إلا ناقلة أمينة لها .. » .

استبد به الغضب ، ولوح بيده في حنق قائلا :

— « لقد أسلمت في وقت مناسب جداً .. الآن تستطيعين ان تذهبي إلى محمد .. »

وأضاف ساخراً :

– « وان تشاركيه النصر العظيم الذي حققه في « أحد » منذ أيام » .

طأطأت رأسها في أسى قائلة :

– « أعرف أن قريشاً قد كسبت هذه الجولة ، لكن الوحي أكد لمحمد ان النصر للمؤمنين في النهاية .. » .

قال في ازدراء :

– « كلمات يعوزها الدليل .. » .

– « أتريد دليلاً على كلمات الله .. يكفي أنها وحي يوحى .. إذ كنت قد آمنت بالله وبرسالة محمد ، فلا أتردد في الإيمان بآيات القرآن .. » .

أمسك بيدها وجذبها بقسوة :

– « من علمك هذه الكلمات ؟؟ » .

– « نساء ورجال يملأون مكة .. ويخفون اسلامهم .. » .

دفعها إلى الوراء وقال في شماتة :

– « لسوف أخبر مولاك بكل شيء .. عندئذ تقطع رؤوس المفتونين ، وتعلق على قارعة الطريق .. » .

هدرت في صوت ثابت قوي :

– « أتفعلها كرجل ؟؟ أتبدأ عهد حريتك بالغدر وتقييد حرية الآخرين في ان يختاروا العقيدة التي يقتنعون بها ؟؟ انني لم أفش لك سري إلا لعلمي بأنك قد تعود إلى حظيرة الله وتعلن اسلامك .. » .

أعطاها ظهره ومضى ..

كان يتخبط وسط الظلام لا يدري أين يتجه . وبدا له ان الموت أروح من هذه الحياة الثقيلة المليئة بالأعاجيب والاحاجي والتي تزمجر فيها الأحداث زمجرة العواصف العنيفة ..

وعندما بلغ بيته الجديد عجز عن الاستطراد في التفكير ، فهرول إلى كأسه لعلها تنسيه أحزانه وقلقه العتيد .

— ٧ —

الشعاع الوحيد الباقي في ذلك العالم الأسود قد انطفأ . مات الضوء فجأة وبدون مقدمات أليس هذا غدراً ؟؟ والطعنة أتت من حيث لا يتوقع وحشي ، كان يوقن أن الخيانة قد تنطلق سهامها من أي انسان إلا « عبلة » .. كانت رصيده الوحيد في صحراء الحياة الحارقة الجافة .. الواحة الخضراء التي يأوي إليها .. ها هو يحيى الآن بلا رصيد .. أليس هناك تفسير واحد صحيح لمعنى هذا الوجود وتصرفات البشر ؟؟.. لو حلت هذه العقدة لما بقي في الأرض مأساة.. أم ترى ان التفسير الصحيح موجود ووحشي يغلق عقله وقلبه دونه ؟؟ وإذا كانت الحياة كلها غدراً وخداعاً وخيانة فلماذا لا يتعامل وحشي مع الجميع بنفس الطريقة .. لماذا لا يذهب مثلاً إلى سيده القديم « جبير » ويخبره بأن « عبلة » قد صبأت ، وخرجت عن دين سيدها ودين الاشراف من القوم ؟؟ لكم يحلو لوحشي أن يرى سيده « جبير » وهو وبسحق هذه الحشرة سحقاً .. ينثر عظامها .

ويريق دمها ، لكي تتعظ ويتعظ غيرها من المغرورين والمغرورات ولكي يتأكد لها أن الحياة أعظم هبة في الوجود ، وان الحفاظ عليها أهم من محمد وعقيدته ومبادئه الكبيرة ! !؟ أيتفتح قلب إمرأة مملوكة على النور ، وتغشى عنه عيناي .. وعينا سيدها ؟؟ وكيف ينصرف فكرها إلى مثل هذه الأمور وهي في مثل تلك السن ، وتحت تلك الظروف القاسية .. أم ان ما يراه مانعاً من قبولها لدين محمد ، قد يكون نفسه هو السبب في ايمانها به ؟ ويغمغم وحشي لنفسه : « ويحي .. انها تجرني إلى التفكير في أمور ما كنت أود أن أستغرق فيها قبل ذلك .. وعندما يعلم سيدها بأمرها ، فلسوف يسوقها إلى الساحة الملعونة ، ليشوي جلدها تحت وهج الشمس والسياط ، ويجمع حولها الصبية يبصقون عليها ، ويقذفونها بالأحجار ويتسلون بعذابها .. » .

وعندما بلغ « وحشي » هذا الحد من التصور الحاقد ، وجف قلبه ، وشعر بغير قليل من الرثاء والعطف عليها ، انها رقيقة حساسة .. أخلصت له الحب في الماضي ، وهي لم تقل حتى الآن انها تكرهه ، لكن عاملا جديداً طرأ على علاقتهما من جراء اختلاف وجهتي النظر .. هي ترى أن الدين الجديد أصبح في حياتها كل شيء ، يجب أن تخلص له في السر والعلن ، وان تهب نفسها وروحها من أجل دعوة محمد ، وهو يرى أن الحرية والحب أعلى نعمة في الوجود ، وانه لا يصح ان يعول إلا عليهما .. ومن هنا جاء الصدام .. ألا يمكن ان يلتقيا مرة أخرى؟؟ لقد أصبحت بينهما مسافة طويلة من التنافر ،

وكيف يستطيع أحدهما ان يطوي هذه المسافة طياً ، ويلحق بالآخر ، وتعود علاقات الود القديم .. ومن ثم لا يصح ان يتسرع في الوشاية بها .. ان الوشاية ستصم عاطفته وصمة لا خلاص منها ..

لكن الغيرة تأكل قلبه ، والوحدة تنهش روحه نهشاً ، والضياع يملؤها عذاباً أقسى من عذاب العبودية والقهر ، كان في امكانه أن يعيش بدون نعمة الحب .. لا .. لا .. انه لم يفقد الحب بعد ، ان قلبه يصرخ بالحب والشوق ، و « عبلة » لم تبع نفسها للشيطان .. ولم تسلم قيادها لرجل آخر .. « ان حب محمد من النوع الذي لا أخاف ولا أغار منه .. ان محمداً بالنسبة لها أب ومعلم ومنقذ لروحها .. انه نبي كما يزعم ، وحقد وحشي عليه ينبع من خوفه منه بسبب قتل حمزة ، وينبع أيضاً من تأثيره الكبير على اتجاهات فتاته وافكارها .. ومحمد ربما لا يعرف عبلة حتى الآن ، وقد لا يعرف الكثيرين مما يدينون سراً بدينه ..

.. آه .. الوحدة تقتلني يا « عبلتي » القاسية .. وحريتي أصبحت مرة المذاق ، وحياتي بلا معنى .. وأنت لا تعلمين ما ينتابني من أرق ويأس وعذاب .. » .

* * * *

والتقى « وحشي » ذات مساء بأحد أصدقائه الأرقاء القدامى واسمه « سهيل » وهو تاجر من الطائف ، ولم يخف على

الصديق ما طرأ على « وحشي » من تغير ، انه يراه شارداً حزيناً ضائق الصدر . لا يكاد يستقر على حال ، ولا تعرف البسمة طريقاً إلى شفتيه ..

قال صديقه سهيل :

– « ماذا دهاك ؟؟ » .

تنهد وحشي » آسفاً وقال :

– « هجرتني دون وداع .. » .

– « من .. » .

– « حبيبة القلب .. » .

– « كيف يا وحشي ، وقد أصبحت حراً ؟؟ » .

– « أليس هذا عجيباً ؟؟ ان القدر يسخر مني .. » .

– « ترى ما السبب يا وحشي في هجرانها ؟؟ » .

قال وحشي في شيء من الضيق :

– « محمد .. » .

– « كيف ؟؟ » .

– « لقد أسلمت .. » .

– « لكن إسلامها يا وحشي لا يقتل الحب ، المسلمات كما أعرف أكثر النسوة ولاء ووفاء .. » .

– « لقد فرق بيننا العقيدة .. » .

– « ان زينب بنت محمد بقيت مع زوجها أبي العاص ابن الربيع على الرغم من اسلامها وكفره .. انها بنت محمد يا وحشي .. » .

التفت إليه وحشي قائلاً :

— « وهل نسيت أنه عندما وقع أبو العاص في الأسر يوم « بدر » أطلق محمد سراحه على أن يعيد إليه ابنته ؟؟ » .

قال الصديق :

— « أوه .. كثيرات في مكة يؤمن بمحمد ويكفر أزواجهن ولكنهن يعشن حياتهن العادية .. » .

— « إن إيمانها يا صديقي تدفق فجأة ، وملأ روحها ، وجعلها تجعل العقيدة فوق الحب والحياة .. » .

— « أية امرأة تلك ؟؟ » .

— « أمة مشتراة بدنانير معدودة .. » .

وصمت الصديق برهة ثم قال :

— « الحقيقة يا وحشي أن الحياة في مكة تضطرم ، وأن أحداثاً كبرى تلف الناس بعواصفها ، ومحمد — لا شك — أصبح ذا خطر كبير برغم هزيمته في معركة أحد ... ان قرآنه كأنه السحر ، ومبادئه تتسلل إلى النفوس ، وتحدث فيها أضخم الانقلابات .. » .

والتفت إليه وحشي في دهشة قائلاً :

— « أتعتقد أن هذا الرجل على حق ؟؟ »

قهقه الصديق قائلا :

— « ويحك يا وحشي .. انك تعاني اضطراباً بالغاً ، ألم تقل لي ذات يوم أنه ليس في الحياة حق أو باطل ، ولا حرام ولا حلال .. القوة وحدها هي كل شيء ؟؟

طأطأ وحشي رأسه في حيرة قائلاً :

— « انني حائر معذب يا سهيل .. » .

— « أي صديقي العزيز وحشي « إن قريشاً ترى أن محمداً على باطل لأنه خرج على دين الآباء والأجداد ، وحقر أفكارهم وتقاليدهم ، ومحمد يرى ان تصرفات الأجداد وتقاليدهم ليست حجة .. ويدعو الناس إلى المقارنة بين ما كانوا فيه وما يدعوهم إليه .. ويسوق حجة باهرة .. ان خالق البشر أعلم بحالهم من أنفسهم ، لهذا أرسل نبيه ، ومعه قرآنه .. التعاليم المنقذة للناس من الضلال .. محمد يراهم على باطل ، وهم يرونه على باطل .. وأنت يا وحشي لك أن تختار .. » .

صرخ وحشي وقد ازدادت حيرته :

— « اختار ؟؟ » .

— « أجل .. ألست حراً ؟؟ » .

— « انها حرية قاتلة يا سهيل .. » .

— « للمسئولية الفادحة التي يحمل الحر أعباءها .. » .

قال وحشي محزوناً :

— « وامصيبتي .. انني لا أعرف أين اتجه .. ان مشكلتي لم تحل بعد .. نلت الحرية فازدادت آلامي وحيرتي .. » .

قال الصديق :

— « وفتاتك ؟؟ أتتلظى بنيران الحيرة هي الأخرى ؟؟ » .

— « لا .. آه يا صديقي العزيز لو رأيتها.. كان وجهها

يشرق برغم شدة الظلام . وكانت تتكلم في ثقة ويقين غريبين لم ألمح في كلماتها خوفاً أو اضطراباً ، ولم أشم في نبراتها قلقاً .. إنها كانت تتكلم هادئة النفس .. لكأنما رست سفينتها على شاطىء آمن تكتنفه الأشجار الخضراء ، والثمار اليانعة .. لكأنما وضعت قدميها على أعتاب جنة محمد .. » .

قال الصديق :

— « لأنها عرفت الحق .. » !

— « أتعتقد أنها على حق ؟ » .

— « رأيي ورأيك لا أهمية لهما .. يكفي إيمانها بأنها بلغت مرفأ الحق والسلام .. » .

— « الحق والباطل قضية ذاتية إذن .. » .

— « هذا صحيح لحد ما ، ما دام البشر يحكمون أهواءهم ومصالحهم . ويخضعون لتأثيرات شتى .. » .

— « والحق المطلق ؟؟ أين هو ؟؟ » .

أشار الصديق بأصبعه نحو السماء قائلاً :

— « هناك .. عند الله .. » .

— « أي إله ؟؟ إله محمد .. أم إله اليهود .. أم إله النصارى. أم إله قريش ؟؟ » .

— « الرب واحد يا وحشي .. » .

— « لكن الناس يختلفون.. وكل طائفة تعتقد أنها تحمل لواء الحق ودعوة الله .. » .

— « انظر .. » .

— «اني لا أرى شيئاً .. » .

— « لأنك مريض يا وحشي .. » .

أمسك وحشي بكم صديقه ، وجذبه إليه في عنف قائلاً :

— « وأنت .. مع من رأيت الحق ؟؟ » .

— « لم أره بعد .. » .

— « لكنك تمتاز بفكر ثاقب ، وعقل كبير .. » .

قال الصديق ساخر :

— « العقلاء أبطأ الناس سيراً نحو الدعوات الجديدة .. ».

— لماذا ؟؟ » .

— « التفكير الطويل يورثهم التردد والبطء .. وقد يؤدي إلى الشلل والجمود ..قد يكونون أقوى الناس عقلاً .. وأضعفهم إرادة .. العقل وحده ليس كل شيء يا وحشي .. » .

تمتم وحشي في أسى :

— « اللعنة على كل شيء .. ألا يمكن أن يعيش الإنسان بلا دين ؟؟ » .

— « مستحيل .. القيم أو المبادىء يا وحشي جزء من طبيعة الإنسان .. والدين مجموعة من القيم .. » .

قال وحشي محتداً :

— « ولم لا أصنع هذه القيم .. » .

— « لأنك قاصر .. » .

— « لست قاصراً ، فأنا انسان حر ، أفكر .. وأعمل.. ».

– « إذا كنت قادراً على أن تصنع قيمك فلماذا لم تصنع نفسك ؟؟ » .

– « أنا لست إلهاً .. والله الذي خلقني وهبني العقل ..».

هز الصديق رأسه قائلاً :

– « العقل شابته أحزان كثيرة .. وعقل الإنسان يا وحشي محدود .. ولولا ذلك لعرف الحق وقصده على التو .. وتاريخ الإنسان مليء بالانحرافات العقلية .. لذا تكفل الله بأن يصنع الضوابط لعقل الإنسان ، وبأن ينير له الطريق ..

قال وحشي :

– « خلق الله العقل وفرض عليه الوصاية لقصوره .. » .

– « بل أنزل عليه الهداية لتأخذ بيده .. ومن شاء آمن ومن شاء كفر .. لا يساق أحد بالسوط .. وكلمات الله واضحة بسيطة .. » .

التفت وحشي إليه مغتاظاً وقال :

– « اذهب عني .. لقد زدت في حيرتي وعذابي .. إنك تفهم الكثير ، لكنك لا تتخذ موقفاً محدداً .. » .

– « إنني أتعذب مثلك يا وحشي !! أتطردني ؟؟ إنك في حاجة إليّ .. وأنا في حاجة إليك .. كلانا يقف على مفترق الطرق بين الجنة والنار .. هناك يا وحشي حق وباطل وهناك حلال وحرام .. لكن الحياة غموض وتخبط واختلاط .. » .

صرخ وحشي محتداً :

– « اذهب عني .. لا أطيق أن أرى أحدا .. » .

وعندما انصرف صديقه « سهيل » جلس وحده .. انطوى على ذاته .. وانهمرت دموعه على الرغم منه ..

— « ويحك يا عبلة .. لقد ارتكبت في حقي جريمة كبرى.. انك تقتلينني .. تتنكرين لأيامنا الحلوة .. ليتني ما عرفتك .. ليتك لم ترطبي أيامي القاسية الجافة بكلماتك الشجية ، ومشاعرك الطيبة .. كنت أفضل أن أموت ظمأ من أن تسكبي قطرات من رحيقك الحلو في فمي .. ثم تتركيني نهباً للحرمان والعذاب »

— ٨ —

كان قرار وحشي قراراً نهائياً ، وهو أنه لن يقيد نفسه بقيد من نوع جديد ، ولو كان هذا القيد هو رسالة الله ، لقد أصبح ينفر من كل القيود ، يريد أن ينطلق ويتحرر ولا يلتزم إلا بما يوافق فكره ، وينسجم مع هواه ، ولن يجره حبّ « عبلة » للارتباط بعقيدتها ، ولن يعميه غيظه عن الالتفات لما هو جدير به من الوفاء والتسامح معها ، أي أنه لن يغدر بها ويشي بها عند سيدها جبير ، لكن هل شعر بالأمن والراحة عندما استقر رأيه على هذا الموقف ؟؟ لا .. إنه لم يزل يقاسي من المرارة والحنق والأرق ، ومن ثم أخذ يفتش في ذاكرته يبحث عن شيء ينسيه .. الخمر وحدها لا تنسيه ، وهو لا يفكر في الزواج بعد أن فترت علاقة عبلة به .. لكنه على استعداد لأن يعبث .. وتذكرها .. إنها بغي معروفة .. إنها

مثله لا حسب ولا نسب .. تحترف البغاء ، لكنها مسلية ، قادرة على أن تؤدي مراسيم المواساة والعزاء ، قادرة على أن تنسيه بعض آلامه وأحزانه.. فليشد الرحال إلى « وصال » الرومية .. » .

وجاءها في منتصف الليل ، كان يود أن يغرق حتى أذنيه في المجون والعبث والشراب ، اللعنة على كل شيء .. على كل القيم والمبادىء . الطرق كلها مغلقة أمامه ، فليفتح لنفسه طريقاً أي طريق ، تمضي فيه حياته التعسة .. ولديه القوة والمال والحرية .. واليأس أيضاً .. ألا يكون اليأس أحياناً مدعاة للمغامرة والاستهتار ؟؟

وعندما رأته وصال قالت :

— « طالت غيبتك يا وحشي .. » .

— « كنت أرتع في حلم زاه ساذج يا وصال .. » .

— « وهل أفقت من أحلامك ؟؟ » .

— « تيقظت على أبشع آلام عرفتها في حياتي .. » .

— « لماذا ؟؟ » .

— « آه يا وصال .. وهبتها قلبي ، وأخلصت لها الحب »

قهقهت في سخرية قائلة :

— « نفس القصة القديمة .. المكررة .. » .

— « هجرتني يا وصال .. » .

— « أعرف .. » .

— « وتنكرت للذكريات الشهية .. » .

– « أليست امرأة ؟؟ » .

– « طعنت كبريائي وآمالي يا وصال .. » .

– « ألست رجلاً ؟؟ » .

– « لكنني محطم ... رماد .. » .

– « المرأة تفعل ذلك .. والرجل أيضاً .. » .

– « أنا لم أجرم في حقها .. » .

– « لا يهم .. » .

– « وما هو المهم إذن يا وصال ؟؟ » .

– « أن تنساها .. » .

– « كيف ؟؟ » .

– « الشيء الذي تفعله الآن هو الحل .. لا تترك فراغاً في قلبك ووقتك .. فلتملأ الفراغ بأي شيء .. أي شيء .. لا بد من البديل .. عندئذ تشفى من حبها .. لست التعس الوحيد يا وحشي .. » .

– « أنا أشد تعاسة مما تتصورين .. » .

– « أعرف .. وبيتي هذا هو مكان العلاج لكثيرين .. إنني بغي .. لكن لي رسالة سامية .. » .

– « أبَغيّ وذات رسالة ؟؟ » .

– « أجل يا وحشي ؟؟ أنا هنا أمسح دموع المحزونين .. أعطيهم البديل .. أداوي جراح الحب والعذاب .. أجبر القلوب الكسيرة .. لدي الكثير من العطف والمجاملة لأهب الكثير من السلوان .. إن العطاء فضيلة .. وأنا أعطي كثيراً .. أعطي بثمن

بخس .. وأحياناً بلا ثمن .. » .

تناول وحشي كأساً وشربها دفعة واحدة ، ثم أخذ يضحك من كل قلبه . وابتسمت وصال قائلة :

— « لم تضحك ؟؟ » .

— « أتحبين الصراحة ؟؟ » .

— « وأكره النفاق .. » .

— « حسناً .. أنت تتحدثين عن الفضيلة ، أليس هذا غريباً ؟؟ وتزعمين أنك تشفين المحزونين ، وتداوين الجرحى .. »

— « أجل يا وحشي .. » .

— « إنك يا وصال جرعة مخدر .. أو مجرد كأس خمر .. ما تفعلينه ما هو إلا مسكّن وقتي .. » .

— « هذا أقصى ما أستطيعه .. » .

جرع الكأس الثانية ، ثم تجشأ وقال :

— « لم تسأليني عن سبب هجرانها لي » .

— « لا أريد أن أثير لواعجك .. لتنس هذا نهائياً .. » .

— « والنسيان يتمرد عليّ يا وصال ... » .

ومالت عليه في دلال :

— « هات قبلة .. » .

لا يدري أطال الوقت به أم قصر ، إن كثرة الشراب والعبث والصخب ، قد قادته إلى الارتماء في نوم عميق ، ولم يفق إلا على لكزاتها وهي تصرخ وتقول :

— « وحشي .. وحشي .. لقد طلع النهار .. » .

قال وهو يتقلب في كسل :

– « سيان عندي الليل والنهار .. » .

– « بل يجب أن ترحل الآن .. » .

قال ساخراً :

« أتخافين الفضيحة ؟؟ » .

قالت محتدة :

– « ويحك .. ليس هذا وقت السخرية .. الجميع يعرفون من أنا .. » .

– « حسناً إنني باق هنا اليوم بأكمله .. » .

– « مستحيل .. يجب أن ترحل فوراً يا وحشي .. » .

– « لماذا ؟؟ » .

– « لأن غيرك ينتظر دوره .. » .

طار النعاس من عينيه ، وجلس في الفراش قائلاً :

– « غيري ينتظر ؟؟ إنني أرفض أن يقطع أحد عليّ متعتي

قالت في ضيق :

– « أنت لا تملك ذلك .. » .

– « سأعطيك ما تشائين من المال . سأعوضك عن هذا الطارق الجديد .. » .

زمجرت قائلة :

– « هل جننت يا وحشي ؟؟ إنه سيد من علية القوم »

– « وأنا الآخر سيد .. سأعطيك أكثر مما يعطي .. » .

حاولت الرفق به فقالت :

– « وحشي أيها الحبيب .. إنهم محزونون تعساء مثلك .. فلتعطهم الفرصة .. إن الطبيب لا يمكن أن يربط نفسه بمريض واحد .. ويترك باقي المرضى يتمزقون ألماً وأسى .. » .

كانت رأسه نهباً لصداع شديد ، ومع ذلك فقد قال مقهقهاً

– « اعتذري له .. » .

– « لا ... » .

– « سأحطم جمجمتك وجمجمته .. » .

دفعت وحشي في صبر نافذ :

– « قلت لك إنه من علية القوم ... » .

– « وأنا ؟؟ » .

– « أنت تعرف من أنت ، ولو خيرت بينكما لـ .. » .

صاح :

– « لا تكملي يا فاجرة .. » .

– « كفى .. » .

– « سأعطيك يا وصال أضعاف ما يعطيك .. » .

– « المسألة ليست مسألة مال يا مجنون .. » .

– « ماذا إذن ؟؟ » .

– « المكانة .. ثم إنه يستطيع أن يسفح دمي ودمك .. أنت تعرف .. » .

غمغم في أسى :

– « تطردينني يا وصال ؟؟ » .

– « ما قصدت ذلك .. » .

واستطرد :

– « وتعرضين بماضي الأسْود في العبودية .. وتحطمين قارورات الدواء التي وهبتها في المساء .. وتتنكرين للفضيلة العظيمة (!!) التي تحملين لواءها .. » .

هدرت في عجلة :

– « هيا .. هيا .. لا وقت لهذا الجدل العقيم .. لتخرج من الباب الخلفي .. ولتعد إلي بعد فترة .. » .

احتد قائلا :

– « بل سأخرج من الباب الرئيسي الذي دخلت منه بالأمس وسأنظر إلى السيد العظيم بعينين لا تطرفان .. وسألقي عليه التحية ، وليعلم أن الفراش الذي سيدفن نفسه فيه بعد لحظات تفوح منه رائحة عرقي .. وأن الكؤوس الملقاة هنا لم تزل فيها ثمالة من خمري .. ليعلم أنني مثله تماماً .. وإنك ربما تكونين أسعد حالاً معي .. لكنك تنافقين .. يا من تكرهين النفاق .. ».

دمعت عيناها ، وانحنت على قدميه تقبلهما وتقول :

– « ألا ترحم مسكينة بائسة مثلي » .

رق قلبه فقال :

– « حسناً .. لسوف أخرج من الباب الخلفي .. » .

– « وستعود في الغد يا وحشي .. » .

قال في كبرياء :

– « لن أعود .. » .

قالت وقد زايلتها همومها ، وأشرق وجهها بابتسامة مقتضبة

— « ستجد قدميك تسوقانك إلى هنا مرة أخرى .. أنت في حاجة دائمة إلى ما يسكن آلامك ويداوي جراحك يا وحشي »

* * *

كان ضوء الشمس قوياً باهراً ، وكان وحشي ذو الرأس المصدع يحاول أن يفتح عينيه جاهداً ليواجه النور . وسار يتخبط على غير هدى . وجالت في خاطره أمنية غريبة . أليس هناك من يكلفه بقتل أحد ويدفع له الثمن .. ليس مالا بالطبع .. ولا الحرية .. ولكن يدفع له حباً .. لماذا لم تطلب منه عبلة أن يقتل واحداً من أعداء محمد ؟؟ إن حربته لا تأنف أن تنطلق في أي اتجاه .. أي اتجاه .. إنه لا ينحاز لأي طرف من الأطراف المتصارعة إنه يبحث فقط عن شيء .. عن حبه المفقود ، كما كان يبحث بالأمس عن حريته المفقودة .. نال الحرية وفقد الحب .. أهكذا لا يستطيع أن يستمتع بالحياة المثلى التي يحلم بها ..

— « وامصيبتاه .. عبله لها رسالة ... ومحمد له رسالة .. وأبو سفيان أيضاً يحمي دينه .. الشيء الوحيد الذي اتفق فيه مع محمد .. أن هذا عصر جاهلية وضلال وزيف .. كل من فيه فلاسفة حتى سهيل ووصال وعبلة .. لكن أحداً لم يستطع حتى الآن أن يهبني السعادة والأمن .. إن أفضل شيء أفعله الآن هو أن آخذ إبلي واغنامي وأذهب بها إلى المرعى .. هناك حيث الصمت والأفق الرحيب والصحارى الواسعة .. والوحدة

الضاربة .. هناك قد أجد شيئاً من الراحة .. وأنعم بالهدوء مع الحيوان والجماد .. » .

— ٩ —

جلست الإماء يسمرن كالعهد بهن كل ليلة ، بعد أن مر يوم طويل مملوء بالجهد والعرق ، وفي جلستهن تلك يبحن بأسرارهن ، ويبدين ذوات أنفسهن ، معتمدات على ما بينهن من ثقة ، وما يجمعهن من مصير مشترك ، وفي مثل هذه الجلسات يسترخين ثم يتحدثن عن السادة دون حرج ، فواحدة تسخر من سيدتها وتقلد صوتها ومشيتها ، وأخرى تتخذ سمت سيدتها في غضبها أو ضحكها أو إشاراتها ، وثالثة تروي فضيحة من الفضائح المبتثرة في مكة ، أو تروي أحدث قصص العشق والزواج ، وجلست عبلة بينهن لا تنبس ببنت شفة . كانت صامتة شاردة تفكر في أمورها الخاصة ، وما طرأ على حياتها من تغيرات خطيرة ، فهي خائفة أشد الخوف ، ماذا يحدث لو علم سيدها بإسلامها ؟؟ وماذا ستقول صويحباتها إذا أمسكن بها ذات مرة متلبسة بأداء الصلاة ، أو اكتشفن علاقاتها ببعض المسلمات المتخفيات ؟؟ وعلى الرغم من خوفها الشديد ، وإشفاقها على مصيرها ، إلا أنها كانت تشعر بلذة عجيبة ، لذة صاحب المبدأ وهو يضحي بأغلى ما يملك في سبيل ما يؤمن به ، لقد آثرت دينها على حبها ، ورضيت بالقلق والخوف تاركة الاطمئنان

الخانع الخاطىء في ظل جاهليتها .. لقد اقتحمت حاجز الخوف والتردد . وفتح الله قلبها للنور ، وفي نفس الوقت ما زالت تخلص لسيدها ، وتؤدي ما عليها من التزامات وأعمال دون تقاعس أو ملل .

ودق قلب « عبلة » دقات سريعة حينما سمعت صويحباتها يتحدثن عن محمد ، وأخذت ترقب حديثهن في لهفة بالغة ، قالت إحداهن :

— « إن محمداً لم ينهزم كما يزعمون ، فأنصاره في ازدياد ، وقد أدب المعتدين من القبائل المجاورة له ، وأخذ عليهم العهود والمواثيق ، وكسر شوكة اليهود في المدينة .. وها هم يأتون إلى مكة زرافات ووحدانا يستغيثون ويحرضون .. » .

قالت أخرى :

— « إن سادات قريش منزعجون أشد الانزعاج ، تجارتهم أوشكت على البوار ، وأموالهم في تناقص مستمر ، واسم محمد أصبح يزرع في قلوبهم الخوف .. لكأنما ساقت الأقدار محمداً كي ينتقم من هؤلاء السادة المتغطرسين .. إنه يسقيهم من نفس الكأس التي يسقوننا منها .. ومن يدري لعله يستطيع يوماً أن يحطم بيوتهم فوق رؤوسهم ، وأن يطلقنا من أسار الذل الهوان »

قالت ثالثة :

— « إن محمداً يعطف على العبيد والإماء . ويوصي بهم خيراً .. ويأمر أتباعه ان يعاملوهم برفق ، ويطعمونهم مما يأكلون ويعاملوهم كأخوة .. بل إن أغلب العبيد الذين آمنوا برسالته

قد نالوا العتق ، ونعموا بالحرية .. » .

وانبعث صوت آخر يقول :

– « أو تعتقدن يا فتيات أن قريشاً ستسكت على هذا الضيم وأن اليهود سيتركون شأن محمد يعلو ؟ انني على يقين من أن أعداء محمد – وقد شعروا بالخطر الداهم – سوف يكتلون قواهم . ويحشدون حشودهم للقضاء عليه .

وصمتت برهة . ثم استطردت تقول :

– « فلا تتعلقن بأهداب الأمل الكاذب ، ولا تحسبن أن يوم الخلاص قد قرب .. إن سلطان قريش واليهود أعتى من أن يزلزله أحد . ولو كان نبياً يحمل رسالة من الله .. السادة في مكة قساة غلاظ لا يعرفون الله .. واليهود ولديهم المال والذهب والسلاح .. فكيف يبلغ محمد مأربه بين قسوة قريش ومكر اليهود وقوتهم ؟؟ » .

ولم تستطع عبلة أن تلتزم الصمت أكثر من ذلك ، فانطلقت قائلة :

– « لو أراد الله أمراً ، لما استطاعت قوة قريش ومكر اليهود أن يرداه ... وهيهات ... والله غالب على أمره .. والله يقول لمحمد على لسان الوحي : وكان حقاً علينا نصر المؤمنين .. » .

ردت إحداهن :

– « ومن علمك هذه الكلمات ؟؟ » .

قالت عبلة في هدوء :

— « الناس .. » .

— « هذه كلمات لا يحفظها إلا المسلمون ، وما في مكة مسلمون .. » .

— « إن أعداء محمد أشد رغبة في حفظ كلماته من أصحابه إنهم برغم عدائهم الشديد له ، يجدون في أنفسهم دافعاً غريباً لا يقاوم في سماع كلماته ، والتقاطها من أي فم .. وكلمات محمد أيتها الصاحبات تفرض سلطانها على الناس .. » .

وقالت واحدة منهن :

— « من منكن رأت محمداً ؟؟ » .

ردت عبلة في فخر :

— « أنا !! » .

— « كيف رأيته ؟؟ » .

— « رأيت رجلاً على وجهه نور الصدق واليقين ، وفي نظراته معنى التواضع والحياء .. ما سمع أحد كلامه إلا وصدقه .. هكذا أظن ... يألفه الصغير والكبير ، وينجذب إليه العدو والصديق .. لو سألني أحد يوماً عمن أتوسم فيه أن يكون نبياً فيمن لقيت من الناس طول حياتي لما اخترت غيره .. » .

قالت امرأة في خبث :

— « ولماذا إذن لم تؤمني بدعوته ؟؟ » .

ارتج عليها ، واضطربت حركاتها ، وتلعثمت وهي تقول :

— « أنا ؟؟ من أكون ؟؟ امرأة في قيود العبودية لا تملك شيئاً .. والناس يا أختاه على دين ملوكهم .. وإعجابي بمحمد

لا يعني إيماني برسالته .. انني أتكلم عن محمد الإنسان .. وحديث الجميع عنه لا يختلف عن حديثي .. ومع ذلك فإن أغلبهم لم يؤمن به .. محمد إنسان لا غبار عليه .. يقولون شاعر والشعر شيء عظيم كما نعلم .. والحقيقة أن كلامه أحلى وأعظم من الشعر .. ويقولون ساحر .. ونحن لم نره يفعل شيئاً من هذا .. ويقولون كاهن .. لكن هناك فرق كبير بين كلماته وكلمات الكهان .. ألا تعتقدن ذلك ؟؟

وأدركت « عبلة » أنها قد عادت مرة أخرى تتحدث عن محمد بطريقة مريبة ، وأن كلماتها قد تثير حولها الريب والظنون في وقت كثر فيه الشبهات ، وتزعزعت الثقة ، وعم الفساد الاضطهاد وارتكبت الحماقات ، ومن ثم استدركت قائلة :

— « ليكن محمد أي شيء ، فلا دخل لنا بذلك ، نحن لا في العير ولا في النفير .. مجرد إماء مستذلات لا حول لهن ولا قوة .. يأكلن ويشربن ، ويقمن على خدمة السادة .. » .

همست إحداهن في حنق ظاهر :

— « ليت محمداً يأتي ، ويضرب ضربته ، ويجعل عاليها سافلها ، ويريق الدماء ، ويمرغ الأنوف في الرغام ، ويسوق أصحاب الحسب والنسب سبايا وأسارى .. فيستوي الجميع في هذه البلدة الظالم أهلها .. » .

ولم تستطع عبلة السكوت :

— « يا غبيات .. محمد ليس قاطع طريق ، ولا ملكاً طامعاً يريد أن يستذل العباد ، ويوسع رقعة مملكته .. » .

قالت إحداهن :

— « فماذا يكون إذن ؟؟ » .

قالت عبلة في إيجاز :

— « نبي .. » .

— « ماذا تعنين ؟؟ » .

— « جاء يحمل لواء العدل والرحمة في ظل التوحيد لله .. ورجل هذا شأنه لا يحيل العمران إلى خرائب ، ولا يجعل من الناس أسارى وسبايا .. انه ينشد لهم الهداية ، ويرشدهم إلى حياة نظيفة عادلة سعيدة .. » .

قالت امرأة :

— « أوليس غريباً أن تسل السيوف في وجه رجل هذا شأنه.

قالت عبلة :

— « أو تظنين أن السادة يتنازلون عن امتيازاتهم ومصالحهم هكذا ببساطة؟؟ إنهم يعتبرونها حقوقاً يحافظون عليها ، ويضحون في سبيلها .. ويعتبرونها مسألة كرامة أيضاً .. ومن العسير على سادة قريش أن يفرطوا في حقوقهم وكرامتهم .. » .

— « معقول .. » .

وعادت عبلة تقول :

— « لقد عشت في هذا البيت منذ خمس عشرة سنة .. أي منذ أن كنت طفلة .. وتابعت ظهور محمد بدعوته .. اعتبروه في أول الأمر رجلاً ذكياً طامعاً .. سخروا منه في البداية .. وعندما لمسوا أمارات الجد والإصرار في قوله ،

فكرو ا فيه جيداً .. فهالتهم النتائج المروعة التي قد تنجم إذا تبعه الناس .. فثاروا في وجهه ، وحاربوه في تلك الأيام أعنف حرب..ونكلوا بأتباعه ..أنتم تعرفون ذلك..وألجأوه إلى الهجرة التي كانت عليهم وبالاً .. وكانت بالنسبة له فاتحة خير .. ألا تذكرون ما حدث لقريش في حرب « بدر » ؟؟ من كان يتصور أن محمداً قادر على أن يجرعهم كأس الهزيمة ، ويقتص من انحرافاتهم ومظالمهم العديدة ، وتجنيهم عليه ؟؟ » .

قالت امرأة :

— « لكنهم ثأروا منه يوم « أحد » .. وقتلوا عمه حمزة.. »

وعندما جاء ذكر حمزة ، انتفضت « عبلة » ، لكأنما لدغتها عقرب .. هذه الذكرى تؤرقها ، وتجلب عليها الألم والعناء ، أجل قتله « وحشي » الرجل الذي اختاره قلبها ، وأخلص له الود ، ليت شخصاً آخر غير وحشي فعلها ، بل ليت الجريمة لم تحدث بالمرة .. إن وحشي يظهر في خيالها وقد تلوثت يداه وحربته بدم الشهيد البطل .. المؤمن .. عم رسول الله .. لشد ما تألم محمد لمصرع حمزة ، وعبلة يؤلمها ما يؤلم رسول الله ، ويحزنها أن يلقى أمراً يؤذي شعوره ، ويجلب له الأسى والغيظ .. إن مأساة حمزة قد قضت على كل أمل في أن يلتقي وحشي وعبلة لقاء الحبيبين مرةً أخرى .

ومالت نحوها إحدى الصاحبات :

— « فيم تفكرين يا أمة الله ؟؟ » .

قالت عبلة :

— « أنا ؟؟ لا شيء » .

ضجت زميلتها بالضحك ، لأنها كانت تعرف أن هناك علاقة ما بين عبلة ووحشي ، وأن هذه العلاقة يشوبها الحذر والخوف ، وقالت الزميلة :

— « إن قاتل حمزة بطل تعرفينه جيداً .. » .

قالت عبلة وقد ارتجفت شفتاها ، وساد وجهها شحوب ظاهر :

— « قتله غدراً .. وليس في هذا بطولة .. » .

— « عجيب أمرك يا عبلة !! حسبتك سوف تفخرين بما فعله وحشي .. » .

— « القتل ليس مدعاة للفخر .. وخاصة إذا كان غدراً وغيلة .. » .

— « الحرب هي الحرب يا عبلة .. سيان فيها أن نضرب غدراً أو صراحة .. والبارع من ينجو بنفسه ، ويلحق الضرر بعدوه .. » .

— « ليست هذه أخلاق الرجال .. » .

مالت صديقتها نحوها وقالت في خبث :

— « المهم أن وحشي نال الحرية والمجد والمال .. وهذا أعظم ما يحلم به رجل .. و .. تحلم به امرأة .. انه قادر الآن على أن يشتريك بماله ، ويجعل منك زوجة حرة.. لولا مقتل حمزة لما نعمتما بهذا الخير العميم .. مصائب قوم عند قوم فوائد .. أليس كذلك ؟؟ » .

قالت عبلة في ضيق :

ــ « أنتن تتوهمن أشياء ليس لها وجود .. من أرادت منكن الخلاص فلتذهب إليه .. أما أنا فلا أبغي الخلاص على يديه »

قالت زميلتها :

ــ « تحاولين أن تخدعينا .. » .

ــ « ورب البيت لا أكذب .. » .

ــ « أنت تبعدين الأنظار عن علاقات الود القديم .. وما يوم تخطيه لسور البيت ببعيد .. أتظنين أننا في غفلة عما يجري؟؟

قالت امرأة وهي تتثاءب وتغالب النوم :

ــ « الحقيقة أن وحشي نذل حقير .. ويوم أن يفكر في الزواج فلن يتزوج واحدة منا .. سوف يبحث له عن امرأة ليس لها ماض في العبودية .. إنه عربيد ماجن .. نجس .. ولطالما تعجبت لتلك العلاقة التي تتحدثن عنها بينه وبين «عبلة».. صاحت فتاة وهي تهز قبضتها في تأكيد وعصبية :

ــ « إنها علاقة حتيمية .. أنا واثقة من كل كلمة أقولها.. »

وقالت فتاة أخرى وهي تتمطى وتتنهد :

ــ « ما أروع التسلل في المساء للقاء الحبيب !!! » .

وقالت ثالثة :

ــ « لقد قهر قلوبنا . وسخر من كلمات الود التي كنا ننثرها أمامه . واختارك أنت .. وأطلق عليك « عبلة » ومن يومها ولا يناديك أحد إلا به .. وهل ينسى أحد يوم أن ضبطكما سيدنا وأنتما تتحدثان في هيام فشوى جلدكما بالسياط .. ».

وشعرت عبلة بالحصار الذي ضربه حولها صديقاتها ، كما وجدت أنه ليس في الإمكان أن تنكر ما حدث . فرفعت رأسها متحدية وقالت فيما يشبه الاعتراف :

– « كل واحدة منا قد تكون فريسة للطيش والتضليل والخداع .. لكني أقسم بكل مقدس .. أنني لا تربطني به الآن أية صلة من الصلات التي تتوهمنها .. لقد أفقت من ضلالي .. ولكن أن تصدقن أولا تصدقن .. » .

والحقيقة أن عبلة شعرت بسعادة بالغة وهي تنطق بهذه الكلمات ، لقد كانت تقاسي الأمرين في الأيام الفائتة ، كانت تفكر في وحشي . وفي علاقتها به ، وكانت تأمل أن ينحاز إلى الإسلام سراً . وأن يحاولا البدء في حياة جديدة .. لكن مراقبتها لسلوكه . ومناقشاتها معه . أثبت أنه أبعد ما يكون عن دعوة الله .. وأتيحت لها الفرصة أخيراً ، فأعلنت رأيها دون مواربة . وهي تعلم أن هناك من ستتطوع بنقل كل شيء إلى وحشي تقرباً إليه ، وطمعاً في رضاه .. » .

– ١٠ –

وصمم وحشي على الذهاب مرة ثانية إلى « وصال » ، كان يقدم رجلا ويؤخر أخرى ، لكن قوة خفية تدفعه لأن يمضي في الطريق . أصبح كالمدمن للمخدر ، وهو لا يجد في نفسه أدنى رغبة لأن يقاوم . ولماذا يقاوم ويكابر وهو يشعر

أن الرغبة تحرقه ، وتؤرق عليه هدوءه ، وهل في الدنيا شيء ذو قيمة يستحق العناء بالنسبة اوحشي اليائس التعس ؟؟ إن أبسط الأشياء لرجل نعم بالحرية بعد جهد جهيد أن يفعل ما يحلو له . وخاصة إذا كانت أمراً لا تكبده مشاقاً كثيرة ، ولا تعتبر من الخطورة بمكان ، ووصال بيتها مفتوح ، قلما تغلقه في وجهه . وهي تعلم جيداً أنه سيعود ، إنها خبيرة بأمور الرجال من أمثال وحشي ، إنهم رواد شبه دائمين ، يتعاطون الجرعات التي يتصورونها تسكن آلامهم ، وتنسيهم أحزانهم ، ها هو يعود إليها مثلما قالت لم يستطع أن يلبي نداء كبريائه ويقاطعها ، وهو يدرك أنه قد رضي بالدون ، وقدم بعض التنازلات لكن لا بأس إن لكل شيء ثمناً .. هو يعطيها شيئاً من ماله وكبريائه وسمعته . وهي تعطيه التسكين والنسيان وقدراً من السلام .. ما دامت عبلة قد قصمت ظهر علاقتهما ، ولم تدعه يستمتع بمذاق الحرية الوليدة .. الحياة عنيدة .. تعطي أملاً . وتسلب هناء .. لكأنما تحرص الحياة على شيء من التوازن السمج الذي يؤرق الإنسان ، ويجعله يقاسي من الحسرة والنقص والألم ، وأنا في هذه الأيام لا أطيق الصبر ، إنني أكرهه وأتبرم به ، الصبر دواء أرفضه .. أرفضه بشدة ، إنه قيمة تافهة خلقها الضعفاء لتستر ضعفهم . وتخفف من حدة آلامهم .. الصبر انتظار حتى تعمل الحياة عملها ، أو يعمل الفرد عمله لتحقيق ما يريد ؟؟ لكن وا أسفاه .. إنه يكاد يقتل وحشي ، ويملأ نفسه بالضيق والحنق والتمرد ...

وبلغ بيت وصال ، لماذا يأتي إليها بهذه اللهفة العارمة ؟؟
أهو يحبها ؟ هذا شيء مضحك ومدعاة للسخرية ، إنها ملك الجميع ، وتبيع بضاعتها لمن يريد ، والأهم من هذا كله إنه يحب عبلة ، أيمكن أن يجتمع حب النقيضين في قلبه الواحد ؟؟ لقد أصبح وحشي في دوامة لا يكاد يعرف في جيشانها الحق من الصواب ، أو الصادق من الكاذب ، ولماذا يزعج نفسه بهذه المشاكل ؟؟

واستقبلته كالزهرة الجذابة التي انتابها شيء من الذبول ، ورنت على ثغرها ابتسامة مغرية ، وهي تقول :

— « وأخيراً أتيت .. كنت أعرف ذلك .. » .

قال وهو يسدد إليها نظرات فاحصة :

— « أتسخرين أم تعتبين ؟؟ » .

— « دائماً تحاول الوصول إلى كنه الأشياء .. » .

— « الفضول يؤرقني يا وصال .. » .

— « خذ الحياة على علاتها .. » .

— « كيف ؟؟ » .

— « واستمتع بما يقع تحت يديك وكفى ، إن كثرة البحث والتفكير تفقدك المتعة واللذة .. » .

قال في حسرة :

— « لكن الله خلقني على الصورة التي ترين ، وزرع في قلبي وعقلي التساؤل الملح .. ما ذنبي ؟؟ » .

— « إذن فلا تقس الأمور بالمقاييس المثالية .. الواقع يفرض

نفسه ، ويحتقر المثاليات .. » .

قال معاتباً :

– « وهل من المعقول أن تطرديني من أجل ذلك القرشي المتصابي ؟؟ إنني لا أتصور كيف تشمين أنفاسه . وترضين بدعاباته الثقيلة ، وهذره السمج .. » .

قالت وفي نبراتها رنة حزن واضحة :

– « هذه صناعتي .. ألم أقل لك أنني أستقبل المرضى من كل لون وجنس ؟؟ إن أسوأ حالات المرض وأبشعها هي التي يستقبلها الطبيب المداوي .. » .

قال ساخراً :

– « أما زلت تصرين على الكلام عن الفضيلة ؟؟ » .

– « وحشي .. أنت تعلم .. أنني أحاول جاهدة أن أرضى بالمقسوم ، وأن أبحث عن المبررات التي تكيف أمنياتي الحلوة مع الواقع الأليم .. والحقيقة أنني بمرور الوقت أصبحت أعتقد أنني أؤدي وظيفة إنسانية .. » .

قهقه وحشي حتى كاد يستلقي على ظهره من الضحك وقال :

– « الدعارة وظيفة إنسانية ! ! أليس هذا عجيباً .. آه .. لو حكم محمد مكة لجلدك ألف ألف جلدة .. » .

وذهل وحشي حينما سمعها تقول :

– « لو حكم محمد لما ارتكبت ما يستوجب الجلد .. » .

وانتفض قائلاً :

– « كيف ؟؟ » .

— « هذا سؤال عسير .. لكن الذي أعرفه أن محمداً لا تفوته شاردة ولا واردة ، وأنه لا يظلم أحداً .. إنه يهب الأمن ، ويكفل الرزق ، ويحمي الضعيف ، ويشكم القوي ، ولا يجعل من الأحساب والأنساب أساس المفاضلة بين البشر .. » .

قال وحشي في شرود :

— « أتعتقدين ذلك ؟؟ » .

— « هذا ما سمعته عنه يا وحشي .. والمؤمنون به في المدينة يعيشون في ظل هذه المعاني .. أو يحلم الإنسان بأكثر من ذلك ؟؟ »

تجهم وجه وحشي وقال :

— « ماذا تعرفين عن الله يا وصال ؟؟ » .

— « أنا لا أعرف عنه الكثير .. ولكني أعرف أنه لا يرضى الظلم والاستغلال والتفرقة في المعاملة بين الناس بسبب الأحساب والأنساب أو الجنس أو اللون .. » .

قال وحشي :

— « ولماذا لا تؤمنين بمحمد إذن ؟؟ » .

— « لا أدري .. » .

— « أنت تهربين .. » .

قالت وهي تهز كتفيها في حيرة :

— « ربما لأني لا أجسر على مجابهة المتاعب ، أو ذلك الجبن الموروث في إطار حياتي القاسية .. أو لعلي أنتظر اللحظة الحاسمة .. » .

قال وحشي :

— « لو علم الذين يدخلون بيتك بهذا لأحرقوك بالنار .. ».

— « لا أعتقد ذلك .. إنهم دائماً لا يأخذون كلامي مأخذ الجد . إنني أداة تسلية وترفيه في نظرهم ... بل أعتقد لو حدث ذلك لاتخذوه ذريعة للهزء مني ومن محمد .. إن البغي الساقطة تؤمن بمحمد لا يمكن أن يقلدها رجل كأبي سفيان مثلا .. ».

وصمتت برهة ثم استطردت تقول :

— « ومع ذلك فإن هذه قضية لا تشغلني كثيراً الآن ، ولا آخذها مأخذ الجد ... لندع محمداً وشأنه .. ولندع الحرب تحتدم بينه وبين أعدائه ، وعندما ينجلي غبار المعركة ، فلسوف نصفق ونزغرد للمنتصر أياً كان ، وسنفرش طريقه بالرياحين.. »

قال وحشي محتداً :

— « ليس هذا شأن كرام الناس .. » .

ضحكت في مرارة وقالت :

— « لست من كرام الناس على أية حال .. » .

وابتلعت ريقها ، ومضت تقول :

— « ولا أعرف كيف أحمل السيف ، ولا أجرؤ على رفع عقيرتي بما أعتقده .. لو كان لدي الشجاعة الكافية لهتفت بآلاف البشر في مكة أن يجعلوا عاليها سافلها .. » .

قال وحشي ساخراً :

— « أما أنا فأرفض هذا المنطق .. » .

قالت وقد افترّ ثغرها عن ابتسامة خفيفة :

— « فماذا فعلت ازاء عجزك أمام عبلة ؟؟ » .
تغيرت سحنته ، ولمعت عيناه ببريق الحقد ، وقال :
— « هذه قضية لا يفصل فيها السيف .. » .
قالت بهدوء :
— « لكن يفصل فيها المال .. » .
— « المال ؟؟ » .
— « أجل يا وحشي .. هل غاب عنك ذلك ؟ » .
— « كيف ؟؟ » .
— « تشتريها من سيدها .. » .
— « وهل يقبل ؟؟ » .
— « ولم لا ؟؟ إنها مجرد بضاعة . لو قدمت له الثمن المغري فلن يضن عليك بها .. وجبير حسبما أعتقد لن يردك خائباً .. ألم تقتل حمزة وتثأر لدم عمه ؟؟ ألم تعمل في خدمته فترة ليست بالقصيرة ؟؟ » .

فكر وحشي بضع لحظات . إنه حل رائع . أحمده الله هذه البغي الفاضلة . ماذا كنت أنتظر ؟؟ هل كنت أتوقع أن تأتي عبلة راكعة . لتقدم فروض الطاعة والولاء من تلقاء نفسها ؟؟

هب وحشي واقفاً . فقالت وصال :
— « إلى أين ؟؟ » .
— « إلى جبير .. » .
أمسكت بطرف ثيابه قائلة :

– « ليس الآن .. ألا تستطيع الصبر ؟؟ » .

– « الصبر حجة العاجزين .. » .

– « يجب أن تفكر في الأمر ملياً ، وترسم الخطة الناجحة... ثم .. إنني أريدك أن تبقى معي بعض الوقت .. أهكذا تغفلني بسرعة ؟؟ ذلك شأن المريض دائماً مع طبيبه . فإذا ما نال الشفاء تركه دون كلمة شكر أو وداع .. » .

نظر وحشي إليها . وجد على وجهها مسحة حزن لا تريم ، وقرأ في عينيها ضراعة يائسة وجاءه صوتها الخفيض :

– « إنني وحيدة .. تعسة .. » .

قال في دهشة :

– « إن بيتك لا يكاد يخلو من الزائرين .. » .

– « قلت لك .. إنهم مرضى .. أو عملاء يبيعون ويشترون

أدار إليها ظهره وقال في أسى :

– « لقد طردتني من بيتك .. » .

– « لم أقصد ذلك .. أنت تعرف الحقيقة .. » .

– « ولو جاء واحد من السادة الآن لتكررت المأساة .. ».

– « إنني اعتذر إليك .. ليس لي حرية التصرف .. » .

وشعر وحشي أن رابطة من نوع غريب تربط بينه وبين هذه المومس :

– « حسناً .. لسوف أبقى معك يا وصال بعض الوقت .. إن هذا يسعدني .. » .

وأشرقت ابتسامة عريضة على ثغرها أضاءت وجهها كله ، وقالت :

— « أنت الوحيد الذي يعرف كيف يجاذبني أطراف الحديث ، إن شراسة طبعك ، وحدة أخلاقك ، وعنف سخطك تبدو كلها دون تكلف .. إنك أثير إلى قلبي على الرغم مما يشوبك من انحراف .

نظر إليها في رقة وقال :

— « إنني أحبك يا وصال .. » .

— « هذا ليس حباً .. إنه ألفة من نوع غريب بعض الشيء »

— « أنت تعرفين .. أنني لا أكذب .. » .

— « وعبلة ؟؟؟ » .

قال في حيرة :

— « تلك هي المشكلة التي لا أستطيع حل طلاسمها .. ».

قالت وهي تهم بالقيام :

— « حسناً..لا تشغل نفسك بأمري..إنه أتفه من التفاهة.. »

قال وحشي :

— « إلى أين ؟؟ » .

— « عندي نوع خاص من الخمر المعتقة لا أقدمه إلا لخاصة الخاصة .. » .

أحاديث حلوة تعيد إليه الثقة بنفسه ، وتخفف الكثير من آلامه وأحزانه ، إن وصال طبيبة ماهرة حقاً ، لكنها لا تمارس طقوسها بالنسبة لوحشي بجمود ، إن في كلماتها نبرة حنان

عميقة ، وهي لا شك له في قلبها عاطفة قوية ما أسعد وحشي بها ، وارتياحه إليها ...

— «ولا تنس يا وحشي أن الخمر قد انخفضت أثمانها منذ أن أعلن محمد تحريمها على أصحابه .. إن سوق الخمر في «يثرب» قد كسدت إلى حد بعيد ، وهذا ما يزعج تجارها من اليهود وغيرهم ...» .

ثم ضحكت ضحكتها المعهودة ، التي توحي بالعبث وعدم الاكتراث ، وكأنها تقهر كل المنغصات التي تنتصب لها كل ساعة . وهي تهم بارتكاب الخطايا .. وعادت ومعها الخمر والكؤوس وهي تقول :

— «المومس ذات الضمير يا وحشي تتعذب كثيراً .. على الرغم من السنين التي مضت في أوحال الرذيلة ، فإنني أقدم عليها وكأنها ترتكب لأول مرة في حياتي .. أعرف أنك لا تصدقني ..» .

قال دون اكتراث :

— «مكة غارقة في الإثم من قمة رأسها لأخمص قدميها.. إنها بؤرة النفاق والكذب والحماقة في أغلب منتدياتها ومسامرها»

قالت :

— «إذن محمد صادق فيما يتحدث به عن جاهليتهم ..».

أشاح بيده في استنكار قائلاً :

— «دعي محمد وشأنه .. إن مجرد ذكر اسمه يثير ثائرتي»

قهقهت وصال في توتر قائلة :

— « إنه لغريب حقاً .. أن نتحدث عن الفضيلة بين الكؤوس والعربدة والمجون .. » .

ودق الباب ...

يا للكارثة !! وشحب وجه وحشي ، واختلجت شفتاه وتسمرت يداه على الكأس وجمدت « وصال » وقد احتقن وجهها ، وقال وحشي :

— « لقد حضر أحد السادة الكبار .. إذن ستكرر المأساة.. »

هبت وصال من مكانها ، ونادت خادمتها الوحيدة ، وقالت لها في عبارة قاطعة :

— « اذهبي وقولي للطارق إنني لست هنا .. » .

وبعد لحظات سمعا صخباً وضجيجاً ، إن السيد الكبير يرفض الرجوع ويرغي ويزبد ، ويقذف بالشتائم ، ثم ساد الهدوء من جديد .. وعادت الخادم تقول :

— « لقد رحل بعد عناء ، وبعد أن أفهمته أنك لست هنا وستعودين في الصباح .. إن شتائمه مقذعة للغاية يا سيدتي.. »

وأضاءت ملامح وصال بالسعادة وقالت :

— « هأنتذا ترى أنني انتقمت لكبريائك يا وحشي .. إن جيوبه مثقلة بالدنانير .. ليكن ، المال ليس كل شيء .. إنني قد عزمت على أن أقدم لك خمري هذه الليلة .. ونفسي إيضاً دون مقابل .. » .

طأطأ وحشي رأسه في رضى وقال :

— « إنني أشعر الآن براحة كبرى .. » .

زمد يداً مرتجفة إلى الكأس الأولى وتناولها منها

تمتم وحشي :

— « أجل .. الطريق السوي قد فشل في البلوغ بي إلى ما أريد ، لقد سدت المنافذ في وجهي ، وطمست معالم الطريق أمامي ، وأغلقت أبواب قلبها دوني .. هذا ما فعلته عبلة . وأنا لن أرضخ للهزيمة ، وأرتضي العجز ، إنني أقوى من إسلامها ومبادئها ، وستظل هي دائماً في المكان الأدنى ، وستظل لي اليد العليا عليها .. فأنا سيد وهي لم تزل أمة مملوكة لسيدها .. وماذا أفعل ؟؟ ذكرتها بأيامنا الحلوة .. توسلت إليها بما بيننا من عهود .. قدمت قلبي قرباناً تحت قدميها وأنا القوي القادر .. حاولت الدخول إليها من أية ناحية فأبت وأصرت على العناد .. لاحقتها في الطرقات .. بذلت لها كل ما أملك من مال ومجد كي تفعل بهما ما تشاء ، لكنها احتقرت كبريائي وأفكاري واعتبرتني بدون الإسلام حيواناً .. أو أقل مرتبة من الحيوان.. أيتها الذليلة الحقيرة .. يا من يحبك قلبي برغم حقارتك وسوء أدبك .. لسوف أعرف كي أسوقك إلى بيتي سوقاً ، وأجعلك تركعين.. ولسوف أمرغ شرفك وكبرياءك في التراب..وستعلمين عندئذ أنني أقوى منك ومن محمد بأفكاري وتدبيري وإصراري إنني أعرف ما أريد ، وأقصده لتوي دون إبطاء .. لسوف أذهب إلى جبير بن مطعم .. أنا أخذت بثأر عمه ، وقتلت حمزة عم الرسول .. وسببت أذى كثيراً ، وألماً بالغاً

بسبب ذلك لمحمد وصحبه .. جبير لا ينسى ذلك .. وكيف ينسى حديثاً ما زال يتردد في أرجاء مكة والمدينة ! ! وسأطلب من جبير أن يبيعني « عبلة » سأشتريها بمالي .. عندئذ ينتهي كل شيء...سأصبح سيدها الجديد.. العفاء على محمد ودينه... وفي بيتي .. آه .. هي تعرف واجبات الإماء والعبيد .. وسأسخر منها عندما تقول لي سأعطيك جسدي ، أما روحي فلا يملكها إلا خالقها .. أنا أعرفها .. لسوف تقول لي ذلك .. لا تهمني روحها ، لتذهب إلى الجحيم .. انني أمسك بلحمها .. بجسدها.. أرى عينيها وأذنيها وأنفها الجميل .. وقوامها الرشيق .. كل هذا سيكون لي ، وأنا لا أريد غير ذلك .. الجسد هو الحقيقة الكائنة التي أؤمن بها عند اللقاء ... » .

وأعد وحشي نفسه . وارتدى خير ملابسه ، وأسرع بالذهاب إلى مولاه القديم ، فوجده يجلس وحده وعلى وجهه سيما الانشغال والتفكير العميق ..

وما أن رآه جبير حتى انبسطت أساريره وقال :

— « تحوم حولنا يا وحشي .. وكأنك ضائق بالحرية .. ».

يبدو أن سيده يميل إلى المناقشة ، وأن لديه تقبلاً واضحاً لذلك ، فتشجع وحشي قائلاً :

— « سيدي .. إن الحرية أعظم نعمة في الوجود .. » .

— « ولكنك تعس .. » .

— « هذا شيء آخر .. » .

وقهقه سيده قائلاً :

— « لكن محمداً يرى أن الإسلام هو أعظم نعمة في الوجود »
— « له أن يقول ما يشاء .. لكن هناك كثيراً من التعساء لا يذهب الدين بتعاستهم .. » .
— « ولا الحرية يا وحشي .. » .
— « أجل يا سيدي .. ولا الحرية .. » .
— « فكيف تكون السعادة إذن إذا لم تكن في ظل الدين ، ولا في ظل الحرية يا وحشي ؟؟ » .
قال وحشي :
— « السعادة في أن تحقق ما تريد .. » .
— « إذن فلن تكون هناك سعادة على وجه الأرض »
— « لماذا يا سيدي ؟؟ » .
— « الإنسان ليس إلهاً ، وهو لا يستطيع أن يحقق ما يريد »
— « ان ما نريده أشياء في طاقة الإنسان .. » .
— « ليس دائماً يا وحشي ... إن هناك أشياء تبدو صغيرة أعجز عن بلوغها .. خذ مثلاً إنني أبحث دائماً عن وجه الحق في كل قضية فيصيبني الدوار والقلق .. حسبته لدى محمد .. فإذا به .. أعني رجاله يقتلون عمي ، ويمرغون شرفنا في الرغام ، ومن ثم كرهته .. وحسبته هنا لدى أساطين مكة ... فوجدت الغموض أشد وأقسى .. ما معنى ذلك يا وحشي ؟؟ » .
— « معناه ؟؟... لا أدري .. » .
— « إن أيدي الشياطين قد أخفت وجه الحق .. » .
ضحك وحشي في أدب ، وقال :

– « لا دخل للشياطين في أمر كهذا .. » .

– « ماذا إذن ؟؟ » .

قال وحشي في قسوة :

– « إن وجه الحق لا يبين إلا إذا هتكت السيوف الاستار التي تخفيه .. » .

– « السيوف ؟؟ » .

– « أجل يا جبير بن مطعم .. القوة وحدها ينجلي عنها وجه الحق .. » .

قال جبير في حزن :

– « وإلى أين تتجه السيوف يا وحشي .. » .

قال وهو يلوح بقبضة يده :

– « في كل اتجاه .. » .

– « هذا جنون .. » .

وأراد وحشي أن يضرب لسيده على الوتر الذي يطربه ، فقال في خبث :

– « إذا كان لا بد من تحديد ، فلتتجه السيوف نحو ذلك الخطر الداهم في « يثرب » ان القضاء على محمد قضاء على أكبر قسط من الفتن والبلبلة .. محمد هو الذي أثار العقول وحرك القضايا النائمة منذ زمن بعيد .. ومحمد – إن ترك وشأنه – فلسوف يملي إرادته على العرب جميعاً .. » .

هز جبير رأسه قائلاً :

– « أصبت أيها المتمرد .. هذا هو رأي حكماء اليهود

وكبرائهم ... وأظنه رأي السادة من قريش ... لسوف نجمع العرب قاطبة تحت لواء واحد ، وننقض عليه في وكره ، سننشن حرباً على محمد وصحبه تأكل الأخضر واليابس .. » .

واستطرد جبير وهو يجفف عرقه :

ــ « لعلنا بعد ذلك نعرف وجه الحق .. » .

ــ « هو ذلك يا سيدي .. » .

وصمت جبير برهة ، ثم عاد يقول :

ــ « لكن أليس هناك طريق آخر غير طريق السيوف ؟؟ ».

ــ « أنت ترى .. محمد يقول لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .. ومحمد يا سيدي يعني ما يقول .. لم يعد هناك غير السيوف .. » .

وتمتم جبير :

ــ « السيوف قد تنصرنا وقد تخذلنا .. » .

ــ « لا يهم .. انكم لستم أقل شأنا ولا عزماً من محمد .. وهو سيكافح حتى يظهره الله أو يهلك .. وأنتم يجب أن تكونوا كذلك .. » .

ــ « إذن .. فإلى المزيد من الدماء .. ومزيد من الثأر .. ».

ــ « هذا أمر أوجبته الضرورة .. » .

وسادت فترة صمت ، كان كل منهما يفكر في أمره ، جبير يفكر في أمر محمد والأحزاب التي اجتمعت لحربه ، والمستقبل الذي ينتظر هذه المعركة ، ووحشي يفكر في أمر

يخصه .. لا يهمه في الحقيقة أن ينتصر محمد أو ينهزم ، المهم أن ينال وحشي بغيته :

— «سيدي جئت إليك في أمر هام .. » .

— « ماذا ؟؟ » .

— « أنت تعلم أني قمت على خدمتك السنين الطويلة .. ».

قال جبير مازحاً :

— « كنت مشاكساً لا تستقيم إلا بالضرب .. » .

آلمته هذه العبارة ، وهم أن ينفجر ، لكن كيف ؟؟ إنه أمام سيده القديم ، وولى نعمته ، ثم إنه قدم ينشد حاجة لديه ، فما عليه إلا أن يعتصم بالصبر والمداراة حتى ينال ما يريد .

— « لكني كنت أخلص الرجال لديك .. » .

— «لم يكن هذا تفضلاً منك ، لقد اشتريتك بمالي ، وواجب عليك أن تقوم بما كنت آمرك به .. » .

ازداد الضيق بوحشي ، لكنه أخفى انفعاله وراء ابتسامة صفراء خادعة :

— « سيدي .. انك ما زلت بي البر الرحيم .. » .

— « قل ما تريد دون مقدمات .. » .

هتف وحشي في خجل :

— « عبلة .. » .

قال جبير في دهشة :

— « من هذه ؟ وما شأنها ؟ » .

— « أمة لديك .. أنت تعرفها ، تلك الفتاة التي .. » .

— «أوه .. اذكرها .. » .

— « انني أريدها لنفسي .. » .

قال جبير في دهشة :

— « تريدها لنفسك !! إنها ملك يميني .. » .

— « أريد أن اشتريها بمالي .. » .

— « أنت ؟؟ أأصبح لك مال ؟؟ ومن أخبرك أنني سأبيعها؟

— « إن قلبي متعلق بها ، وأريد أن أتزوجها .. » .

قال جبير في حدة : « سحقاً لك ولها .. وما شأني بهذا ؟؟ إنها في خدمتي ولا أستغني عنها . ولو دفعت ألف دينار .. إنك تسيء الأدب كثيراً يا وحشي .. ولولا نجاحك في قتل حمزة لجعلت العبيد يقذفون بك إلى الخارج .. » .

قال وحشي مرتجفاً :

— « سيدي ... » .

قاطعه جبير في حمق

— « اذهب عني ، فما بي رغبة لسماع هذه الترهات .. »

لشد ما تضايق جبير ، هذا العبد الذليل ، يأتي يناقشه مناقشة الند للند ، ويشتري منه ويبيع ، ويطلب الأمة الأثيرة لديه . المخلصة له في عملها، العارفة بشؤون خدمة سيدها ، إن وحشي قد أصابه الغرور ، و نسي آداب اللياقة ، لقد أصبح من العسير إصلاحه إلا بالسوط .. لكن لا بأس من مسامحته هذه المرة . فإذا ما عاد لمثلها نال جزاءه الذي يستحق ..

— « انني أضرع إليك يا سيدي ضراعة العبد الذليل الذي تعلقت كل آماله بهمة سيده .. » .

واغرورقت عينا وحشي بالدموع ، إن عليه أن يصبر ، ويستمع لتقريع سيده في برود .. فليس هنا من يشهد ذلته وضراعته ، إنه يريد أن يمتلك تلك التي حطمت آماله ، وبددت أحلام حبه ، يريد أن يمتلكها ليفعل بها ما يشاء.ويسحق كبرياءها ويسخر من مبادئها واسلامها .. إن ذلك سيبرد نار قلبه ، ويطفيء لوعة فؤاده .. وسيشعرها أنه أقوى منها ، وقادر على ارغامها ، وإن الفرق شاسع بين ما يحظى به من حرية ، وما ترزح هي تحته من عبء العبودية والعار ...

— « وحشي .. لا تدعني أثور في وجهك مرة أخرى .. أنت تعلم اني لا أكرهك .. لكن ليس معنى هذا أن تنتزع شيئاً مني يؤثر على راحتي ونظام حياتي .. إنني في حاجة إليها .. ولا تجعل لهفتك عليها تنسيك حق الآخرين فيها .. اذكر ذلك جيداً .. » .

امتقع وجه وحشي ، ودارت برأسه الهواجس ، وكاد ينفجر من شدة الغيظ .. العجز .. يا لها من مأساة .. ها هو يقف مقهوراً عاجزاً أمام رغبته .. فأين الطريق إلى السعادة إذن ؟؟ الجميع يبحثون عن السعادة وليس فيهم من يساند أخاه ، وينيله بعض ما يحقق له سعادته..ولهذا ستظل السعادة أمنية معلقة بعيدة المنال .. إنها موجودة لكن أنانية الناس وجشعهم يجعلها صعبة التحقيق .. إذن فلتكن الطامة ولينطلق حقد وحشي المدمر لا مكان للمثاليات في هذا الزمان .. فلتقل عبلة عنه غدار .. كاذب .. حقير .. إنه سينتقم لكبريائه من « عبلة » ومن جبير

نفسه ، ولن تستطيع أية قيمة من القيم الإنسانية ، ولا أي مبدأ من المبادىء في الأرض أن يمنعه من أن ينفث حقده .. إن رفض سيده كالحكم عليه بالموت .. فلن يترك الدنيا والعمران .. ليتحطم كل شيء .. ولينتشر الألم والعذاب .. وليتعذب الناس ويتألموا مثله ...

قال وحشي وقد تفصد جبينه عرقاً :

— « سيدي .. إن هناك سراً أخفيه عنك .. » .

نظر إليه جبير في اهتمام ، وقال بجد :

— « ما هو ؟؟ » .

— « إن عبلة قد اعتنقت الإسلام ، وتبعت محمداً .. لقد صبأت يا سيدي وأنت لا تعلم .. » .

قال جبير وقد بان الضيق في عينيه :

— « أواثق أنت من هذا القول ؟؟ » .

— « لقد اعترفت لي بنفسها ، بل دعتني إلى ذلك .. » .

— « متى ؟؟ » .

— « منذ وقت ليس بالبعيد..إنها أشد حماساً من المخدوعين من أمثال بلال وغيره من العبيد المارقين .. » .

قال جبير في حنق :

— « ولماذا لم تخبرني في حينه ؟؟ » .

— « كنت أنتظر اللحظة المناسبة .. » .

— « ولهذا أتيت لتشتريها وتتزوجها .. » .

— « كنت كفيلاً يا سيدي بردعها وردها إلى الصواب.. »

وشرد جبير بضع لحظات ، ثم افتر وجهه عن ابتسامة عريضة وقال :

— « إنني أعرف جيداً سلوكك يا وحشي .. لقد أردت الانتقام منها بعد أن عرفت أنها ليست لك .. لقد خبرتك عن كثب سنين طويلة .. إنك حقود ، أسود الطوية لا مبدأ لك ولا أخلاق .. تكره الناس .. وتكره نفسك .. إنك تطعن الفتاة التي مال إليها قلبك .. لو وافقتك وسلمتها إليك لكنت كمن يسلم انسانة طيبة بريئة إلى سيف الجلاد .. » .

صاح وحشي :

— « سيدي .. اقسم لك أني صادق فيما قلت .. » .

صرخ سيده :

— « أنت كاذب .. إنني أعرفك .. لا ترني وجهك الأسود مرة أخرى .. أيها النذل الجبان .. ليس في قلبك مثقال ذرة من حب لأحد .. » .

شعر وحشي بالعرق يبلل ثيابه، ودارت به الأرض ، وجر حطامه جراً وخرج إلى الشارع . ومشى كالمنوم .. لا يرى شيئاً في خياله إلا وجه سيده الحانق القاسي ، وصورة وجه « عبلة » وهي تنظر إليه في سخرية وشماتة .. وكأنها الثمرة الشهية المحرمة ..

ماذا جرى ؟؟ كيف تفوه بهذه الكلمات ؟؟ ولماذا فعل ذلك ؟ إنه يعترف لأول مرة في حياته أنه حقير تافه .. إن عبلة لم تكن تتصور أنه سيغدر بها برغم ما بينهما من خلافات..

الأقدار تصفعه في قسوة ، وتنتقم لها . وبدا له أن هناك فرقاً شاسعاً بينه وبينها .. إنها سماء وهو أرض موحلة .. وسيده أماط اللثام عن ذات نفسه الحاقدة الشريرة .. ما أقسى أن يصطدم وحشي بالحقيقة المرة ، وأن تتجلى أمام عينيه دعارة خلقه !!

لماذا لم يثر الشك في قلب سيده نحو عبلة ؟؟ لماذا يصدقها ويكذبه ؟؟ وتمتم وحشي وقلبه ينزف ألماً وحزناً وحنقاً أيضاً :

— « لسوف يتأكد له انني لم أخدعه هذه المرة .. ومع ذلك فإن ذلك لن يغير من الأمر شيئاً .. إنني أشعر ، وسأظل أشعر أنني ارتكبت إثماً وحماقة كبرى في حق فتاتي النافرة ... واكرباه يا وحشي !! » .

— ١٢ —

قدم سهيل إلى وحشي الذي لم يكن يتوقع قدومه ، كان وحشي يجلس وحده مستسلماً للتفكير القاسي ، لقد أساء إليه سيده القديم إساءة بالغة ، والأدهى من ذلك أنه اكتشف — وان لم يكن لأول مرة — أنه رغم حصوله على الحرية ، وقتله لحمزة ، وانتعاش حالته المالية ، لم يزل الناس ينظرون إليه نظرتهم إلى العبيد ، إن وصمة العبودية لم تفارقه ، لقد كان واهماً حينما ظن أنه قد تحرر تماماً .. آمن الآن أنه لا يكفي أن يشعر بالحرية في أعماق ذاته ، وأن ينالها على أساس

شرعي ، ليس الاعتراف بحريته هو كل شيء ، الأهم من ذلك هو معاملة الناس له كحر ، وهذا هو الجانب الهام والشاق في القضية الكبرى ، كيف يرغم الناس على ذلك ، وليس هذا فحسب بل إن وحشي يقوم من خطأ ليتردى في خطأ آخر ، أراد أن يعيد إليه حبيبته النافرة ، ففشل ، لم يترك الباب مفتوحاً لمحاولة أخرى ، بل أساء إليها إساءة بالغة حينما وشى بها إلى سيدها . وليت الأمر وقف عند هذا الحد، إن جبير لم يصدقه في مزاعمه برغم صدق الوقائع . الجميع ينظرون إليه في شك ، ويعاملونه باحتقار ، ويعتبرونه عبداً كاذباً حاقداً .. ماذا يفعل ؟؟ أيحمل سيفه ويحارب الناس قاطبة من أجل تحقيق ذاته ، وتأكيد حريته . آه .. لو لم يقتل حمزة ويرتكب هذا الفعل الذي أرث العداء بينه وبين محمد ، لو لم يفعل ذلك .. لانتقم لنفسه ، ولطعن قريشاً طعنة في الصميم وفارق أهلها ودينها ولحق بمحمد ، لا لأنه يؤمن بمحمد بل ليغيظ قريش ، ويحارب قيمها وكبرياءها ، ويسخر من غرورها .. إن وحشي يعتقد أن رجال محمد لا ينظرون إلى بلال أو سلمان أو صهيب الرومي نظرة أهل مكة إليه .. إنهم يعاملونه كأخوة . وربما ليغروا العبيد باعتناق الإسلام ، والانضواء تحت راية محمد ، ووحشي يظن أن محمداً يعرف كيف يجتذب إليه الفقراء والعبيد وعامةالناس ، إنه يستطيع أن يستغل ما في حياتهم من ضيم وضياع ومظالم ، ويستفيد من طاقات الثورة والتمرد في نفوسهم كي يضرب أصحاب العناد والسلطة والمال في مكة

وغالبية الناس من الفقراء والضعفاء والعبيد .. لكن لمحمد ثأراً لدى وحشي .. محمد بالتأكيد لن يعفو عني .. ألم يبك لمصرع حمزة ؟؟ ألم يقل أنه لم يقف موقفاً أغيظ له من ذلك الموقف حينما وقف إلى جوار جثة عمه المشوهة ؟؟ وهكذا أقف أنا ممزقاً بين مكة التي تسيء إلى كبريائي وحريتي ، وبين «يثرب» التي تعتبرني مجرماً يستحق إهذار دمه .. إنني أبحث عن الكسب وأناور .. لا يهمني أن اعتنق هذا الدين أو ذاك .. أريد أن أطبق مبادئي بأية طريقة مناسبة .. » .

وعندما قدم صديقه سهيل قال :

— « تجلس وحدك يا وحشي حاملاً هموم الدنيا فوق رأسك .. » .

قال وحشي :

— « حسبتك لن تأتي .. لقد أسأت إليك في المرة السابقة.. »

— « أوتظنني يا وحشي قادراً على أن أضحي بصداقتك من أجل زلة لسان في لحظة من لحظات الضيق ... » .

رفع وحشي إليه عينيين شاكرتين وقال :

— « أنت إنسان نبيل .. » .

— « لا عليك .. هذه مسألة هينة .. فلا تفكر فيها ثانية .. إنني لا أنسى أفضالك ومعاونتك لي كلما قدمت إلى « مكة » في رحلاتي التجارية .. إن سيدي التاجر الكبير الذي أعمل معه ، علمني الكثير من شئون الحياة ؟.. علمني أن أتغاضى عن هفوات الأصدقاء ، وألا أخسر رجلاً من أجل خطأ

قد لا يقصده ، وربما يكون قد تورط فيه .. التجارة مدرسة كبيرة يا وحشي .. إنني لم أقاسِ من مشكلة الحرية كثيراً لأن سيدي في الطائف يعاملني كابن ، يثق بي ثقة كبيرة ، ويسلم إلي التجارة والمال ، وأنا أحفظ ذلك كله وكأنه يخصني .. قد تكون هذه حالة شاذة .. لكني والحق أقول أشعر معه بقسط غير قليل من الاطمئنان والرعاية والأمن .. » .

قال وحشي في حدة :

— « وأنا أكره السادة .. وأكره التجارة أيضاً .. » .

— « لماذا ؟؟ » .

قال وحشي في شرود :

— « الناس سواء في المولد .. وفي الممات .. وخلال الرحلة التعسة بين المولد والموت .. رحلة العمر . . يتميز الناس إلى سادة وعبيد ، لماذا ؟؟ لأسباب تافهة تتعلق بالأب .. أمور لا دخل للوليد فيها ، هذه الظروف الخارجية الطارئة هي التي تخلق السادة والعبيد .. أشياء صنعها الإنسان الأحمق.. والحماقة كلها في أولئك السادة .. لهذا أكرههم وأحتقرهم .. » .

هز سهيل رأسه قائلاً :

— « ومحمد يقول يا وحشي : « الناس سواسية كأسنان المشط» .. ويقول: «كلكم لآدم وآدم من تراب ... ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى .. إنك يا وحشي تقول شيئاً قريباً من هذه الكلمات لكن بطريقة حادة ثائرة غير مهذبة.. ».

قال وحشي :

— « أيقول محمد ذلك حقاً ؟؟ » .

— « بالتأكيد ... » .

— « هذه كلمات تقلب نظام الحياة .. » .

— « أيها المجنون .. لماذا إذن اندلعت الحرب ؟؟ من آجل هذه الكلمات وغيرها .. » .

تنهد وحشي في أسى وقال :

— « لكنك لا تعاني شيئاً من مأساتي مع سيدك التاجر الطيب »

— « وهل أنسى أنني عبد ؟؟ » .

— « صدقت .. » .

ثم عاد سهيل يقول :

— « ولم تكره التجارة ؟؟ ألا تحب الكسب والمال ؟؟ »

— « التجارة مناط النفاق والكذب .. وأنا أكره النفاق والكذب .. أنتم تسمونه مهارة وحنكة .. وأنا أريد أن أسمي الأشياء بأسمائها .. يهمني جوهر الأشياء لا مسمياتها .. » .

ورد عليه سهيل بكلمات كانت الصفعة :

— « ولماذا قتلت أنت حمزة ؟؟ أقتلته دفاعاً عن حق وعن مبدأ ؟؟ » .

تطاول وحشي بعنقه وقال :

— « ماذا تقول ؟؟ » .

— « أقول إن مصلحتك الشخصية جعلتك ترتكب ما هو أفظع من النفاق ، وأخطر من الكذب .. لقد قتلت إنساناً .. » .

قال وحشي محاولاً الهروب :

— « هذه قضية أخرى .. الناس كانوا يسقطون بالعشرات

— « لم تجب على سؤالي .. » .

عاد وحشي يقول في إصرار :

— « كنت أريد حريتي بأي ثمن ؟؟ » .

— « بأي ثمن ؟؟ » .

— « أجل .. » .

— « ولو قتلت دون عقيدة كبرى ؟؟ » .

— « أجل .. » .

قال سهيل محتداً :

— « فلماذا تنكر على التجار قدراً من الذكاء والدهاء ، وتنقم على السادة حفاظهم على سلطاتهم ونقوذهم ومصالحهم؟؟ »

ارتج على وحشي فدمدم قائلاً :

— « أنت تعرف نذالتهم جميعاً . وجرائمهم التي لا مبرر لها من ضمير .. » .

هتف سهيل :

— « أنت مثلهم إن لم تكن أقسى وأفظع .. » .

صرخ وحشي :

— « ماذا ؟؟ » .

— « إنني أقول الحق .. » .

ومسح سهيل بعض قطرات العرق التي تندى بها جبينه الأسمر وقال :

— « أنت لا تفكر إلا في نفسك .. ولهذا ستظل دائماً

في عقاب لا ينتهي ، ستشقى أبد الآبدين ... إن علاقاتك الإنسانية مع البشر قد تقطعت ، أنت تعيش في عزلة من الظلام والحقد والأنانية .. لماذا أخدعك ؟؟ هذا هو رأيي فيك .. أردت أن أقوله لك قبل أن أرحل .. قد لا نلتقي إلا بعد وقت طويل .. لهذا السبب فرت منك عبلة ، واحتقرك السادة في مكة ، وأهدر محمد دمك .. وهأنتذا تعاني من تعاسة قاسية برغم الحرية والمال .. وبرغم المتعة التي تشتريها من المومسات، وكؤوس الخمر التي تترعها كل مساء .. » .

زحف وحشي على ركبتيه ، وأمسك بكتفي « سهيل » وتمتم وفي عينيه دموع تلمع :

— « سهيل .. أنت صادق فيما تقول .. خبرني ماذا أفعل ؟؟ إنني كالغريق .. أتخبط في محيط لاشطآن له .. أبحث عن مرفأ أمان .. إنني مخلص في طلب الأمان والسعادة .. ماذا أفعل يا سهيل ؟؟

ضمه سهيل إلى صدره في حنان . وقال في رنة إخلاص واضحة :

— « معذرة يا وحشي .. لقد كانت كلماتي قاسية .. مجردة من المجاملة والرقة .. » .

— « إنني سعيد بها أشد السعادة .. هذا ما حدث فعلاً مني .. غدرت بحبيبتي .. وشيت بها لدى سيدها وهي التي ائتمنتني على سرها المصون .. نظرت إليها من عل حينما رأيت نفسي حراً وهي لم تزل أمة ذليلة .. أشعرتها بنقصها وتميزي..

تمثلت الحقارة والنذالة والكبرياء التي تحرك سلوك السادة .. لقد مسخت فأصبحت بؤرة لخطاياهم ومفاسدهم .. أصبحت سيداً بكل ما يحمله السيد من رذائل .. أعيب عليهم ، والتذ بالتشبه بهم ، وأنا الذي أحنق عليهم .. وأحارب دولتهم الباطلة التي ينخر فيها السوس ... » .

قال سهيل في ارتياح :

— « هذه بداية طيبة .. إن اعترافك بالحق هو باب النجاة أو مرفأ الأمن كما تسميه يا وحشي .. » .

— « لكنك لم تخبرني ماذا أفعل ؟؟ » .

— « أن تولد من جديد ... » .

— « كيف يا سهيل ؟؟ الإنسان لا يولد إلا مرة واحدة.. »

ابتسم سهيل وأردف :

— « اهجر هذه الأرض الذليلة الطافحة بالفساد .. واهجر ماضيك الأسود .. » .

— « كيف ؟؟ » .

— « وسر إلى « يثرب » مدينة الرسول .. » .

قهقه في توتر :

— « وأسلم رقبتي لرجال محمد ؟؟ » .

— « وأعلن إسلامك ... » .

— « سيقتلوني ... » .

— « لا يهم ... » .

— « إنك تمزح يا سهيل .. إن حياتي أثمن ما أملك ،

لا يمكن أن أفرط فيها بسهولة ... » .

— « لن يقتلوك .. » .

— « لن أفرط في حياتي .. » .

— « قلت لن تصاب بأذى .. » .

— « وما هو الضمان ؟؟ » .

— « إسلامك .. » .

— « أنا لا أثق في أحد يا سهيل .. لسوف يظل الناس ينظرون إليّ قائلين : هذا قاتل حمزة وسيظل محمد ينظر إليّ نظرته إلى مجرم عتيد ... وستلاحقني اللعنة أينما رحلت ... ».

رفع سهيل يده متسائلاً :

— « يجب أن تقرر أولاً هل لاقت دعوة محمد في نفسك قبولاً ... » .

سادت فترة صمت ، تجهم بعدها وجه وحشي ، ولمعت في عينيه هواجس الشر والحماقة ، وصرخ في عناد :

— « لا ... » .

— « لماذا ؟؟ » .

— « لقد فقدت الثقة بكل شيء .. ثم إن قريشاً لن تترك محمداً.. إنهم سيسيرون إليه في جيش لجب يحطمون به ملكه ، ويقضون على دينه ، وأنا إن لحقت بمحمد ، ونلت عفوه . فإما أن أسقط في المعركة القادمة قتيلا .. أو أساق أسيراً ، وأبدأ رحلة العذاب والعبودية من جديد ..

تمتم سهيل في يأس :

– « لم تزل تتكلم بدافع المنفعة الشخصية .. إنني أعرض عليك قضية أخرى .. هي أن تؤمن أو لا تؤمن ... » .

– « إنني يا سهيل لا أستطيع أن أنزع نفسي من أية قضية عامة .. إنني أقيسها بما يتبعها من تكاليف تمس وجودي .. » .

قال سهيل وهو يهم بالقيام :

– « ليس لدي ما أضيعه .. الطرق أمامك ، ولك أن تختار الطريق الذي تسير فيه .. إنها مسئوليتك .. » .

ودار وحشي بنظراته الحائرة في جنبات البيت ، ثم التفت إلى سهيل فجأة وقال له في دهشة ظاهرة :

– « ولماذا لم تؤمن أنت الآخر ؟؟؟ ألأن سيدك يعاملك في رفق ، ويغدق عليك ماله وبره ، ويهبك ثقة لا حدود لها ؟؟ »

أشرقت ملامح سهيل بالأمل ، وأومضت السعادة في عينيه الواسعتين ، وقال في رضى وهدوء غريبين :

– « لقد شهدت ألا إله إلا الله ، وأن محمد رسول .. لكن .. » .

– « لكن ماذا ؟؟ أتعلق إيمانك بشي ما ؟؟ » .

– « سيبقى إيماني سراً .. إن بني ثقيف مطبوعون على العناد ، وأملي أن أؤدي دوراً بينهم لعل الله يهدي على يديّ أحداً .. وسأعرض الأمر على الرسول ، وما يشير به سأفعله دون تردد .. حتى ولو قال لي احمل سيفك واذهب وحارب الطائف وحدك يا سهيل .. » .

وبقي وحشي محملقاً فيه بضع لحظات وقال :

ــ « ماذا أسمع ؟ انني لا أصدق أذني .. » .

قال سهيل ملوحاً بسبابته :

ــ « حذار أن تشي بي كما فعلت « بعبلة » .. » .

دفعه وحشي بكلتا يديه ، وأخذ يصرخ في جنون :

ــ « إليك عني .. اخرج من بيتي .. لا أريد أن أرى أحداً .. أنتم تزيدون من كربي وعذابي ..

قال سهيل وهو يبتسم في وداعة :

ــ « إنني ذاهب ، ولن أنقم عليك تصرفك .. إنك جدير بالعطف والرثاء .. أنا لا أزيد من كربك وعذابك...أنت الذي تجلب الشقاء لنفسك .. » .

وانصرف سهيل ، بينما بقي وحشي وحده ، ووقف ، وقد تدلت ذراعاه ، واتجه بصره الزائغ نحو السقف ، مسمراً كالأبله ، ثم اجهش بالبكاء وارتمى على الأرض ينتحب كثكلى فقدت وحيدها .. » .

ــ ١٣ ــ

زيارة غريبة لم يكن وحشي يتوقعها ، لقد دأب في الأيام الأخيرة على لزوم بيته ، لا أنيس له سوى كأسه ، أصبحت الخمر من ألزم لوازمه ، الخمر والحربة أعظم صديقين له في الوجود .. والثالثة هي وصال التي يتردد عليها من آن لآخر ، ليمزج أساه بأساها ، ويبادلها الأحاديث المختلفة .. وفي أثناء

تواجده بالبيت طرق الباب وافد غريب لا معرفة لوحشي به من قبل ، وقال الوافد الجديد :

— « أنت لا تعرفني ..ومع ذلك . فهل تسمح لي بالدخول .

رماه وحشي بنظرات متسائلة وهو يقول :

— « على الرحب والسعة .. » .

— « جئتك من يثربْ .. الطريق شاق ، وناقتي أرهقها المسير .. إليّ بقليل من الماء والزادِ .. » .

وأحضر له وحشي على الفور ما طلبه ، وجلس قبالته يتفحصه وهو يجرع الماء ويلتهم الطعام ، ثم يتجشأ ، وتمتم الضيف

— « تتساءل من أنا ؟؟ » .

— « هذا أفضل وإن كان لن يؤثر في حسن اهتمامي بك كضيف عزيز .. » .

— « أعرف قدرك يا وحشي .. إن ذكرك قد طبق الآفاق. الركبان يتحدثون به في كل مكان .. » .

وخفق قلب وحشي ، الحقيقة أن الخوف بدأ يتسرب إلى قلبه ، هذا الرجل المريب قد يكون رجلا من رجال محمد ، جاء لينفذ فيه حكم الموت ، ومحمد لن ينسى دم عمه ، والبطش بالمجرمين يدخل الرعب في قلوب المتنمرين لارتكاب الجرائم ، ألم ينتقم محمد من « شاعر اليهود كعب بن الأشرف » ؟؟ وأدرك الرجل ما انتاب وحشي من ارتباك ، فاستطرد يقول :

— « أجل .. إنك قتلت حمزة ، فشفيت الصدور ، وانتقمت للضحايا المساكين ، لو فعل عشرة رجال مثلما فعلت

وقتل كل واحد منهم رجلاً من رجال محمد المرموقين لوفروا الكثير من المعارك والدم والمال ... » .

وجم وحشي ، يبدو أن ظنه صحيح ، هذه بداية الخديعة لكن الضيف لا يحمل سيفاً ، ولا يستل خنجراً ، ويأتي في ضوء النهار لا تحت جنح الظلام ، ويطلب الطعام والماء . ويجلس في هدوء غريب .. أتراه يمعن في إخفاء نواياه حتى يضرب الضربة القاضية ؟ وأدرك الرجل ما يعانيه وحشي من شك ، فقال :

– « نحن نعرف كل شيء عنك ، ونريد أن نساعدك .. »

هتف وحشي في ضيق يحاول اخفاءه :

– « من أنتم ؟؟ من أنت ؟؟ » .

– « أوتشك في أمري ؟؟ » .

– « الجهل يؤدي إلى سوء الفهم .. » .

قال الرجل الغريب :

– « نحن اخوة .. جمعنا هدف واحد ... إخوة برغم تنائي الديار ، وإن كنت لا تعرفنا فنحن نعرفك جيداً .. نحن نعرف أولئك الذين يضمر محمد الحقد لهم ، ويحاول القضاء عليهم ، أو يهدر دمهم ، ومحمد أيها الصديق يعرف كيف يدبر أموره ، ويوحد جنوده ، ويضرب ضربته في الوقت المناسب .. أما نحن وأنت وأولئك الذين يقفون في وجه محمد فان الحكمة تنقصهم .. أتسألني من أنا ؟؟ أنا ضحية من ضحايا « بني النضير » الذين أجلاهم محمد عن ديارهم ، وشتت شملهم

بغير سبب مقنع .. » .

هتف وحشي في دهشة :

— « يهودي ؟! » .

— « أجل ... » .

وصمت اليهودي برهة ثم استطرد :

— « أمّرناه على المدينة .. وسالمناه حتى تمكن منا ، ثم أذاقنا الذل والهوان ، زاعماً أننا تآمرنا عليه لقتله ، وأفشينا سره لعدوه ، وحرضنا عليه العرب .. » .

قال وحشي :

— « أوتنكرون ذلك ؟! » .

ضحك اليهودي ضحكة شيطانية ، ثم قال :

— « فعلناه في الخفاء ... أتظننا نترك محمد ليفرض سلطانه على العرب ، ويملي إرادته على هذه الرقعة الشاسعة من الأرض ويحطم نظامها ؟! وهل سيترك لكم أو لنا مكاسبنا وحريتنا .. ».

قال وحشي في هدوء :

— « ليس لدي ما أخاف عليه .. » .

ابتسم اليهودي في مكر وقال :

— « كان ذلك قبل أن تقتل حمزة .. أما اليوم فان دمه في عنقك .. ثم إن لك من الحرية والمال والمجد ما تحرص عليه أشد الحرص .. ألا تخاف على حياتك مثلا ؟! » .

— « صدقت ... » .

وحك اليهودي أنفه ، ثم قال :

— « وتريد أن تتزوج .. وتنجب ذرية من الأحرار ..
وتسعد بك وتسعد بها .. أليس كذلك يا وحشي ؟؟ » .

هز وحشي رأسه قائلاً :

— « صدقت .. إن محمداً لا بد وأنه يفكر في الانتقام مني »

ورد اليهودي في خبث :

— « وخير وسيلة للدفاع الهجوم .. » .

— « ماذا تعني ؟؟ » .

قال اليهودي وهو يمط رقبته ، ويقرب وجهه من وحشي :

— « تقتله قبل أن يقتلك .. » .

— « كيف ؟؟ » .

— « تسدد إليه حربتك في الخفاء ، فيخر صريعاً كما خر عمه حمزة .. وسنكفل لك الأمن والسلامة ، سنمدك بالرجال وندبر لك الأمر .. » .

قال وحشي وهو يبتسم في مرارة :

— « ألهذا جئت ؟؟ » .

فأخرج اليهودي كيساً مملوء بدنانير ذهبية كثيرة العدد وقال :

— « وإليك ما يكفل لك الحياة الرغيدة طول العمر .. وهذا قليل من كثير .. » .

قال وحشي والدنانير تبرق في تحد وإثارة :

— « فإذا ما فشلت فقدت حياتي .. وذهبي وحريتي .. ومستقبلي كله .. » .

— « ان يحدث ذلك ؟؟ » .

– «ألم يحدث ذلك لكم ؟!» .

– «ويحك يا وحشي .. المستقبل لنا .. لقد خسرنا جولة أو جولات ، والمعركة طويلة الأمد .. والنصر لنا مهما كانت خسائرنا .. لسوف نخرج لمحمد عن قريب في جيش لم تسمع به العرب من قبل ...» .

قال وحشي وهو يلهث :

– «لقد مللت هذه اللعبة ..» .

– «لم أكن أتصورك ضيق الآمال ، قليل الطموح هكذا.. إن محمداً صبور دؤوب لا يكل ولا يمل ، ولا يستسلم لليأس..»

قال وحشي :

– «من بعثك إليّ ؟!» .

– «حييّ بن أخطب زعيم اليهود .. لقد استجاب له أبو سفيان ، وهو الآن يحشد قبائل أسد وأشجع وفزارة وغطفان وأنت لو استجبت لما أعرضه عليك ، لكنت أفعل وأخطر من هذا الجيش بأسره ..» .

هب وحشي وصرخ محتداً :

– «ماذا تريدني أن أفعل ؟! فلتذهبوا جميعاً إلى الجحيم.. انني لا أحب أحداً ولا أثق بأحد .. إن جبير بن مطعم رفض أن يبيعني الجارية التي اختارها قلبي لأتزوجها .. ضن بها علي، وأنا الذي ثأرت لدم عمه . وخلصتهم من عدو لدود . وعرضت نفسي لنقمة محمد .. لئن قتلت محمداً فلن يكسب غير السادة الأوباش .. السادة الذين أذلوني وعذبوني واستغلوني . ثم

ضنوا عليّ بفتاة لا تساوي أكثر من دنانير معدودة .. » .

قال اليهودي :

– « أو حدث هذا فعلاً ؟؟ يا للكارثة ؟؟ إن جبير قد ارتكب خطأ جسيماً . وتصرف في غير لباقة وأدب .. » .

قال وحشي وقد أشاح بوجهه بعيداً :

– « تلك هي الحقيقة المرة .. لم يزالوا يعاملونني كعبد . وينكرون عليّ حتى في الحياة الحرة الشريفة .. إن محمداً لا يفعل مثلما يفعلون .. » .

قال اليهودي في صوت خفيض :

– « السادة هنا حمقى لا يدرون ما يفعلون .. » .

وأردف وحشي في شماتة وسخرية :

– « والأنصار في يثرب يعطفون على المهاجرين . ويتنازلون لهم عن زوجة من زوجاتهم . ويفسحون لهم في دورهم . ويهبونهم المال والمتاع .. تلك هي الأخوة الصادقة .. أما هنا في مكة .. فيزوقون لي المنى . ويعتقون رقبتي . ويرمون إلي ببعض المال .. ثم يسخرون مني .. يعاملونني باحتقار .. يحرمونني من فتاة بخسة الثمن .. وبعد ذلك تأتي وتطلب مني قتل محمد .. وتمنيني مثلهم بالمال و .. » .

وقاطعه اليهودي قائلا :

– « لسنا مثل سادات مكة . نحن نعرف كيف نقدر الكفاءات .. والحقيقة – وإن كان هذا سراً – إننا نحتقر السادة عندكم لضيق أفقهم . وتعفن أفكارهم .. » وابتلع اليهودي

ريقه ، ثم قال في تأكيد :

— « لتأت إلينا ، ولتختر لنفسك أجمل فتاة من يهود بني قريظة أو يهود خيبر .. لسوف نزفها إليك زفافاً لم يسمع به العرب من قبل .. أنت بطل همام ، وإذا لم تكلل البطولة الحقة بتحقيق رغباتها فلا كانت الدنيا ولا كان النظام .. » .

امتعض وحشي وهمس :

— « هنا يحتقرونني في العلن ، أما أنتم فستخفون احتقاركم لي .. لكنكم ستحتقرونني على أية حال . وعندما أؤدي مهمتي تلفظونني كالطعام الفاسد ، وتقذفون بي إلى الكلاب الضالة .. لم أعد أثق بأحد .. » .

قال اليهودي في جد :

— « إنني على استعداد لأن أنفذ ما عرضته عليك .. وهذا أقوى دليل على صدقي ... » .

قال وحشي :

— « وأنا لا أريد غير عبلة .. » .

وشرد وحشي وهو يقول :

— « ان عنادها جعلني أشد تعلقاً بها ، وتشبث سيدها بها قد ضاعف أشواقي إليها ، وإساءتي إليها ، قد مكنت من حبها في قلبي أكثر من أي وقت مضى .. إن أمر الإنسان جد غريب أيها الضيف .. لا شك أن الدنيا مليئة بالحسناوات الطيبات .. أنا أعرف ذلك يقيناً ، لكن ما حيلتي وأنا لا أحلم إلا بها . ولا أفكر إلا فيها ؟؟ » .

وعاد وحشي إلى الجلوس وهو يقول :

– « خذ ذهبك عني ، لقد زهدت في كل شيء .. لا قيمة للذهب والمال والمجد .. ولا حتى الحرية .. إذا تحطم قلب الإنسان ، وسحقت أشواقه .. » .

تمتم اليهودي :

– « لم أكن أتصورك على هذه الحال ، امرأة تفعل بك كل هذه الأفاعيل ، وتغير من أخلاقك وسلوكك ؟؟ إن الوهم يسيطر على عقلك .. أين وحشي القوي الصارم المتمرد على الوهن والضعف ومساوىء السادة ؟؟ » .

وصمت اليهودي برهة ، وأخذ يسدد إلى وحشي نظرات فاحصة ثم قال :

– « إنني على استعداد لأن أجعل « حيي بن أخطب زعيم اليهود » يتوسط لدى جبير كي يهبك فتاتك .. لكن .. » .

قال وحشي كطفل غرير :

– « لكن ماذا ؟؟ » .

– « لكنك لم تعد تصلح لشيء .. إن الذين يلقون زمام أنفسهم للنساء لا يصلحون لشيء .. » .

وعاد اليهودي يقول :

– « إنكم يا أهل مكة ممزقون ، لا تحاربون في حماس .. أو غالبيتكم لا تأخذ الأمر مأخذالجد.. إنالخطر يتهدد مصالحكم

وابتلع اليهودي ريقه واستطرد :

– « وماذا تكون النساء ؟؟ إن أي طعام يسد جوعة الجائع

كذلك أية امرأة تطفي ظمأ الجسد .. لا شيء غير ذلك ..

قال وحشي :

– «لقد كنت كذلك من قبل .. أو حسبتني كذلك .. الجسد هو الحقيقة الملموسة التي أؤمن بها .. لكني كنت أظهر خلاف ما أبطن ... » .

لوح اليهودي بيده محتجاً وقال :

– « ليس الأمر أمر امرأة .. » .

– « ماذا تعني ؟؟ » .

هتف اليهودي :

– « مسألة كرامة .. أنت تريدها لتثبت لها أنك سيد ، ولتوهم الناس أنك قادر على الحصول على ما تريد .. تريد أن تؤكد حريتك التي تشك في حقيقة وجودها .. » .

استبد الضيق بوحشي فقال :

– « أنا لا أرهق نفسي الآن بالبحث عن الأسباب . وتفسير السلوك ، إنني أريدها .. هذا كل ما في الأمر . والسادة يبشون في وجهي ، لكنهم يناصبونني العداء .. لكأنهم يرفضون أن يتحرر عبد . ويصبح له مكانة تشبه مكانتهم في بعض النواحي .. هؤلاء الحمقى تسيطر عليهم الأنانية والزيف والغرور ليسا جديرين بأن يضحي الإنسان في سبيل قضية لهم .. أو يحارب في صفوفهم .. » .

ثم أمسك وحشي بذراع اليهودي وجذبه إليه قائلا :

ـــ « أو تظن أن محمداً كان سيعاملني هذه المعاملة ، لو آمنت بدعوته ووجهت حربتي إلى صدر أبي سفيان أو جبير بدلاً من حمزة ؟؟ » .

طأطأ اليهودي رأسه في خجل وقال :

ـــ « لا .. الحقيقة أن محمداً يعرف كيف يكافىء رجاله ، ويعاملهم في رقة ، و يجذبهم إليه .. » .

قال وحشي :

ـــ « ولهذا سوف يسحق محمد رؤوس السادة في مكة ، ويدمر ملكهم .. » .

ابتسم اليهودي في دهاء وقال :

ـــ « ليس « المكيون » على هذه الصورة الصارخة من السوء ليس هناك أحد مبرأ من العيوب .. سيان ذلك في مكة أو يثرب .. ونحن نتفوق على محمد بالكثرة والعتاد والمال .. ألم تر ما حدث في معركة « أحد » ؟؟ » .

تناول اليهودي جرعة ماء ثم قال :

ـــ « يجب أن تفكر يا وحشي ملياً فيما عرضته عليك .. لو قتلت محمداً فلسوف تجلس على أعلى قمة في أرض العرب .. ستسمو فوق السادة ، وتنال كل ما تريد ، واليهود لا يغدرون بأصدقائهم وزملاء كفاحهم .. يجب أن تعي هذه الكلمات جيداً .. إننا برغم ما حاق بنا من نكبات نستطيع أن نرفع من نشاء ونخفض من نشاء .. ونستطيع أن نحقق لك ما تريد ولو على أشلاء من يعترضك .. أتفهمني ؟؟ وأنت عندنا أشرف

من ألف سيد .. إنني راحل الآن ... » .
أشار وحشي إلى الذهب المتكوم بسبابته اليمنى قائلاً :
— « خذه معك .. » .
— « سأتركه لديك أمانة .. إنه قد يساعدك على التفكير وحسم الأمور .. » .
وقال اليهودي وهو يزمع الخروج :
— « هذا هو القوة المؤثرة في الحياة ... الذهب هو الذي يحكم أتفهمني ؟؟ وهو الذي سيجلب لك الاعتراف بحقك في الحرية والحياة الشريفة .. سيرغم السادة على احترامك .. » .
خرج اليهودي ، وعاد وحشي ينظر إلى كومة الدنانير ، وتحسسها بيد حانية ، ثم أخذ يعدها ويضعها في الكيس ، وهو يقول :
— « غنيمة باردة ... ما أروعه !! » .

— ١٤ —

هرولت إحدى الإماء إلى « عبلة » ، ونادت في اضطراب :
— « عبلة .. عبلة .. مولاك يريدك على عجل .. » .
نهضت عبلة مسرعة وقالت :
— « خيراً .. ماذا يا ترى يريد ؟؟ » .
قالت زميلاتها :
— « رأيته يا عبلة مكفهر الوجه ، يلوح الغضب في عينيه

ساد الشحوب وجهها ، ومضت إليه ..

لم ينس « جبير بن مطعم » وشاية « وحشي » ، وإن لم يصدقها ، نفاها بشدة ، بل استصغر شأن وحشي بقدر ما علا قدر « عبلة » في نظره ، لكن الشك أخذ يخالج جبير ، ماذا لو كان وحشي صادقاً ؟؟؟ إنها ستكون كارثة وعاراً .. سيضحك منه أشراف مكة ، ويجعلون من الحادث مادة للسخرية والتسلية ، وهل في بيته إنسان يجروْ على مخالفته ، وترك دينه واتباع دين محمد ؟؟ إن في ذلك تصغيراً لشأنه ، بل تنكراً شنيعاً لدم عمه الذي أراقه حمزة في بدر .. لا .. لا إن فتاة من فتياتي لا تجروْ على ارتكاب هذه الحماقة الشائنة ، ومع ذلك فلماذا لا يستدعي الفتاة ، ويناقشها الأمر ؟؟ إن ذلك لن يكلفه شيئاً ، وفي نفس الوقت سيجد الفرصة لإدانة وحشي والتنكيل به ، ولهذا استدعى عبلة ، التي أتت على عجل ، وهي تدرك أن في الأمر خطورة من نوع ما ، وإلا لما استدعاها في ذلك الوقت الذي لم يتعود استدعاءها فيه ، ولما كان وجهه مكفهراً ، وعيناه تعبران عن الغضب كما تزعم زميلاتها ، إن عبلة كما تعتقد لم ترتكب خطأ في حق سيدها ، ولم تعص أمراً ، ترى هل وشت بها واشية من جراء علاقتها القديمة بوحشي ؟؟ هذا الأمر ليس مستبعداً ، واستراحت « عبلة » لهذا الخاطر ، إنها قادرة على أن تدافع عن نفسها ، وتبرىء ساحتها من أية تهمة بعد أن قطعت علاقتها بوحشي ، وأصبحت تلك العلاقة في ذمة الماضي .. لهذا أقبلت في غير قليل من

الهدوء ، وقالت مطأطئة الرأس :
— « أمرك يا سيدي .. » .
قال جبير :
— « أنت من أحسن الفتيات هنا أدباً وطاعة .. » .
— « هذا واجبي يا سيدي .. » .
— « وأنا لم أسيء إليك أو أقسو عليك .. » .
— « هذا تكرم منك وفضل لا أنكره ... » .
ثم قال بلهجة صارمة :
— « وأنا أكره النفاق .. » .
وران الصمت لحظات ، لم تجب عبلة خلالها بكلمة واحدة ، فانطلق سيدها يسأل :
— « هل تربطك بذلك المأفون الأحمق صلة ؟؟ » .
— « من ؟؟ » .
قال وهو يسدد إليها نظرات كالسهام :
— « وحشي بن حرب .. » .
ارتجف جسدها . ومع ذلك شعرت بفيض من الراحة يهطل على قلبها الواجف وتمتمت في خشوع :
— « لقد جمعنا معاً شرف خدمتك .. وعندما رحل انتهى كل شيء .. لم أخطىء أو أخن .. وسأظل دائماً عند حسن ظن مولاي .. » .
ثم استطردت في ثقة :
— « إذا كان هذا الأمر يقلق سيدي ، فاني أؤكد لك

أنني أتعبد بخدمتك .. ليس تفضلا مني وإنما هو واجبي نحو الرجل الذي اشتراني بماله ، وأحاطني بحمايته وبره .. ولا يغدر بسيده إلا كل خائن خسيس .. » .

انفرجت أسارير وجهه ، وقال :

— « لقد زعم ذلك الأحمق « وحشي » أنك قد اتبعت محمداً .. » .

دارت بها الأرض ، لكأنما انقضت على رأسها صاعقة من السماء ، وهتفت في وهن :

— « هل فعلها ؟؟ » .

قال سيدها دونما اكتراث يذكر :

— « أعرف أنه كاذب .. هذا ما قلته له ، إن أحقاده تعميه عن اتباع مواقع الصدق والإنصاف .. » .

قالت والدموع تهطل من عينيها :

— « اني يا مولاي .. » .

قاطعها قائلاً :

— « كان يريد شراءك ليتزوجك .. هذا المجنون يحسب أنه بحفنة من المال استأجرناه بها يستطيع أن يقف في مواجهة السادة موقف الند للند .. لو كان عنده ذرة من حياء ، وومضة من فكر سليم لما تجرأ على ارتكاب تلك الحماقة .. » .

همست :

— « في الحقيقة يا سيدي إنني أريد أن أقول :

لوح جبير بيده مقاطعاً :

— « لا تدافعي عن نفسك .. إن الامر لا يحتاج إلى دفاع .. أنا أعلم الحقيقة قبل أن استدعيك ، وأعرف أنك بريئة . وما استدعيتك إلا لأبين لك حقارته ونذالته ، فتكوني على علم بها ، فإذا ما طاردك أو حاول الاتصال بك فما عليك إلا أن تخبريني وأنا أعرف كيف أضع حداً لحماقاته وتجرئه عليك.. إن فتاة عاقلة .. مثلك لا يمكن أن تفكر في أمور الدين وتعقيداتها إن واجبك شيء غير هذا كله .. أعرف أن بعض الإماء والعبيد قد سحر محمد ألبابهم ، ووضع في عقولهم بذرة التمرد ، واستغل نقاط الضعف فيهم .. وفتاة مثلك لا يمكن ان تسقط في شباك دعاوي محمد ، ولا يخلب لبها بريقه .. ثم أشار إليها أن تنصرف قائلاً :

— « تستطيعين الآن أن تعودي إلى عملك آمنة مطمئنة.. ».

لقد سد سيدها عليها الطريق ، لم يعطها فرصة للاعتراف إنه يأبى أن يصدق الحقيقة ، لأن ظنه يفرض عليه صورة معينة لفتياته ، ولا يتصور أن واحدة منهن تجروُ على التنكر له والمساس بكبريائه ، وهمت عبلة بالانصراف ، وخطت بضع خطوات ، لكنها توقفت ، وأدارت وجهها نحوه من جديد ، ثم عادت إليه — « ماذا تريدين ؟؟ » .

— « لم أتعود أن أخدعك أو أكذب عليك .. ولو كلفني ذلك حياتي .. » .

— « أعرف ذلك .. » .

ثم ازداد شحوب وجهها وارتجاف جسدها وهي تقول :

ــ « سيدي .. الحقيقة .. الحقيقة .. » .

ــ « ماذا ؟؟ » .

ــ « لقد تابعت محمداً على دينه .. » .

كارثة كبرى ، لكأنما أطبقت الجبال على رأسه وسحقته سحقاً ، إنه لا يصدق . هذا مجرد حلم ، وكيف يصدق ؟؟ أتجروْ فتاة مشتراة أن ترفع رأسها في بيته وتزعم أنها اعتنقت دين محمد ؟؟ ونظر إلى وجهها الشاحب ، وجسدها المرتجف ، ودموعها الغزيرة . وصرخ :

ــ « أنت تكذبين » .

ثم نهض وجذبها من يدها ، وقرب منها عينين يتقدان شرراً وهدراً :

ــ « تكلمي .. لا شك أنك تكذبين .. إن فتاة حقيرة مثلك لا يمكن أن تفرق بين حق وباطل .. مثلك ليس لديها الشجاعة لتختار .. » .

ثم دفعها إلى الوراء في قسوة وقال :

ــ « إنه تطاول صارخ على مكانتي ... » .

ــ « مولاي ... يحزنني أن تجزع وتتألم .. إن لك كل ما للمالك علي حق ..لك دمي وجهدي لكن الشيء الوحيد الذي لا يملكه إلا الله هو قلبي .. » .

زمجر في حماقة :

ــ « أي إله ذلك الذي ينازعني سلطاني فيما أملك ؟؟ ».

قالت في نبرات خاشعة :

– « حاشا لله ... إنه خالقك وخالقي .. وأنا لم أغدر أو أخن .. » .

– « أهنالك غدر وخيانة غير الذي صنعت ؟؟ » .

– « ليس هناك إنسان يستطيع أن يرغم الآخرين على الإيمان أو الكفر ، أو الحب أو الكره .. » .

لوح في عنف :

– « أنا لا أطيق نقاشاً كهذا .. » .

وعاد يخاطب نفسه :

– « لشد ما قاسيت من هؤلاء الإماء والعبيد ! ! ماذا يقول الناس عني ، السيد المهاب ، والنسابه الكبير ، وأعنف خصوم محمد .. عصاه فتيانه وفتياته ، واعتنقوا الإسلام .. يا للعار ! ! أأشوي أجسادهم بالسياط ، هذا لا يفثأ غضبي .. أأسفك دمهم ؟؟ اني لا أبلغ بذلك ما أريد .. كيف يخضعون لذلك الرجل الذي يعيش في يثرب ،ويتبعون دعوته ، ويعرضون أنفسهم للموت والعذاب ، وهو بعيد عنهم ؟؟ أنا هنا .. إلى جوارهم ، لا يستطيعون الإفلات من رقابتي ، ولا يعصون لي أمراً .. ومع ذلك يجرؤون على اعتناق ما لا أعتقد .. إنهم يسخرون مني ... » .

ثم عاد إليها وواجهها قائلاً :

– « كيف بلغتك كلمات محمد ؟؟ ومتى وجدت الفرصة لدراستها وهضمها والاقتناع بها ؟؟ أو تظنين أيتها الحشرة

الدنيئة أنك أبعد نظراً ، وأثقب فكراً مني أنا ؟؟ » .

قالت والدموع تملأ عينيها :

– « سيدي .. الإيمان قضية أخرى تختلف عن عمق الفكر أو ضحالته .. والله يهدي من يشاء .. » .

سخر في مرارة :

– « وشاء الله أن تهتدي الأمة الذليلة الحقيرة ، وأن يبقى جبير بن مطعم في غيه وضلاله .. أيمكن أن يحدث ذلك ؟؟ » .

– « إنني أصغر من أن أجيب على هذا السؤال » .

– « لماذا ؟؟ » .

– « لأنه لا يخصني يا مولاي .. » .

– « فمن يجيب إذن ؟؟ محمد ؟؟ » .

– « إنه يوجه لصاحب الشأن .. لمن يملك الهداية والضلال »

انحنى واستقام في حركات لا تتفق مع وقاره ، ثم قال :

– « إذن فاسأليه أيتها الطاهرة المؤمنة لماذا كتب علي العصيان ؟ إنك أقرب إليه مني .. » .

– « طريق الله مفتوح لا يحتاج إلى وساطة أحد .. » .

زم شفتيه ، وقرب حاجبيه وهدر :

– « أتبشرين بدين محمد في بيت جبير بن مطعم ؟؟ » .

– « لم آنس لديك إلا كل نبل وكرم .. ولم انتهك حرمة هذا البيت .. » .

وفكر جبير ، ماذا يفعل ؟؟ إن ما حدث من عبلة طعنة نجلاء توجهها الأقدار إلى شرفه وكبريائه ، نفس القصة القديمة ،

إنها تفعل ما فعله بلال وغيره من العبيد والإماء ، أينكل بها ، ويذيقها ألوان العذاب حتى ترجع عن غيها ؟؟ إنها صغيرة السن .والألم الشديد يعيدها إلى رشدها ، ويجعلها تفيق من هوسها ، لكن العناد والصبر والتضحية طبيعة هؤلاء المارقين والمارقات .. » .

أيقتلها ويواريها التراب دون أن يسمع بها أحد ؟؟ إن هذا لن يشفي غليله . أو يبدد من نيران الغضب التي تشتعل في قلبه .. أيجعلها عرضة للعذاب والألم الطويلين .. للموت البطيء حتى يحطم كبرياءها ، ويزيد من إذلالها حتى ينفد صبرها ، وتستسلم لليأس ؟؟

والتفت إليها قائلاً :

— « والآن تستطيعين أن تذهبي من حيث جئت .. إنني آمرك ألا تخبري أحداً بشيء مما جرى الآن.. »وانصرفت عبلة..

جففت دموعها ، ورفعت عينيها المحتقنتين إلى السماء شاكرة ضارعة ، كانت تشعر بفيض من الراحة والرضى ، برغم المستقبل الذي يكتنفه الغموض القاتل ... لكنها قد أدت واجبها .. وأطلقت كلمة الحق دون مواربة .. قد تدفع حياتها ثمناً لذلك .. لكن الجميع سيعرفون الحقيقة ، وقد يفتح ذلك الطريق أمام أعينهم ، فيفرون إلى الله .. والأهم من ذلك أنها أرضت ضميرها ، وأرضت ربها .. وأنها تتلذذ بما يجره عليها ذلك الإيمان من عناء ...

وتمتمت : « لعنة الله عليك يا وحشي .. لم أكن أتصور

أن تنحط لهذه الدرجة من النذالة والوحشية .. » .

وعندما عادت إلى مقرها في البيت وسألها زميلاتها عما جرى همست قائلة :

– « لا شيء .. كان سيدي يعتب علي عدم دقتي في إعداد الطعام .. » .

في ناحية أخرى ، كان جبير يروح ويجيء في حجرته لا يقر له قرار ، ثم أمسك بلحيته الكثة وهتف فجأة :

– « إيتوني بوحشي بن حرب الآن .. أريده على عجل .. »

— ١٥ —

تمتم وحشي وهو يهرول : « إنني اشم رائحة الكوارث من بعيد ، أنفي يلتقطها كأنف كلب مدرب ، يدي لا تخطىء التصويب ، وأنفي لا يخطىء في حاسته الحادة » .

ربما حسب وحشي في بداية الأمر أن « جبيراً » قد أرسل إليه ليعاقبه على كذبه وتجنيه ، واتهامه لعبلة دون دليل ، لكنه سرعان ما استبعد هذه الفكرة ، كان تكذيب سيده له قد وقع في حينه ، ولا يستأهل الأمر إعادة تأنيب ، أما وأن سيده قد استدعاه على عجل فلا شك أنه تبين الحقيقة ، إن عبلة مجنونة إيمانها من نوع عميق لا يعبأ بالنتائج ، وما أظن إلا أنها ألقت في وجه سيدها بالحقيقة المرة التي كادت تضعفه ، وجبير حاد الطبع ، شامخ الكبرياء ، يعتبر إيمانها اعتداء صارخاً على كرامته

ومركزه الكبير بين سادات قريش ..

وحينما دخل وحشي انحنى انحناءة خفيفة وتمتم :

— « خادمك الأمين تحت أمرك .. » .

تنهد جبير وقال :

— « إجلس يا وحشي .. » .

— « أأجلس يا سيدي ؟! » .

— « أجل .. » .

لم يصدق وحشي أن جبيراً يدعوه للجلوس . وما أن استقر في مكانه حتى غمغم بصوت لا يسمعه جبير « هذا دأبهم . إذا كان لهم حاجة عندي فإنهم يعاملونني باحترام . ويغرقونني بكرمهم الحاتمي .. أنا أعرف هؤلاء السادة .. ظاهرهم الكبرياء والتعفف ، وباطنهم يغص بالعفن والرذائل والحقارات .. نفس الصورة التي رأيت جبيراً عليها حينما طلب مني أن أقتل حمزة ، أنا أعرفه جيداً .. ترى ماذا يريد هذه المرة ؟! هل سيستأجرني لجريمة جديدة .. تالله لن أضحي بحياتي أو أعرضها للخطر مهما كان الثمن .. حتى ولو كان الثمن عبلة .. إن حياتي برغم تعاستها أثمن ما لدي في هذا الوجود .. وأفاق وحشي من هواجسه على صوت سيده :

— « الحقيقة أنني ظلمتك يا وحشي .. » .

— « أنت صاحب فضل يا سيدي .. وإكرامك لي يشملني حتى آخر لحظة من لحظات عمري .. لقد جدت علي بالحرية ولا يساوي الحرية شيء في هذا الوجود .. » .

قال جبير :

ـ « أو تعتقد ذلك حقاً ؟ » .

ـ « هذا أمر لا يختلف فيه اثنان يا واهب الحرية لعبدك التعس .. » أجل .. ليطأطيء وحشي رأسه وليتقرب إلى سيده بمعسول الكلام . وليرفع سيده إلى أوج السماء . ويجعل منه إنساناً فوق البشر . إن وحشي لن يخسر شيئاً .. وسيده لن يرتفع مقامه قدر أنملة .. لكن وحشي سيكسب في الحقيقة كثيراً . هذه الكلمات الضارعة لن تكلف وحشي شيئاً .. غير أنها ستفتح قلب جبير له ..

ـ « أحياناً تبدو يا وحشي في كامل عقلك . وتعبر عن أفكار عظيمة لا أراها إلا لدى حكماء هذا العصر .. » .

ابتسم وحشي في خجل :

ـ « هذا كثير يا سيدي .. ما أنا إلا فتى طائش مسكين يخونه التوفيق في التعبير في أغلب الأحايين .. » .

ـ « كلما تواضعت يا وحشي .. زدت في عيني رفعة .. »

ـ « العبيد لا يرتفعون .. إنهم يولدون عبيداً ويموتون عبيداً

ـ « إلا أنت يا وحشي .. » .

ـ « وهل أنا إلا واحد منهم ؟؟ » .

ـ « لست مثلهم . لقد نلت الحرية بعرق جبينك .. إن الأقدار تعدك لحياة أسعد وأشرف .. » .

ثم استدار إلى وحشي فجأة وقد تجهم وجهه وقال :

ـ « أتحب محمداً يا وحشي ؟؟ » .

— « كيف يا سيدي ؟؟ ولم قتلت عمه ؟؟ انني أكره في حياتي اثنين لا ثالث لهما ، الماضي الأسود ، ومحمد بن عبدالله .. »

ابتسم جبير وتمتم :

— « أيها الملعون .. إن صراحتك تطربني في بعض الأحيان »

— « لكن لم هذا السؤال ؟؟ انك تعرف الإجابة عنه سلفاً »

قال جبير :

— « في كل لحظة يجد جديد .. وموسى اليوم ينقلب إلى فرعون غداً .. » .

— « الثبات على الحق فضيلة .. » .

— « الكارثة أن كل واحد يزعم أنه على الحق .. » .

ثم صمت برهة وقال :

— « أتدري لماذا استدعيتك ؟؟ »

— « يسعدني أن تستدعيني أياً كان السبب .. إن ثقتك فيّ أمر أحرص عليها أشد الحرص . حسبت أن نيلي الحرية ، وجمعي لبعض المال سيجعلني في غنى عن الناس جميعاً .. كان هذا وهما يا سيدي .. إن الرجل الذي عشت معه تلك السنوات الطويلة ، وأسبغ عليّ فضله .. سأظل أسير عطفه وعونه طول عمري ... إنه أسار محبب إلى نفسي .. » .

وسر جبير لسماعه هذه الكلمات التي تسيل رقة وعذوبة ، وتفيض بالعبودية والطاعة ، أهذا هو المتمرد الذي كان يلعنه ويسخط عليه ، ويريد أن يتخلص منه ولو بالعتق ؟؟ ثم .. أهكذا تكون عبلة التي ترفق بها ، وحرص عليها أشد الحرص؟؟

إن الأقدار تسخر منه . فتجعل من وحشي الآبق العنيد مطيعاً مستسلماً ، وتجعل من عبلة الوادعة المخلصة مباءة للخيانة والغدر واعتناق الأفكار الخطرة .. لقد كان جبير خاطئاً حينما انخدع بالمظاهر ، ولكنه لن يأس على ما فات ، لم تزل في العمر بقية ، ولم يزل قادراً على الانتقام من كل إنسان يسيء إليه ، أو ينال من كبريائه ..

وقال جبير فجأة :

— « لقد أصبحت أوقن أن محمداً ساحر .. » .

— « ساحر ؟؟ » .

— « أجل .. إن أقواماً يتبعونه وهم في قمة الذكاء والحنكة ثم أجد أيضاً آخرين يؤمنون به وهم عراة من كل موهبة وروية إن اجتماع النقيضين لا يمكن تفسيره إلا بأن الرجل ساحر .. » .

ابتسم وحشي ابتسامة ذات معنى وقال :

— « ولماذا بطل سحره يوم أحد ؟؟ » .

— « هذا ما يحيرني .. الأنبياء لا يهزمون يا وحشي .. هل تتصور أن محمداً أخذ يتلو آيات من القرآن تصف ما جرى يوم أحد وكأنه أمر أراده الله ليأخذ منه المسلمون درساً ، وليجربوا التضحية والابتلاء ، وليعلموا أن النصر غالي الثمن وأنه لا يعطى للمتهاونين أو الكسالى .. إن كل طعنة توجه إليه يداويها بروعة بيانه . فيصبح رجاله وهم أشد إيماناً به ، وتمسكاً بدعوته .. أليس هذا سحراً ؟؟ » .

— « ليس هناك سحر يا سيدي .. هناك السيف والمكيدة.. »

وتجهم وجه جبير وشرد بصره ، ثم تمتم :

– « وحشي .. دعنا من هذا الحديث المؤلم .. لقد فكرت فيما عرضته عليّ .. » .

– « أي عرض يا سيدي ؟؟ » .

– « ألم تطلب مني شراء عبلة ؟؟ » .

– « أوه يا سيدي .. لقد انصرفت عن هذا الأمر عندما تيقنت من إيثارك لها .. إن احتفاظك بها لا يؤلمني .. لقد عتبت على نفسي أشد العتب .. فالنساء كثيرات يا سيدي .. » .

قال جبير في صرامة :

– « لقد قررت بيعها لك » .

– « إنك توقعني في حرج .. » .

– « أنت جدير بكل تكريم .. لكن أتحبها حقاً ؟؟ »

ضحك وحشي في أدب :

– « أي حب يا سيدي تقصد ؟؟ أتعتقد حقاً أن فتاك الذي تربى على يديك يمكن أن يسلم مصيره لامرأة ؟؟ » .

إن الإفراط في حب النساء أمر يتنافى مع الرجولة الحقة في نظري .. » .

قال جبير :

– « فلماذا طلبتها بالذات ؟؟ » .

– « هذه الداعرة تجيد معابثة الرجال .. إنها مجرد تسلية.. »

– « أكانت كذلك حقاً !! » .

– « يؤسفني أن أعترف .. ربما يكون هذا تصرفاً غير

لاتق مني ومنها ، لكن هذا ما حدث ..» .

زم شفتيه في ضيق ، وقال :

ـ «بكم تشتريها ؟؟» .

ـ «مائة دينار ..» .

ـ «زد يا وحشي ..» .

ـ «مائة وعشرين ..» .

ـ «زد يا وحشي ..» .

ـ «بكم تريد يا سيدي ..» .

ـ «اريدها لك بمائتين ..» .

ـ «طوع أمرك يا سيدي ..» .

وجفف جبير قطرات عرق تصببت على جبينه ، ثم قال وقد احتقن وجهه :

ـ «وحشي ..» .

ـ «مولاي ..» .

ـ «هي لك بلا ثمن على شرط ..» .

ـ «ما هو ؟؟» .

ـ «أن تحيل حياتها إلى جحيم .. ولتجعلها تتذوق مرارة الألم ،والضياع والاحتقار..ولتقاسي من الجوع والظمأ والسخرية التي ما بعدها سخرية .. ليتعذب جسدها وروحها حتى تتحطم.. وحذار أن تغافلك وتقتل نفسها ..» واستطرد جبير وهو يصر على أسنانه غيظاً :

ـ «أريد أن تطول حياتها ليطول عذابها...» .

انحنى وحشي وتناول يد سيده ، وقبلها في خشوع وهو يتمتم :

— « السمع والطاعة يا مولاي .. ولييأت سحر محمد لينقذها مما ستعانيه من ضياع وآلام .. ليس كلهن على غرار سمية وأشبه ببلال وياسر .. هؤلاء الذين تحملوا الألم العظيم .. » .

قال جبير :

— « لست أحمق حتى أرضى بعذاب كعذاب بلال وسمية وياسر .. إن ما أريده شيئاً آخر .. الخوف .. والجوع .. والعذاب .. والأيام الطويلة ستفعل فعلها .. ماذا فعلوا ببلال ؟؟ وضعوا صخرة على صدره ، وتركوه في لهيب الشمس وجمعوا حوله الصبية .. وآلموه فترة قصيرة .. وماذا فعلوا بسمية قتلوها قتلا شنيعاً ؟؟ هذا هراء .. لو استطعنا أن نهز إيمان عبلة ، ونعيدها إلى الطريق القويم فسيكون هذا شيئاً رائعاً ونصراً مؤزراً أية حلاوة يتذوقها القاتل ؟؟ لا يا وحشي ... أريد الاثنين معاً .. العذاب والفتنة ، حتى تكفر بمحمد .. » .

وابتلع جبير ريقه وقال :

— « إن ما فعلته بحمزة عم الرسول أمر هين بالنسبة لما ستعمله في عبلة .. أتفهمني ؟؟ » .

— « أفهم ذلك جيداً .. » .

وصاح جبير بصوت مبحوح :

— « أحضروا عبلة .. » .

وعندما قدمت شاحبة الوجه ، قلقة النظرات قال جبير

مشيراً إلى وحشي الذي جلس خافض الرأس :

— « هذا سيدك الجديد يا فتاة .. لقد اشتراك مني فاسمعي له وأطيعي .. » .

نظرت إلى وحشي الذي رشقها بنظرة شيطانية . ثم دارت بها الأرض . فلم تستطع ساقاها أن تحملاها فارتمت على الأرض متكومة وهي تشهق في لوعة تمزق القلوب ... » .

— ١٦ —

وضمهما أخيراً بيت واحد ، أهو في حلم أم في يقظة ؟؟ كيف يبدأ . وماذا يفعل ؟؟ إنه ألعن موقف واجهه وحشي في حياته ، اللحظة التي طالما انتظرها ، تبدو وكأنها أشد ما تكون تعاسة وحيرة . إنه لقاء من نوع شاذ غريب ، أتت « عبلة » دون كلمة ترحيب ، وجلست دون أن تنطق ببنت شفه . عيناها محتقنتان دون دموع ، ووجهها شاحب ذابل . وهو يتشاغل بأشياء تافهة ، لا يستطيع أن يفتح فمه ويلقي كلمة واحدة . وهي نهب للانتظار والقلق الرهيب .. وحانت منه التفاتة فوجد شفتيها تتمتم ، آه إنها تصلي لإلهها وتستنجد به . ووحشي لمن يصلي ويضرع ، إنه في الحقيقة أشد كرباً وأسى منها . من المفروض أن يملك زمام الموقف . ومال إلى رف قريب ، وفي خفة وسرعة لم تلحظهما عبلة ، تجرع قدراً من الخمر دفعة واحدة . إن الخمر ملجؤه ومآبه ، قد تمده

بشيء من الشجاعة فيستطيع مجابهة الموقف الصعب .. ثم جرع جرعة كبيرة أخرى ، فقد تحل الخمرة عقدة لسانه ، وتهبه قدراً من الوقاحة والصفاقة فينطلق بكلمات .. أي كلمات ..

وأخيراً قال وقد أعطاها ظهره :

— « لقد اشتريتك بمالي .. » .

ولما لم تجب ، استطرد :

— « أنا اختلف عنه كثيراً .. »

وظلت معتصمة بالصمت فقال :

— « لماذا لا تتكلمين ؟؟ » .

قالت بصوت جريح :

— « وماذا أقول ؟؟ » .

— « أي شيء .. قولي أي كلام .. » .

— « إن ما سأقوله قد لا يروق لك .. » .

استدار إليها قائلاً :

— « تكلمي .. » .

— « أنتما حيوانان مفترسان » .

— « قد يكلفك ذلك حياتك .. » .

— « لقد استودعت الله نفسي منذ أن عرف جبير الحقيقة.. لم أكن أتصور أن تفعل ذلك ، لقد حاولت الحفاظ على حبنا فإذا بك تدمره إلى الأبد .. » .

قهقه دون وعي :

— « هذه كلمات بلهاء ، لقد أصبحت لي على الرغم

منك .. وهنا أستطيع أن أفعل بك ما أشاء .. عن أي حب تتكلمين ؟؟ » .

رفعت رأسها في تحد :

– « لن تستطيع .. » .

– « ها .. ها .. ها .. » .

– « لن تستطيع .. » .

اقترب منها ملوحاً بيده في وجهها :

– « لقد اشتريتك بمالي .. » .

– « دون ذلك الموت .. » :

– « إن آخر ما أفكر فيه هو الموت .. بل لعلي لا أفكر فيه مطلقاً .. » .

وفكر أن يهجم عليها ، ويطوقها بذراعيه ، ويعتصرها اعتصاراً ، ويمطر وجهها الذابل الشاحب ، بقبلاته النهمة ، لكنه لم يستطع ،خيل إليه أن رماحاً مشرعة تحميها ، وتسدد حرابها إلى قلبه ، داخله رعب بالغ ، لم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة ، وعيناها المحتقنتان تسدد إليه نظرات مخيفة ، وخفق قلبه بشدة ، وقال في ضراعة :

– « تعرفين أنني أحبك ، وأنني لم أفعل ما فعلت إلا لأني أحبك ، وأريدك إلى جواري .. ألا تشعرين بحرارة هذه الكلمات يا عبلة ؟؟ إنها تنبع من أعماق قلبي الحزين .. » .

قالت مطأطئة الرأس :

– « لا تحاول أن تؤثر عليّ .. لقد مات كل شيء ..

الحب معنى سام شريف ، وأنت لا تعرف السمو ولا الشرف.. لقد خضت في الأوحال والمستنقعات الآسنة ، وتوسلت بأخس الوسائل لتنال أمراً نبيلاً .. » .

– « جنوني بك دفعني إلى ذلك .. انت تقسين عليّ .. لو سمعت هذه الإهانات من رجل لحطمت رأسه .. » .

– « أنا بإيماني أقوى من الناس قاطبة .. » .

صرخ محتداً :

– « هذا غرور .. أنت تجرين على نفسك الوبال .. أنا أرفض الهزيمة والحرمان .. وعندما يستولي عليّ اليأس فسأدمر كل شيء .. أدمرك وأدمر نفسي .. » .

قالت في إصرار :

– « أنا هنا لأفعل ما تشاء من أعمال .. » .

– « وسأتخذك زوجة .. » .

– « مستحيل .. » .

– « لكني اشتريتك بمالي .. ولي الحق في معاشرتك .. أتخرجين على العرف والتقاليد ؟؟ » .

– « كل شيء إلا هذا .. لن أمكن كافراً مني .. » .

– « أنا صاحب حق يا عبلة .. » .

– « لقد قلت لي ذات يوم أنه ليس هناك حق وباطل .. ».

هجم عليها ، وأطبق بكلتا يديه على عنقها وهو يصرخ كمجنون :

– « وهناك القوة .. أتذكرين ؟؟ » .

حاولت أن تصرخ فلم تستطع ، أما هو فقد تراخت قبضتاه واختلطت المرئيات أمام عينيه . فلم يعد يميز شيئاً ، وارتمى إلى جوارها في ذهول ، ولم يدر أطال الوقت أم قصر ، لكنه فتح عينيه ، فوجدها جالسة في مكانها ، محتقنة الوجه . وتنطلق من عينيها نفس النظرات الحادة المتحدية ..

قال وقد تبللت عيناه بالدموع :

— « أنت لا تعرفين الحقيقة .. » .

— « أعرف .. » .

— « ماذا ؟؟ » .

— « لقد اجتمع الحاقدان .. جبير الثائر من أجل كرامته وشرفه ، ووحشي الحاقد من أجل حبه وكبريائه ، أنتما بؤرتان من عفن وشذوذ تريدان أن تتآمرا على فتاة مسكينة أرادت أن تفتح قلبها لنور الحق والفضيلة .. لم أر في حياتي ظلماً أو عدواناً كهذا .. » .

قال بنبرة متلعثمة متعثرة :

— « أنت تجرين على نفسك الوبال .. وتتعلقين بأذيال مُثُلٍ لا وجود لها في عالمنا .. وكيف تنسين أنك أمة ذليله تباعين وتشترين بدنانير معدودة ؟؟ » .

— « الروح لا يملكها إلا خالقها يا وحشي .. » .

— « بل يملكها من اشتراك ... » .

— « أكنت تؤمن بذلك وأنت عبد ؟؟ » .

— « كنت .. كنت .. هذا لا يهم .. إنني الآن سيد حر..

وأنت أمَةٌ .. » .

فشردت إلى بعيد وتمتمت :

— « كلمات محمد رائعة « كلكم لآدم .. وآدم من تراب » ومبادئه تعبر عن الحقيقة الخالدة .. أما أنتم فلكل يوم حقيقة .. ولكل حدث طارىء حقيقة .. أنتم تصنعون الحقائق التي تروق لكم ، وتلبسونها اللباس الذي تريدون .. أعني أنكم تعيشون بلا حقيقة .. عالم من الفوضى والأهواء .. أي وحشي العنيد .. لن تملك روحي ولو ملأت بيتك بالسيوف والذهب .. »

وجرى إلى ركن الخمر ، ونهل منه ما شاء . ثم عاد إليها :

— « لسوف أقيدك بالحبال ، وأربط يديك خلف ظهرك وفي هدوء تام أفعل بك ما أشاء .. » .

وابتسم كشيطان .

— « يا وحشي أنت حيوان مفترس .. » .

واستطردت قائلة :

— « وهل ستسعد بذلك ؟؟ إنك تتمادى في الخطيئة .. أنت لا تراجع نفسك ، وتفكر في مسلكك المشين .. » .

صرخ :

— « أية خطيئة !! أنت لي .. اشتريتك بمالي .. » .

— « فلا تتحدث عن الحب .. » .

— « اللعنة على الحب .. إنه أسوأ مما تصورت .. » .

قالت في نبرات هادئة :

— « أنت لا تعرفه .. لم تذقه طول حياتك .. » .

خفت حدته ، ورقت لهجته وهو يقول :

– « بل عرفته في الأيام الحوالي .. أيام كنت أجد لديك الحنان والعطف والثقة .. كنت تستمعين إليّ تحت ستار الليل ، وكنت تمنحينني الكثير من السلوى والعزاء ..فأشعر أني سعيد ، وأن الدنيا كلها طوع يميني .. » .

قالت :

– « لأنك لم تكن قد تلوثت لهذه الدرجة بعد .. » .

– « إنني ملاك .. لو عرفت ما اشترطه عليّ جبير لتحفظت في كلماتك ، ولعلمت أي انسان أكون .. » .

وشردت مرة ثانية :

– « إنني أنظر إلى المستقبل .. فأرى دولتكم تزول .. وأرى أعناق الكفر في مكة تسجد .. وتسلم أمرها لله .. وأرى جنود الحق يهتفون بعبارات التكبير والتهليل في كل مكان .. والقساة الغلاظ يفرون إلى جميع الأرجاء باحثين عن النجاة .. عندئذ يطلع عليكم الندم بوجهه الحزين الدامع .. وتتوارى قيمكم الدنيئة بعيداً عن الأنظار .. » .

صاح مقاطعاً :

– « لا تنطقي بمثل هذه الكلمات .. إنني أكرهها لسوف أرحب بالموت آنذاك .. » .

ثم استطرد وهو يصر على أسنانه :

– « ومحمد لن يدخل مكة منتصراً .. القوة هنا .. والمال هنا .. والتراث العريق .. ومحمد لن يقهر هذا كله ولو ناصرته

ملائكة السماء .. دعي هذه الأمور ، فأنا أدرى بها منك .. » .

قالت وقد أشرق وجهها :

– « إنني مؤمنة بكل حرف أقوله كإيماني بالله .. » .

وانتزع نفسه من الحجرة ، وهرول خارج البيت ...

– ١٧ –

إنه عاجز حتى أمام الفتاة التي يمتلكها ، عاجز وهي في بيته ، وتحت إمرته . لا يكاد يفصل بينه وبينها أي حائل ملموس ، وهو قوي يستطيع أن يسحقها أو يعتصرها بين يديه ، لكن قوة غير منظورة تجعله لا يقدر على ممارسة رغباته ، أو التعبير عن إرادته إلا بكلمات .. مجرد كلمات ضارعة أحياناً ثائرة أحياناً أخرى ، حاول اكتسابها بكل وسيلة ففشل ، تناسى شروط سيده أو تجاهلها إلى حين ، والآن ما العمل ؟؟ أيذهب لإحضار سوط ويقيدها بالحبال ، ويقذف بها في مكان مظلم حيث لا أنيس ولا ماء ولا طعام ؟؟ أيخطو هذه الخطوة لعلها تقربها منه وتعيد إليها عقلها ، وفي نفس الوقت يكون وفى بشروط سيده ؟؟

واستبدت به الحيرة ، وهو يضرب في الطريق على غير هدى ، ووثب إلى ذهنه اسمان « وصال » و « سهيل » ، أما سهيل فهو بعيد ليس إليه من سبيل ، لعله في « ثقيف » الآن ، أو ربما يكون قد لحق بمحمد ، أما «وصال » فهي ما زالت

هنا .. تستقبله في أي وقت ، وتبصره بآرائها الناضجة .. لقد علمتها الأيام الكثير ، وجادت عليها بخبرات قل أن يجد مثلها لدى غيرها ...

وقصد لتوه إلى بيت « وصال » . إنه يشعر بفرحة غامرة ونشوة من نوع غريب ، هذه البغي يمكنها أن تحيطه بجو السلوى والعزاء ، إنها تشاركه أحزانه ، وتجاذبه الحديث . فعطفها عليه واضح وإيثارها له لا يحتاج إلى دليل . ونصحها المخلص قد يفتح أمامه الأبواب المغلقة . فليذهب إليها . وليقص عليها الأمر كله ...

واستقبلته بابتسامتها المعهودة التي يمتزج فيها الحزن بالترحيب والرضى بالقضاء ، أما هو فقد بدا على وجهه التبرم والضيق . وقال في أسى :

ـ « لم أعد أصلح لشيء يا وصال » .

ضحكت في مرح :

ـ « لكنك لم تزل في فورة الشباب ، وأحلى سني العمر ، وتستمتع بقوة خارقة .. » .

قال في مرارة :

ـ « قوة لا تعرف كيف تنطلق .. طاقة مسجونة لا قيمة لها ، إن السخرية تنتصب قبالتي وتصب هزءها علي بلا رحمة .. » .

وعاد يكرر :

ـ « لم أعد أصلح لشيء .. » .

— « ماذا جرى ؟! » .

— « انها الآن في بيتي .. لكني عاجز عن معايشتها .. » .

— « من ؟ ؟ » .

— « عبلة .. » .

— « كيف ؟! » .

وشرح لها الأمر كله دون أن يخفي عنها شيئاً . روى لها كيف حاول شراءها . ولقاءه الأول والثاني مع جبير . ووشايته بها . وإصرار الفتاة على إسلامها . ورفضها لكل رجاء وضراعة تقدم بهما وحشي وسخريتها مما يلوح به من تهديد .

وهزت وصال رأسها وقالت :

— « إنه تصرف غريب منك ، هذه الفتاة لن تنالها بالقوة »

— « لكنها ملك يميني .. » :

— « لتنس هذا إن كنت حريصاً على الفوز بها .. جرب معها شيئاً غير العنف .. » .

— « لقد جربت يا وصال وفشلت .. » .

— « أنت لم تفعل .. » .

— « بل فعلت .. » .

فلم تكترث وصال لكلامه واستطردت :

— « ولتنس يا وحشي أنك حر وهي أمة مشتراة .. ولتنس أن القوة لك ، والمال لك ، ولتبدو أمامها وكأنك دونها .. إن حبكما يحول بينه سور عال من التصورات المفجعة .. لم

يعد حباً .. إنه حرب ، فيها غالب ومغلوب .. » .

صاح قائلاً :

— « يا وصال .. تريدني أن أعتنق دين محمد .. » .

— « هي تريدك أن تطأطىء رأسك .. وتستسلم لإرادتها تماماً ، تريد أن تشعرك أن عبوديتها أقوى من حريتك .. وأن عقيدتها قد سمت بها فوق المكانة العليا التي يتسنمها السادة .. ».

قال دون أن يكترث لكلمات وصال :

— « اليأس يغلف قلبي .. » .

— « أجل ... » .

— « والهزيمة تدمي روحي .. » .

— « مسكين ... » .

— « العجز يكاد يقتلني .. لم أعد أصلح لشيء .. » .

وأخذ يتمتم شارداً :

— « نلت الحرية .. أصبحت سيداً يملك المال .. والتي أحبها أصبحت ملك يميني .. ومع ذلك فالتعاسة لم تتغير .. إنها داء مستعص لا شفاء منه .. » .

وجاس بنظراته ، خلال الحجرة ، وتأمل وجه وصال وعينيها الحزينتين ثم قال وهو نهب لانفعال شديد .

— « كرهت مكة وساداتها للماضي الأسود الذي عانيت منه ، وكرهت محمداً ودينه لما أعانيه الآن من عصيان فتاة آمنت برسالته .. إنني لا أجد أحداً قميناً بالحب في هذه الحياة .. وطلب كأساً من خمر ، وما أن جرعها حتى أخذ ينشد كلمات

لامريء القيس :

وليلٍ كموجِ البَحْرِ أرْخى سدولَــهُ
عـليَّ بأنـواعِ الهمـومِ لـَيبتْــَلي
فقلتُ له لمـَّـا تمَــطى بصلبـــه
وْأردَفَ اعجــازاً ونَــاءَ بكَلْكَـلِ
ألا أيُهُـا اللَيـلُ الطويـلُ ألا انجـلي
بصبحٍ ، وما الأصباحُ ِمنكَ بأمثلِ ..

وكانت وصال تميل برأسها مع مقاطع الشعر ، وتغمض عينيها ثم تفتحهما ، وأخيراً علق وحشي قائلاً :

— « لقد طال ليلي ، ولا أرى للفجر بشائر ... وعبلة تبدو وكأنها تعيش في أحضان الفجر الوليد ، لا أدري كيف؟؟ لقد ضنعت لنفسها وهماً رائعاً من نوع غريب .. ومحمد قد أمدها بعالم يملأ قلبها بالأمل واليقين .. » .

قالت وصال :

— « عليك بالصبر .. » .

— « إن الصبر خلق لعين .. إنه يوحي إليّ بالضعف والملل ومرارة الانتظار .. » .

قالت وصال :

— « عندي فكرة .. » .

— « ما هي ؟؟ » .

— « انه الحل الأوفق لمشكلتك العويصة .. » .

– « تكلمي .. » .

قالت في هدوء :

– « ارحل عن هذه الديار .. » .

– « وحدي ... » .

– « لا .. خذها معك .. » .

– « وإن رفضت .. » .

– « كيف ترفض ألست مالكها وسيدها ؟؟ قد ترفض أشياء أخرى لكنها لن تخالفك فيما تكلفها به من أعمال .. » .

وصمتت برهة، بينما أخذ وحشي يفكر ، ثم قالت وصال :

– « وليكن رحيلكما سراً حتى لا يفسده جبير بن مطعم ويبطل الخطة التي نويتها .. » .

نظر وحشي إليها في اهتمام وقال :

– « وإلى أين نرحل ؟؟ » .

– « أرض الله واسعة .. » .

زمجر :

– « الدنيا في وجهي أضيق من الخاتم .. » .

غمغمت وصال :

– « حيث يكون الأمل ، تبدو الدنيا رحبة فسيحة .. ».

– « أأهرب من نفسي إلى نفسي ؟؟ » .

– « إن تغيير المكان يحمل في طياته أملا جديداً .. ويشرح الصدور بنسائم ندية منعشة ، الترحال شيء عظيم .. » .

وران عليهما صمت عميق ، ونظر وحشي إلى وصال

فوجدها تبكي في هدوء مثير ، قال مستفسراً :

– « ماذا بك يا وصال ؟؟ » .

قالت في شرود ، ونبراتها تمتزج بالدموع :

– « لطالما حلمت بذلك اليوم ، كنت أتصوره قادماً ذات مساء .. ويهتف بي من النافذة . ثم يتلقفني بين ذراعيه ، ويضعني على ظهر جواده . وينطلق بي مسابقاً الريح .. يشق الظلام والمجهول إلى أرض جديدة ، ليس فيها تجار للمتعة ، ولا سادة يملون إرادتهم .. ونعيش معاً – أنا وهو – في وحدة وأمان وحب يملأ الأرض والسماء .. » .

قال وحشي في دهشة :

– « من هذا الذي تذكرين ؟؟ »

– « حبيبي .. » .

– « لقد سخرت مني حينما حدثتك عن الحب يوماً ما.. »

– « كنت أبعد نفسي جاهدة عن الأحلام ، فحاضري ينوء بالتزامات وأحداث مزعجة بعيدة كل البعد عن الحب .. ثم إن الحبيب لم يكن قد أتى بعد .. » .

وشهقت باكية وهي تقول :

– « ولن يأتي .. » .

– « حسبته إنساناً بعينه .. » .

قالت والدموع تغرق وجهها :

– « إنه أنت يا وحشي .. » .

ـ صاح في دهشة :

ـ « أنا ؟؟ » .
ـ « أجل ... » .
ـ « لم أتصور أن أحداً في الوجود يحبني حباً حقيقياً .. ».
قالت وهي تبتسم في انفعال وتوتر :
ـ « إن بك نقائص صارخة وانحرافات شديدة .. ومع ذلك فقد أحببتك .. ليكن فقد فات الأوان .. إن هناك من هي أحق بك .. لتنس هذا الحديث .. إن الخمر قد لعبت برأسينا .. وأنا أهذي ... » .
وجففت دموعها ، ثم تناولت كأساً أخرى وقالت :
ـ « يجب أن ترحلا على الفور .. لتفلتا من أسار جبير ابن مطعم وشروطه القاسية .. إنه يريدك جلاداً لحبيبة قلبك .. لم يزل ينظر إليك كعبد أجير لتنفيذ ارادته ومخططه الرهيب ؛ يجب أن تتخلص يا وحشي من هذا القهر وتلك القيود الشائنة.. انطلق بها .. وليضرب جبير رأسه في جبل من جبال مكة .. ».
وشرد وحشي وهو يقول :
ـ « سأسابق الريح ، وأشق الصمت والظلام ، وانطلق إلى أرض جديدة .. حيث الحب والأمل لكن إلى أين أذهب ؟؟ »
قالت وصال وهي تربت على كتفه :
ـ « انطلق أولاً .. وفي الطريق الطويل ابدأ التفكير .. اسألها أين تذهبان .. قل لها إنك طلقت العالم من أجل حبها .. وانك عبدها المطيع .. الحب سيد كبير تسكت تحت أقدامه الكبرياء .. » .

قال ذاهلاً :

— « إنه الذل يا وصال .. ولماذا لم ترق هي كبرياءها ؟؟ ».

— « لم يؤن الأوان بعد .. » .

— « أخشى يا وصال أن تكون قد أراقت كبرياءها من أجل فكرة ، أعني دعوة محمد .. » .

قالت وصال وقد ثقل لسانها : — « انطلق ولا تفكر كثيراً. لن تخسر شيئاً .. » .

— ١٨ —

لم يذهب وحشي إلى بيته ، وأخذ يهيم على وجهه في الطرقات حائراً ممزقاً ، يفكر فيما دار بينه وبين عبلة ، ويستعيد ما قالته « وصال » ، لقد سيطرت عليه الدهشة وهو يستمع إلى اعتراف وصال بحبه ، إنها بائعة هوى ، ولم تفكر في يوم من الأيام بالارتباط برجل واحد ، وكانت لديها الحجج القوية ، والتبريرات المقنعة ، كانت تعرف نفسها وظروفها ، وتتصرف بعقل ، وفجأة ضاعت فلسفتها ، وذابت تبريراتها ، وأسفرت عن امرأة ضعيفة لها أشواق .. تريد أن تستأثر برجل ، وتخلص له الود ، وتعيش له وبه ، وإنها امرأة مسكينة بكل ما تحمل هذه العبارة من معنى ، ووحشي لم يناقشها هذا الأمر ، إن عبلة تشغل باله وفكره ، ووصال يحبها كسكن لآلامه وأحزانه إنها تروي ظمأه رياً موقتاً ، ليست بالمرأة الكاملة التي ترضي

كبرياءه ، وتملأ قلبه ، وتشبع الروح والجسد معاً ، وهي تدرك ذلك ، ومن ثم سرعان ما انسحبت واتهمت نفسها بالهذيان والتخريف وطلب المستحيل ..

وتجلت لوحشي في الظلام صورة « حمزة بن عبد المطلب » فأصابه الارتياع ، الخمر لم تزل تمور برأسه ، والخيالات تحتشد وتتداخل . وكاد يصرخ من الرعب ، آه .. العار يلاحقه والخطيئة ترتسم له ، وتؤرق حياته ، لم تفلح الخمر في إبعاد الشبح عنه . ماذا يرى ؟؟ لا شك أن ذلك مجرد أوهام .. لقد مات حمزة وانتهى الأمر . ويحاول جاهدا أن يبعد صورة حمزة عن ذهنه ، لكنها تتجسم ، وتلح في عناد ، حتى لكأنها حقيقة .. وأخذ يجري ويلهث . لو رآه أحد لرماه بالجنون .. تحسس حربته .. يا للكارثة !! انها ليست معه ، ترى لماذا نسيها ؟؟ ثم توقف لاهث الأنفاس .. صورة الشهيد تطارده . وتبتسم في سخرية ، وكأنه على قيد الحياة ..

— « ماذا أرى ؟؟ الموتى لا يبعثون .. إنهم يستحيلون إلى رماد وعظام نخرة .. » .

وخيل إليه أن همساً يطن في أذنيه : « أنت واهم .. ضال.. بل الموتى يبعثون أيها المأجور الذليل » .. ماذا يسمع وحشي .. أصوات كثيرة تطن في أذنيه ، الصورة المشرقة الباسمة تتحدى الظلام ، إنه يحاول أن يفتح عينيه جيداً ، ويهز رأسه ليبعد النوم والسكر ، لينفض عنها الوهم ، وصاح بأعلى صوته : « هذا هراء .. أنا لا أخاف ... » وصدرت بالقرب منه ضحكة

ساخرة .. من أين صدرت هذه الضحكة ؟؟ انه يتلفت يمنة ويسرة ، فلا يرى إلا صورة حمزة أنّى اتجه ببصره .. انه محاصر لا يستطيع الإفلات .. وصرخ : « ماذا تريد .. مني ؟؟ تكلم .. لقد قتلتك لأنال حريتي .. إنها الحرب لا تعرف الرحمة البشر يفعلون ذلك ». لكن الصورة يشع في وجهها الابتسام الممزوج بالسخرية .. وسمع كأن هاتفاً يقول : «احتفظ بهذه التبريرات الكاذبة لنفسك أيها المأجور .. أنت شيطان تعس .. وستظل تعساً طول حياتك .. » وأخذ وحشي يجري هنا وهناك ويصيح : « من أنت ؟؟ ماذا تقول ؟؟ أنا لست تعساً .. » وخيل إليه أن آلاف الحراب تحيط به .. وأنها تقترب وتقترب .. إذن هي النهاية .. ماذا ينتظر ، وصاح بأعلى صوته :

— « النجدة .. النجدة .. انقذوني .. » .

ثم ارتمى على الأرض مغشيّاً عليه ...

وهرول نفر قليل على ضوء الشموع الخافتة . وأخذوا يتحسسون الطريق نحو مصدر الصيحة ، وأخيراً وجدوه ملقى على الأرض في شبه غيبوبة ، واقتربوا منه ، صاح أحدهم :

— « هذا وحشي التعس .. يبدو أنه قد أفرط في الشراب »

وصبوا على وجهه ورأسه أقداحاً من الماء البارد ، وعندما فتح عينيه ، رأى الشموع الصغيرة المتراقصة وعدداً من الوجوه فتشبث بهم في خوف ، وأخذ يتمتم : « يريد أن يقتلني .. إنه هنا .. موجود لقد رأيته بعيني .. إنه يطاردني .. لقد كان على وشك أن يقضي عليّ .. » .

قال أحد السامعين :
— « من هو ؟؟ » .
— « حمزة بن عبد المطلب .. » .
وضج الحضور بالضحك ، وقال رجل :
— « لقد أثقلت في الشراب يا وحشي المسكين .. » .
قال وحشي :
— « لقد رأيته بعيني رأسي .. » .
قال أحدهم ساخراً :
— « صدقوه .. » .
وضجوا بالضحك مرة ثانية ، بينما قال وحشي محتداً :
— «لقد كنت أناقشه ويناقشني أيها الحمقى.. الكلمات لا تصدر إلا عن إنسان حيّ ... أنتم لم تروا شيئاً لكني رأيت بعيني رأسي »
وعاد الساخر يقول مرة أخرى :
— « صدقوه ... » .
وفي أثناء ضحكهم وسخريتهم منه ، جره أحدهم من ذراعه قائلاً :
— « تأبى إلا أن تزعجنا وقد أوشك الفجر .. خذوه إلى داره وألقوا به فيها حتّى يفيق من سكره .. » .
ودفعوا الباب ، فوجدوه مفتوحاً ، فهرول إلى الداخل ثم عاد ودفع الرجال إلى خارج بيته وهو يصيح :
— « اذهبوا إلى الجحيم .. لا أريدكم في بيتي .. إنها تنتظرني .. » ثم أغلق الباب ، وقال وهو يفرك يديه ويترنح :

– « إنها تنتظرني ... » .
ثم أخذ يصيح بأعلى صوته :
– « عبلة .. عبلة .. » .
ولما لم تجب على ندائه غمغم :
– « انها لا تجيب .. هي تكرهني ، ثم ارتمى على الأرض وأخذ ينتحب كامرأة ، وظل صوته يضعف حتى راح في سبات عميق .. وأخذ يغط غطيطاً عالياً .. » .

ولم يدر أطال به الوقت أم قصر ، عندما فتح عينيه وجد الشمس قد توسطت كبد السماء ، والضوء يغمر الوجود ، فتحسس رأسه التي ترزح تحت صداع شديد ، ثم تثاءب في كسل ونادى بصوت أجش :
– « عبلة .. عبلة .. » .

فلم يعد إليه سوى صدى صوته ، فتحامل على نفسه ، وقف ، وقصد صوب حجرتها فلم يجدها ، وذهب إلى حجرته فوجدها خاوية ، وأخذ يجوس خلال الدار الصغيرة كمجنون ، لكنه لم يعثر لها على أثر ...

وطار من رأسه كل أثر للسكر ، أين ذهبت ؟؟ أتراها قد هربت ؟؟ مستحيل .. ستجعل منه أضحوكة بين الناس ، وسيمتلىء قلب « جبير بن مطعم » غيظاً وحنقاً ، وسيشوي جسده بالسياط دون رحمة ، وهرول إلى الخارج يستفسر الجيران والمارة ، فلم يدله أحد عليها ...

ساد الشحوب وجهه ، وشعر بخنق هائل .. لو أمسك

بها لمزقها إرباً إرباً .. لماذا استسلم لضعفه ، وبسط لها رواق الحديث ولم يقس عليها منذ اللحظة الأولى ؟؟ لماذا لم يقيدها بالحبال ؟؟ ماذا يفعل الآن ؟؟

وأخذ يجوب طرقات مكة وشعابها وبيوتها باحثاً عن الفتاة دون جدوى ، وكيف تجرأت على الهروب ؟؟ آه .. إن التي لا تعبأ بالموت ، ولم تخف سيدها ، ليس مستبعداً أن تهرب ، واتجه وحشي صوب بيت مولاه جبير ، وفي الطريق لقيه ذلك اليهودي الذي أتى لمساومته مرة أخرى ، وسمعه وحشي يقول :

— « هل فكرت ؟؟ » .

— « فيم ؟؟ » .

— « قتل محمد .. » .

دفعه وحشي في صدره قائلاً :

— « إليك عني .. أنا لست مأجوراً .. » .

قال اليهودي في خبث :

— « لو كان الأمر أمر استئجار لبحثت عن غيرك ، لقد وقع الاختيار عليك لشجاعتك وبطولتك وحقدك على محمد الذي سيسفك دمك إن عاجلاً أو آجلا .. » .

قال وحشي :

— « أيها النتن .. أنت تسخر مني ، وتجعلني أداة لأطماع ملتك .. إنني أكرهكم جميعاً .. » .

وأخذ اليهودي يقذف بالقطع الذهبية إلى أعلى ثم يلتقطها في كفه وينظر إلى وحشي نظرة ذات معنى .. وسدد إليه

وحشي نظرات حاقدة قاسية وهو يقول :

— « إن قتل حمزة قد جلب عليّ شقاء لا مثيل له .. فاذهب عني » .

قال اليهودي :

— « أنت حر .. ستجد نفسك يوماً ما — وقد أحاطوا بك من كل جانب — مضطراً لحمل السيف والدفاع عن حياتك وفي هذا الوقت العصيب لن تكون نجاتك أمراً مؤكداً .. » .

وتركه وحشي ومضى في طريقه إلى بيت جبير بن مطعم » وأخذ وحشي يفكر ، كيف يشرح الأمر لجبير ؟! وبأي وجه سيستقبله مولاه القديم ؟! وعن أي شيء تتمخض هذه الكارثة المروعة ؟!

وعندما رآه سيده قادماً ، ابتسم له في ود وقال :

— « مرحباً بالفتى الهمام .. » .

طأطأ وحشي رأسه دون أن يجيب ، فاستطرد جبير :

— « هل نلت منها ما تصبو إليه يا أسير النساء ؟! » .

— « كلا ... » .

فقهقه جبير حتى كاد يستلقي على ظهره :

— « أين قوتك وبراعتك إذن يا وحشي ؟! أتستعصي عليك امرأة أياً كان لونها وطبيعتها ؟! » .

— « سيدي .. » .

أشار جبير بيده قائلاً :

— « لا تلتمس لنفسك المعاذير .. إنك ساذج ضعيف ..

إذن لا شك أنك قد أعطيتها درساً في الأدب حتى لا تفكر في عصيانك مرة أخرى ، لا يهم .. إن أمامك وقتاً طويلاً للمراوغة والتنكيل بها ، والسخرية منها .. » .

وعاد سيده يقول :

— « مالي أراك شاحباً مرتعداً يا وحشي ؟؟ » .

— « سيدي .. » .

— « ماذا جرى ؟؟ » .

— « إنها لكارثة كبرى » .

— « أية كارثة ؟؟ تكلم .. » .

— « لقد هربت .. » .

— « هربت ؟؟ » .

وبرقت عينا جبير حقداً وغيظاً ، وعض على شفته السفلى حتى كاد يدميها ، وأخذ قلبه يدق بشدة ، ويداه ترتجفان وهو يعبث بلحيته الكثة ، وصرخ :

— « أتقول هربت ؟؟ » .

— « أجل ... » .

وهب جبير واقفاً ، .. ثم جر وحشي من إحدى أذنيه ونزل برأسه حتى الأرض ، وداس على عنقه بقدمه ، وهو يصرخ :

— « تزعم أنها هربت ؟؟ وأين كنت أنت ؟؟ أتزيد من تعاستي ، وتحقيري أيها العبد الذليل ؟؟ إيتوني بالحبال والسوط.. تقول هربت أيها المأفون ؟؟ » .

وأخذ جبير يضربه في جنون . لم يكن يعي تماماً ماذا يفعل، ووحشي مستسلم للسياط الحارقة ومن آن لآخر يقول : «الرحمة يا مولاي .. لقد أدميت جسدي ووجهي .. إنني أشد تعاسة وحقداً عليها منك .. قسماً لو أمسكت بها ، لما تركتها على قيد الحياة دقيقة واحدة .. » .

ولم يكف جبير عن ضربه إلا بعد أن خارت قواه . ثم جلس إلى جواره متلاحق الأنفاس ، والدم ينزف من أماكن كثيرة في جسد وحشي ..

والتفت جبير إلى أحد رجاله وصرخ به :

— «أعدوا أربعة من كرام الخيل .. وانطلقوا صوب المدينة .. أعتقد أنها هربت لتلحق بالمسلمين هناك .. » .

— ١٩ —

اختفت « عبلة » ولم يعرف عنها أحد شيئاً ، لكأنما انشقت الأرض ، فغيبتها في باطنها ، والحقيقة أن الأمر بالنسبة للفتاة لم يكن ذا صعوبة تذكر ، فإن بالمدينة نساء مؤمنات ورجالاً مؤمنين ، الله يعلمهم ، وكان هذا أمراً معلوماً لدى أهل مكة حيث أن القرآن أكد ذلك ، وكانت عبلة تفكر في الأمر من وجهة نظر أخرى ، هل يحل لها أن تهرب من رجل يمتلكها وله حق فيها ؟؟ ولكن سرعان ما أدركت أن للقضية جانباً آخر ، وهو أن مالكها ليس منصفاً معها — دعك من كفره — فللعبودية

شروط وآداب ، ولسلطة سيدها حدود لا يصح أن يتخطاها من وجهة نظر إنسانية بحتة ، فيجب أن يكون لها عقيدتها التي تختارها ولا تبيح له أية شريعة من الشرائع أن يظلمها أو يتعنت في معاملتها ، ثم إنها قررت أن ترد إلى مالكها حقه فيها في الوقت المناسب .. وفي قلب الظلمة هرولت « عبلة » إلى بيت تعرفه ، وطرقت على الباب طرقات ناعمة ، قالت صاحبة البيت أم رابح اولدها الصغير الذي لا يتجاوز الثالثة عشرة :

— « من الذي يطرق بابنا في هذا الوقت المتأخر من الليل؟؟ »

قال الصبي وهو يفرك عينيه من أثر النعاس :

— « لعله ابن سبيل .. » .

— « ألا يأتي ابن سبيل إلا إلى بيت امرأة مات عنها زوجها وليس لها في الدنيا غير صبيها ؟ »

— « ولم لا نفتح الباب ونعرف من القادم أولا ؟؟ » .

دققت أم رابح النظر ، فوجدت امرأة متوشحة لا يكاد يبين منها شيء ، فقالت متلهفة :

— « من ؟؟ » .

— « عبلة .. » .

— « مولاة جبير بن مطعم ؟؟ » .

— « أجل يا سيدتي .. » .

قالت صاحبة البيت :

— « اسرعي بالدخول ، لا شك أن أمراً ذا بال يشغلك.. »

وأم رابح امرأة أسلمت وأخفت إسلامها شأنها شأن الكثيرات

والكثيرين ، ولم تجد الفرصة مواتية للهجرة . كانت خائفة على نفسها وعلى ولدها . لقد رأت بعينيها كيف اعتدى المشركون على زينب بنت الرسول زوجة العاصي بن الربيع أثناء هجرتها من مكة إلى المدينة ، وكيف أجهضوها دون رحمة ، لهذا آثرت التخفي . وكانت تربطها بعبلة رابطة العقيدة، تلقيا نور الهداية معاً، ولكم جمعهما مكان واحد للاستماع إلى الآيات الجديدة التي تنزل على محمد ، وإلى تعاليمه في كل ما يمس حياة المسلمين وسلوكهم .

قالت عبلة :

— « تأكدي من إغلاق الباب جيداً .. لا شك أنهم سيقلبون مكة بحثاً عني .. » .

ولمحت عبلة على وجه صاحبة البيت شيئاً من التوجس والتفكير . فقالت :

— « معذرة .. كنت مضطرة لهذا التصرف .. لقد باعني جبير لوحشي بن حرب قاتل حمزة ، ليتسلى بتعذيبي بعد أن اكتشف أمر إسلامي . إنه لشيء فوق الطاقة أن أترك نفسي للعذاب والانتقام الرهيب .. إن الحقد يعميهم . ولو بقيت في أيديهم لمزقوا جسدي إرباً إرباً .. » .

قالت أم رابح :

— « حسناً فعلت . لم يكن هناك تصرف غير هذا .. » .

قالت عبلة وكأنها تعتذر لها من تعريضها لمتاعب قد تحدث :

— « ولن أطيل البقاء عندك يا أختاه . فسأحاول اللحاق

بالمدينة في الوقت المناسب .. » .

وبعد أن شرحت لها الفتاة جميع الظروف والملابسات ، هزت أم رابح رأسها في ثقة وقالت :

— « والله خير حافظا وهو أرحم الراحمين .. » .

قالت عبلة :

— « ألا تشعرين بضيق ؟؟ » .

قالت متهللة :

— « إنني سعيدة غاية السعادة .. أشعر الآن أنني أؤدي واجباً مقدساً يثيبني الله عليه ، إن رجالنا يقتلون ويضطهدون ونساؤنا يتعرضن للويلات .. وأنا لست أقل منهن شأناً .. إن الطريق كله إيمان وتضحية وصبر وثبات .. » .

ثم التفتت إلى الصبي قائلة :

— « أي صغيري العزيز ، لا يصح أن تفتح فمك بكلمة ، إن معنى ذلك أن نفقد جميعاً حياتنا ، بل إن الكفار سوف يطفئون لهيب أحقادهم ، ويشعرون بمنتهى الارتياح إذا اكتشفوا أمرنا وظفروا بنا .. أتفهمني ؟؟ » .

قال الصبي :

— « أجل يا أماه .. إنني أدرك كل شيء .. ولن أنطق بكلمة واحدة ، ولو فعلوا بي ما فعلوا بأصحاب الأخدود .. ».

ثم استدارت إلى عبلة قائلة :

— « من فضل الله .. أن زوجي رحمه الله ، قد ترك لنا مخبأ سرياً مهجوراً في مؤخرة البيت لا يستطيع أن يستدل عليه

أحد . وترك لنا عدداً من الأغنام والدراهم تكفي لإعاشتنا لقد حللت أهلا ونزلت سهلا يا ابنتي .. » .

تنهدت عبلة في ارتياح وقالت :

– « الحمد لله .. كل شيء في سبيل الله يهون .. » .

وصمتت برهة ثم قالت :

– « لكن أمراً ما يكربني .. » .

– « ماذا ؟؟ » .

– « يجب أن يتسلم مالكي ما دفعه عند شرائي .. » .

– « أوه يا فتاتي .. إن المشركين قد ابتزوا أموال المسلمين وطاردوهم ، ومزقوا شملهم ، ودمروا تجاراتهم .. » .

قالت عبلة :

– « أعرف ذلك .. لكن الأمر يكربني .. » .

رفعت أم رابح يدها وقالت :

– « حسناً لديّ أسورة من ذهب ، وثوب حريري لم تتناوله يد البلى .. » .

– « لا أفهم .. » .

ابتسمت أم رابح :

– « وشاتان أو ثلاثة فيمكننا أن نجمع من وراء بيع ذلك كله قدراً يكفي من المال .. ثم نضع المال في صرة ، ونقذف بها إلى بيت وحشي بن حرب .. » .

قالت عبلة :

– « أريد أن أخطو هذه الخطوة الحاسمة في طريق الهداية

وأنا لست مدينة بحياتي لأحد من الكافرين .. » .

وثب الصبي وقال :

— « ونرفق بالصرة عظمة من عظام الحيوان مكتوباً عليها..

« لقد اشتريت نفسي منك » .. وسيفهم كل شيء .. » .

وضحك ثلاثتهم ، ونظرت عبلة إلى أم رابح نظرات فيها كثير من الامتنان والشكر ، ثم غمغمت :

— « وسيكون هذا ديناً عليّ أرده إليك في حينه .. » .

كل هذا والجياد تنطلق في الطريق إلى يثرب باحثة عن الفتاة الآبقة، والعيون مبثوثة في كل بيوت مكة وحاراتها ، والرسل المتخفون يتنسمون الأخبار في مدينة الرسول دون جدوى

ويصرخ وحشي كجريح آلمه جرحه أشد الإيلام :

— « سأظل أبحث عنها حتى أشرب من دمها .. وسأظل أكفر بمحمد وإله محمد .. حتى وإن آمن الناس جميعاً .. » .

ويصر جبير على أسنانه من الغيظ ويزمجر :

— « فتاة حقيرة مرغت شرفنا في الأوحال وسخرت من كبريائنا وتدابيرنا المحكمة .. » .

وتقول وصال وهي تبتسم في مرارة :

— « لو كنت مكانها لما فعلت غير ما فعلت .. أوتعتقد يا وحشي أنه من السهل على بشر أن يسلم رقبته وروحه ليد الجلاد الذي لا يرحم ؟؟ » .

وتقول هند زوجة أبي سفيان عندما علمت بالنبأ :

— « إنه لشيء مثير حقاً .. والله لئن دارت الدائرة على محمد وصحبه فلسوف ننزل العبيد والإماء منزلة دون منزلة الكلاب .. » .

وكان من حسن حظ « عبلة » ومضيفتها أن مكة قد انشغلت بحلفائها من اليهود ، واستعداداتهم لحرب محمد ، فيما يسمى بغزوة الأحزاب ، حيث اجتمعت قريش وغطفان وفزارة وأشجع وسليم واليهود وغيرهم من القبائل .

وإن نسي الجميع موقتاً أمر الفتاة الآبقة ، فإن وحشي ابن حرب لم يكن اينسى ذلك الأمر ، حتى في اللحظات التي تمتلىء فيها معدته بالخمر ، ويصاب بالسكر والهذيان ، فإن جميع أحاديثه كانت عن عبلة ومكرها وخداعها ، والطعنة القاسية التي وجهتها إلى كبريائه وآماله ...

ولم تكن لتمر ليلة واحدة دون أن يعتريه الوهم ، فيخيل إليه أنه يرى حمزة بن عبد المطلب ، وعشرات الرماح تحاصره وإلى جوارها وجه « عبلة » المؤمن الرائق ، وهو يرمقه في سخرية وازدراء ، حتى أن وحشي كاد يصاب حقيقة بالجنون..

— ٢٠ —

وانقضت فترة ليست بالقصيرة ،، جرت فيها أحداث وأحداث ، كان وحشي يرقبها بقلب واجف وعقل مضطرب ويشارك فيها على قدر استطاعته ، وحسب مزاجه النفسي ،

أخذ وحشي يرقب قريشاً وهي تحشد حشودها مع قبائل غطفان وفزارة وأشجع . وغيرهم من اليهود ، ويتابع وحشي معرفة الأحزاب التي كان يتوقع أن تضع خاتمة لحياة محمد والمسلمين والدعوة الإسلامية . لكن الأحزاب عادت دون أن تحقق كسباً ، وبقي محمد ودعوته صامدين يزدادان قوة وبأساً وأتباعاً وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، بل إن محمداً مال بقواته على يهود بني قريظة وقضى عليهم قضاء مبرما ، وقتل « حيي ابن أخطب » زعيم اليهود ، وأعدى أعداء المسلمين ، والمحرض الأول على غزوة الأحزاب ، بل إن محمداً استطاع أن يعقد مع قريش صلحاً موقتاً وهو صلح الحديبية ، ثم عاد ليؤدب بقايا اليهود في خيبر فقضى على سلطانهم فيها ، والأخطر من ذلك أنه جرد جيشاً للتصدي للروم في شمال الجزيرة ، وأرسل رسله إلى قيصر وكسرى وغيرهما من الملوك والحكام، يدعوهم للإسلام .. وفي خضم هذه الأحداث استطاعت « عبلة » أن تفر وتهاجر إلى المدينة ، بعد أن أودعت في بيت وحشي قدراً من المال هو بمثابة ثمنها ..

وكان من بين شروط صلح الحديبية أن يسمح للرسول ومن معه من المسلمين بالعمرة في العام الذي يلي الصلح ، وقد جاء اليوم المشهود .. لسوف يأتي محمد مكة حاجاً ، ويقضي فيها هو ورجاله ثلاثة أيام ، وألا يحملوا سلاحاً سوى السيوف في القرب ، وأن تترك قريش مكة خلال هذه الأيام الثلاثة ، فإذا ما أدى محمد شعائر العمرة وطاف بالبيت العتيق ، واستلم

الركن . وصلى .. عاد إلى المدينة . وعادت قريش إلى مكة ، تاركة الجبال والتلال التي اعتصمت بهما .. كان وحشي يفكر في كل ذلك تفكيراً لا يتوقف ، كيف جرى هذا كله خلال الفترة التي مرت منذ هرب عبلة حتى الآن ؟؟ إن الأمور تجري في صالح محمد . وقريش تنكمش ويضمحل سلطانها أمام زحف الدعوة الوليدة ونجاحها الغريب ، فإذا ما سارت الأمور على هذا المنوال فإن محمداً سينتصر ، ستدين له مكة والجزيرة العربية كلها . سيصبح صاحب الكلمة والسلطان ، وتنطوي رايات قريش ، ورجالات مكة .. وشعر وحشي بأسى عميق لا يستطيع مقاومته ، وجرى إلى أبي سفيان قائلاً :

— « يا سيد قريش وزعيمها الأوحد .. كيف تسمح لمحمد بدخول مكة والطواف بالبيت العتيق ؟ » .

قال أبو سفيان في ضيق لا يستطيع مداراته :

— « يعلم الله ما أعانيه من كرب يا وحشي .. لكن أنت تعلم أن البيت الحرام ملك العرب جميعاً . وقد استطاع محمد أن يؤلب علينا العرب قاطبة لأننا منعناه في العام الماضي من الحج .. ثم إن بيننا وبينه عهداً لا نستطيع نقضه .. واتفاقنا معه ينص على السماح له بزيارة البيت العتيق وتأدية الشعائر .. » .

قال وحشي وقد احتقن وجهه :

— « اضربوا بتلك العهود عرض الحائط .. إنها مسألة حياة أو موت .. » .

— « ليتنا نستطيع يا وحشي .. » .

ــ « إن محمداً قادم ــ كما علمت ــ في ألفين من رجاله ، لم لا نميل عليهم ميلة واحدة ونريح أنفسنا من هذا الأمر المزعج؟

صرخ أبو سفيان محتداً وقال :

ــ « أيها الأبله .. أنت لا تعرف الحقيقة المرة ، من هم المسلمون ؟؟ إن أولئك المهاجرين هم أبناء العم .. والناس هنا في مكة قد اشتاقوا لرؤية ذويهم المهاجرين .. والله لئن احتدمت المعركة فلسوف يفر نصف أهل مكة للحاق بمحمد وجيشه .. ».

قال وحشي وقد دق قلبه حقداً :

ــ « إنه العار يا أبا حنظلة .. » .

ــ « الناس في مكة قد ملّوا الحرب .. وكثيرون يخفون إسلامهم .. لا يصح أن نقامر بسمعتنا ومصيرنا في معركة ليست مضمونة النتائج .. » .

ــ « أنت تهول في الأمر يا أبا سفيان .. » .

ــ « إنني أدرى منك بالأمور ، وعلى الرغم من حنقي وحقدي على محمد إلا أنني قائد مسئول .. أهل مكة أمانة في عنقي .. نظامنا هنا أمانة في عنقي .. يجب أن أفكر ألف مرة قبل أن أغامر .. الدم ليس ماء .. لكنه دم يا وحشي .. » .

اقتحمت هند زوجة أبي سفيان المدخل وقالت في حدة :

ــ « كيف تسمح لقاتل ولدي وأهلي بالطواف بالبيت الحرام ؟؟ يقتلوننا ، ويعرضون بنا ، ويسخرون من ديننا .. ثم يدخلون ليهللوا ويكبروا بين أظهرنا .. الموت ولا هذا .. » .

طأطأ أبو سفيان رأسه حزيناً وقال :

— « قتلنا منهم ، وقتلوا منا .. وقريش لن تنكث بوعدها لا لأن النكث عار فحسب ، بل لأن الوفاء بالعهد في ظروف كهذه أمر تفرضه المصلحة العامة .. » .

احتدت هند قائلة :

— « هذا جُبن وخذلان .. » .

— « أنتم تفكرون كأطفال .. » .

وهمت هند بالكلام ، لكن أبو سفيان استطرد :

— « لسوف نتحمل الكرب ثلاثة أيام ، ويعود بعدها محمد وصحبه إلى المدينة .. وبعدها .. » .

قالت هند :

— « وبعدها العار والفضيحة .. » .

لم يكترث لكلامها بل قال :

— « وبعدها نتدبر أمرنا . لعلنا نصل إلى حل نهائي لهذه الأحزان والاضطرابات .. » .

أمسك وحشي بحربته . ولوح بها في جنون :

— « لسوف أنقض عليهم . وأظل أقتل فيهم حتى أقتل .. »

جذبه أبو سفيان من أذنه قائلاً :

— « سأفصل رأسك عن جسدك حينما تزمع عمل شيء يلوث شرف البيت الحرام ، والشهر الحرام ، والعهد المقدس بيننا وبين محمد .. » .

وانفلتت هند خارجة ، وتبعها وحشي خارجا إلى طريق آخر ..

ومضى وحشي ثائراً مكتئباً في شعاب مكة وطرقاتها ، إنه لا يطيق الصبر ، ولا يتحمل الصمت أو الركون إلى بيته ، بل إن الخمر لا تذهب عن باله صورة الزحف الداخل إلى مكة ترفرف عليه ألوية محمد، والمروج على « وصال » لن يخفف من بلوائه ، ليس هذا يوم خمر أو يوم عربدة .. لسوف يذهب إلى زعيم آخر من زعماء قريش وقادتها .. إلى عكرمة بن أبي جهل .. ألم يقتل المسلمون أباه يوم بدر ؟؟ وعكرمة شاب يتوقد حماسة وحتمداً ..

— « ويحك يا عكرمة .. أتطيق أن ترى قاتل أبيك يدخل مكة و يطوف بالبيت الحرام ؟؟ أين النخوة والإباء ؟؟ » .

أدار عكرمة وجهه في حيرة وحزن وهتف :

— « لن أرى أحداً .. لسوف أهرب إلى تل من التلال كي أواري أحزاني وعذابي ، حتى ينفض السامر ، ويعود محمد وصحبه إلى يثرب بعد ثلاثة أيام .. » .

— « الهروب عار يا عكرمة .. لو كان أبوك حياً لرفض هذا الخنوع .. » .

— « إننا مرغمون على تنفيذ « صلح الحديبية » يا وحشي .. إن قريشاً تخاف على تجارتها ودمها وسمعتها بين العرب .. » .

هدر وحشي :

— « هذه علل وتبريرات عقيمة ، لم لا تقولون إنكم تخافون محمداً ؟؟ إن أبا سفيان قد أقنعكم بمنطقه الهزيل ، لو كانت هند مكانه في الزعامة لصلح حال مكة ، ولشمخت

بكبريائها إلى عنان السماء ..

ثم أخذ وحشي يلف ويدور كالمسعور :

— « ماذا أرى ؟؟ أهذا هو عكرمة ؟؟ الناس في مكة يتخبطون .. إنهم ممزقون لا يجمعهم رأي ، ولا تربطهم عزيمة .. ومحمد في أوج قوته وثباته ، أتباعه يأتمرون بأمره ، وينقادون لرأيه . ونحن هنا في تيه .. أهناك مصيبة أكبر من ذلك ؟؟ » .

قال عكرمة في صوت خفيض :

— « نحن نعبر عن رأي الناس في مكة .. او خرجنا عن إرادتهم لما تبعنا أحد .. ولسخروا منا أشد السخرية .. إنهم يرفضون الحرب ، ولا يؤمنون بحرمان محمد من الحج أو العمرة .. فالبيت الحرام للعرب قاطبة .. ونحن مرغمون .. إن دخول محمد في ألفين من رجاله أمر يؤلمني ويثير في قلبي الحنق والكراهية ..

لوح وحشي بحربته كشيطان أسود :

— « اقتلوا محمداً .. أريقوا دم المسلمين .. اجعلوا عاليها سافلها .. وليكن ما يكون .. هذا أفضل من الرضوخ والاستسلام

صرخ عكرمة بن أبي جهل في ضيق :

— « اذهب عني أيها المأفون .. دعني وما أنا فيه من غم شديد .. » .

وعاد وحشي إلى الطريق العام ، الأحزان تسحق قلبه سحقاً ، وعيناه تتأرجحان في قلق وخوف ، والناس يمضون في الطرقات هادئين مبتسمين وكأن ما سيحدث لا يعنيهم في

كثير أو قليل ، تلك هي الهزيمة المرتقبة ، والكارثة أن بعضهم ينتظر الغد في لهفة ليرى قريباً له : ابناً أو أخاً أو أباً أو ابن عم .. ليسعد بمشهده .. وبعضهم يتشوق لرؤية عدوه اللدود محمد بن عبد الله .. الناس لا يدركون أعماق المأساة ، ولا خطر المستقبل الغامض ، هذا شأن العامة ، أما السادة الكبار ، فقد أصيبوا بالعقم في أفكارهم ، والجبن في إرادتهم ، إنهم يخافون نقض العهد ، ويحسبون حساب التجارة . ويقيمون اعتبارات كبرى لرغبة الدهماء من الناس ...

أين يذهب وحشي والضيق يطبق عليه من كل جانب ، وصدره ضيق حرج كأنما يصعّد في السماء ، والدنيا في عينيه سوداء قاتمة ؟؟ أين يذهب كي يجد شيئاً من العزاء والتفريج عن كربته ؟؟

وانطلق وحشي إلى « جبير بن مطعم » سيده القديم :

— « مولاي وسيدي جبير .. نذر العاصفة تلمع في أفق مكة ، ورائحة العار والغدر والخيانة أشمها من بعيد .. » .

خفض جبير رأسه ، وعبث بلحيته وقال :

— « تتحدث عن قدوم محمد لقضاء العمرة .. » .

— « أجل .. إنها نكبة كبرى .. » .

هز جبير رأسه ، وحملق بنظراته إلى بعيد قائلاً :

— « دع هذا الأمر فقد أشقانا بحثه .. » .

— « ألا تشعر بالقلق يا سيدي ؟ » .

أدار جبير إلى وحشي وجهاً شاحباً ، وعينين أمضهما

التفكير والسهر :
— لا أشعر بأدنى قلق الآن .. » .
كاد وحشي يصعق وصرخ :
— « كيف ؟؟ » .
— « عندما أتخذ قراراً يا وحشي ، ويستقر رأيي عليه أشعر بالراحة التامة .. » .
— « وما هو قرارك ؟؟ » .
— « قبول ما هو كائن .. لقد أبرمنا الاتفاق مع محمد بإرادتنا ، ووافقنا على قدومه للحج أو العمرة طبقاً للتقاليد المتبعة وبقائه هنا ثلاثة أيام ، وتأديته الشعائر أمر ميسور .. » .
قال وحشي :
— « الحرب تدوس كل التقاليد والقيم .. » .
رماه جبير بنظرة حمراء وهتف :
— « هذا منطق العبيد والأنذال .. » .
انكمش وحشي ودارت به الأرض ، لكأنما سدد جبير إلى قلبه سهماً مسموماً ، أينقض على سيده ويعتصر عنقه بيديه ؟؟ أيفقأ عينيه ؟؟ أيبصق على وجهه ؟؟ لا .. إن أعظم عقاب لهؤلاء الحمقى — حسبما يعتقد وحشي — هو أن يظلوا سادرين في جهلهم وقصر نظرهم وكسلهم حتى يأتي اليوم المشهود ، يوم أن يديل محمد سلطانهم ، ويذل كبرياءهم .. اليوم الذي تحدثت عنه « عبلة » الفتاة الساذجة ...
وانفجر وحشي باكياً وهو يقول :

– «سيكون يوماً تعساً يا سيدي .. » ..

كان جبير يلتقط أنفاسه بصعوبة ، وأثرت فيه دموع عبده القديم ، فعاد جبير يربت على كتفه في شيء من العطف السامي وهو يقول :

– «لا تبك يا وحشي .. إنني لم أعد أرهب المستقبل . إن كان محمد على حق فإن الله سينصره ، وإن كان على باطل ، فسيحفر قبره بيديه ، وينال جزاءه .. والرجال الشرفاء لا يرتعدون من المستقبل ، ولا يفزعون من الموت .. لسوف نفي بعهودنا ونبقى صامدين في مواقعنا .. فإن كانت الحرب خضناها أبطالاً .. وإن بقي العهد بيننا وبينه ، فسيبقى في مدينته حراً يفعل ما يشاء ، ونبقى نحن في مكة أحراراً ونحيى كما نهوى ، ونعتنق الدين الذي نريد .. والحق يا وحشي إن الحرب لم تحسم القضية ، لم نجن منها غير الدم والخسران والفقر ويجب أن نتوقف .. ولنلتقط أنفاسنا بضع سنوات وسينجلي الموقف في وقت قريب عن نتيجة ذلك الصراع الطويل الرهيب»

قال وحشي وهو يجفف دموعه :

– اعذرني يا سيدي .. فأنا لا أطيق الانتظار .. وأنا أكره الصبر .. انني أفضل المضي إلى الأحداث ، وأبغض أن أقف جامداً في انتظارها .. إن الذي ينتظر الأحداث حتى تأتيه يتعرض غالباً للدمار والإحاطة به .. لكن الذي ينفر إليها ويجابهها يفجؤها ويتحكم فيها ، ويفرض إرادته عليها .. » .

رمقه جبير بنظرة تقدير ، وقال :

– إنك على جانب كبير من الصواب .. لكن ليست هناك أحداث لنهرع إليها .. أنت تريدنا أن نصنع أحداثاً ثم نجري إلى ما صنعه الوهم .. » .

رفع وحشي رأسه قائلاً :

– « مجيء محمد يا سيدي ليس بريئاً .. إنه سيحقق بذلك كسباً مذهلا .. أيخفى عليك ذلك ؟؟ » .

قال جبير في شرود :

– « أعرف .. لكن العداء لمحمد بين العامة قد خفت حدته .. العداء لا بد أن يظل متقداً حتى يحرك القلوب والسيوف »

هتف وحشي :

– « انفخوا في نار الحقد .. » .

– « نفخنا حتى كادت تتقطع الأنفاس .. » .

– « الناس يريدون القدوة .. اطلقوا صيحات الثأر .. ترنموا بأراجيز القتال ، وليحشد أحدكم رجاله ويطلق النفير ، ويرفع اللواء .. الناس عاطفيون وسيهرولون إليكم من كل فج .. » .

ابتسم جبير في مرارة وقال :

– « هذه أحلام .. الناس لم ينسوا مأساة غزوة الأحزاب.. لقد احتشدت القبائل أمام الخندق الذي حفره محمد عند أبواب يثرب مدة طويلة .. لشد ما آلمهم البرد ، وأزعجهم صمود محمد والقلة الأشداء من رجاله .. كنا أكثر من اثني عشر ألفاً.. لكننا عدنا بخفي حنين .. واستأصل محمد بعدها شأفة يهود بني

قريظة ، وقتل زعيمهم حيي بن أخطب جزاء نقض العهد والخيانة .. لقد قمنا يا وحشي بجولات جبارة ، وكل مرة كنا نعد الناس بأننا سنقضي على محمد القضاء الأخير . وأننا نخوض آخر معركة ، وأن الرخاء سيعود ، والتجارة ستتفتح أمامها الأبواب من جديد إلى الشام ، ويعم السلام والأمن .. ولكن لا فائدة .. لم ننجز ما وعدنا به .. ونعود من معركة لنعد لمعركة جديدة .. تلك هي الحقيقة يا وحشي .. » .

تحامل وحشي على نفسه ، وانسل في هدوء حزين يائس وعاد إلى الطريق العام .. الطريق المقيت .. المكتظ بالبلهاء الهادئين الباسمين .. وضحك وحشي في بلاهة وهو يخاطب نفسه :

— « تنتصر عبلة وأفكارها وينهزم وحشي .. الساذجة المخدوعة تتفوق على الألمعي الحر ، الخبير بشئون الحياة ودروبها الملتوية .. أحقاً يأتي محمد ويطوف .. ثم .. يأتي مرة أخرى بعد عام .. وعامين أو ثلاثة .. وتدين له مكة .. ثم يميل برأسي في الأوحال ، ويهوى بسيفه عليها ؟؟ » .

إن رأسه يكاد ينفجر .. والخمر وحدها لا تشفي آلامه .. هناك في البؤرة العفنة عند المومس التي تبيع شبابها ولياليها ، وتغدق المتعة والسلوى لكل القاصدين .. هناك عند « وصال » قد يجد الوصال ..

استقبلته قائلة :

— « أيها الشارد طالت غيبتك .. » .

— « أنستني الأحداث وهموم الحياة أفراح قلبي .. » .

— « وهل تعرف الأفراح يا وحشي ؟؟ » .

رمقها بنظرة حزينة، وقال :

— « سيدخل محمد مكة .. ويقضي بها ثلاثة أيام يا وصال »

قالت دون اكتراث :

— « هذا نبأ قديم .. » .

— « وستخلي قريش المدينة للرجل الذي أفسد أمرها . وأزعج أمنها ، وأثار البلبلة في نواديها ومسامرها .. » .

— « وما شأننا بهذا كله ؟؟ » .

صرخ في ضيق :

— « إنه مصيرنا يا وصال » .

— « ليس هناك أسوأ مما نحن فيه .. » .

— « ألا يهمك هذا الأمر ؟؟ » .

هزت كتفيها في استهانة وقالت :

— « لسوف أصعد جبل « أبي قبيس » أو أصعد أسطح المنازل . أو أتسلق شجرة وأشهد ما يجري .. لشد ما أنا متشوقة لرؤية هذا الموكب !! الحقيقة أنني أريد أن أرى محمداً ورجاله وأرى ما يصنعون .. إنه شيء جديد يبدد ما نحن فيه من ملل وجمود .. الركود يعطي الحياة هنا طابعاً سمجاً لا أطيقه .. نفس الأحاديث والوجوه والحماقات .. » .

قال وحشي :

— « أتعتقدين أن حدثاً كذا يبدد غيوم السأم والركود ؟؟ » .

— « بالطبع .. » .
-- « وجهة نظر ساذجة .. أنت تفكرين بعقل امرأة فارغة »
— « لن أخسر شيئاً .. » .
— « بل ستخسرين مرضاك يا طبيبة الضائعين .. لئن جاء محمد فسيخسر دخلك .. » .
— « لقد مللت تجارة المتعة .. » .
— « ولم لا تقولين أنك ضقت ذرعاً بمرضاك وبالرسالة (النبيلة) التي تؤدينها ؟؟ هل تغيرت وجهة نظرك ؟؟ »
قالت في ضيق :
— « دعنا من الجد .. » .
شرد بضع لحظات ، ثم أخذ يترنم بشعر امرىء القيس :
وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله
عليّ بأنواع الهموم ليبتلي
ثم قطع ترنمه فجأة حينما قالت وصال :
— « ألا نستطيع أن نأخذ الحياة على علاتها ، ونرضى بالمقسوم ؟؟
قال وحشي وهو يهز رأسه في يأس :
— « لم استطع .. طوال حياتي وأنا أبحث عن موقف .. لا أعرف إلا الانحياز . جربت كثيراً أن أقف بين بين ففشلت .. هذا هو سر عنائي .. » .
قالت وصال :
— « لكن التزامك بموقف ما قد يبعث في قلبك الهدوء والاطمئنان .. » .

— « لم يحدث ذلك .. » .

— « يبدو أنك كنت تتخذ الجانب الخاطىء .. » .

أدار وجهه بسرعة إليها وقال :

— « الصواب هو ما أراه أنا .. ولو أجمع الناس على فساده » .

— « لذا ستظل شقياً طول حياتك .. » .

قرب وجهه منها وقال :

— « أريد أن أشرب وأشرب حتى يمتلىء جوفي بالخمر وتفيض حتى حلقي .. أتفهمين ؟! » .

قالت وهي تنهض متكاسلة :

— « والآن لنبدأ رحلة الغيبوبة والهروب .. » .

— « قبل أن يطيح سيف محمد بالآمال المتبقية لي في الخمر والنساء .. » .

وجرع الكأس الأولى دفعة واحدة ، وكذلك الثانية والثالثة ثم قال بعد فترة صمت امتدت لدقائق :

— « لو كنت المتصرف في هذا الكون لجعلت من جبير وعكرمة وأبي سفيان عبيداً ... » .

ثم أخذ يقهقه في جنون والدموع تطفر من عينيه ....

— ٢١ —

وجاء اليوم المشهود ، وجلس « وحشي » على تل مرتفع

يستطيع أن يرى من فوقه ما يجري داخل مكة ، وعند البيت الحرام خاصة ، وخرجت قريش تاركة مكة وآوت إلى مرتفعات « حراء » « وأبي قيس » وغيرهما . وجاءت اللحظة الحاسمة ها هو محمد يدخل راكباً ناقته « القصواء » ، ويأخذ بخطامها عبد الله بن رواحة . وعندما أشرقت طلعة محمد دق قلب وحشي دقاً عنيفاً ، وداخله رعب مبهم .. ووحشي برغم اضطرابه يستطيع أن يميز المهاجرين .. هؤلاء الذين تركوا ديارهم وأموالهم في مكة منذ سبع سنوات .. وانفرجت شفاه الرجال حول محمد هاتفين بصوت قوي وقد لاح البيت الحرام :

— « لبيك .. لبيك .. » .

وقال الرسول لابن رواحة :

— « مهلا يا ابن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .. » .

ودارت رأس وحشي وهو يسمع الهدير العالي ، وتضاءلت نفسه حتى شعر أنه لا شيء ... وسمع أحد المشاهدين إلى جواره يقول :

— « إن رجال محمد أقوى ما يكونون عزماً وإيماناً وبأساً .. وقد زعم الزاعمون أنهم يعانون من الضعف والسقم والجوع .. والله لن يغلب جيش فيه محمد وفيه هؤلاء الرجال .. » .

قال وحشي والعرق يسيل على وجنتيه :

— «إنه عار لايمحى .. ترون ذلتكم بأنفسكم ولا تتحركون

— « أي عار يا وحشي ؟؟ انهم يعبدون الله بطريقتهم ..

والبيت الحرام للجميع .. » .

وتوقف وحشي عن المناقشة .. ماذا يرى ؟؟ إنه لا يكاد يصدق ، هذا هو « بلال الحبشي » .. بلال يصعد الكعبة مرفوع الهامة .. الجميع يصمتون ، وينادي بلال بأعلى صوته مؤذناً : « الله أكبر الله أكبر » وصوته الندي يأخذ بمجامع القلوب .. الناس يخشعون ويرددون الأذان في صوت خفيض.. « الله أكبر الله أكبر » ... ورجال قريش وشبابها وفتيانها يستمعون للنبرات الندية وقد شجت الوجود .. وهوّم على الجميع حنان وشوق غريب .. وبلال يمضي في أذانه « أشهد ألا إله إلا الله .. » يقول ذلك وعشرات الأصنام تعلو الكعبة ، وهاج وحشي وماج :

– « هذا بلال قاتل أمية بن خلف أحد ساداتكم .. إنه يشهد ألا إله إلا الله .. ويسخر بقوله هذا من آلهتكم العديدة.. »

فلم يجبه أحد ، فصاح :

– « لم تصمتون ؟؟ » . رد عليه رجل قريشي :

– « إن ما تقوله خبر قديم معروف .. » .

– « أيها الموتى .. متى تتحركون ؟؟ » .

ودفعه الرجل في ظهره قائلاً :

– « كف عن الثرثرة .. » .

وظل وحشي مسمراً مكانه ، يسدد نظرات ثابتة إلى جموع المسلمين وهم يؤدون الشعائر في خشوع ، يتحركون في نظام وكأنهم رجل واحد . ويعبدون الله في شغف وكأن قلوبهم

معلقة بخيط لا ترى إلى ذات الله ، وعلى الوجوه بسمة لا تموت واطمئنان من نوع غريب .. وعلى الرغم من أن بلالاً أدى الأذان ، ونزل إلى صفوف المسلمين إلا أن وحشياً لم يستطع أن يمحو صورته من ذهنه ، وغمغم وحشي لنفسه : تفرقني الأحزان ، وتعتصرني الهموم ، والحيرة تمزق قلبي .. وأنت يا بلال تنهض وتمضي في كبرياء .. وكأنك سيد من السادة .. لكأنك ولدت حراً .. أنت الذي تدعو إلى الصلاة فيأتمرون بأمرك .. وتقترب من محمد فيفسح لك الطريق ، وتؤدي الصلاة خلفه مباشرة .. هل أنت سعيد يا بلال ؟؟ أم أن قيداً من نوع لا أعرفه قد قيد رجليك ، وغال يديك ؟؟ إنني لا أعرف .. لم أعد أصدق شيئاً أو أفهم شيئاً .. لكني أحسن منك حالاً .. تقول : لا ؟؟ كيف ؟؟ أنا انتزعت حريتي بيدي .. أنا قاتل حمزة ، لم يستطع أبطال مكة وفرسانها ، أن يفعلوا ما فعلت .. أنا الذي ملأت قلب محمد بالغيظ ، وأنزلت الحسرة في قلوب المسلمين ، وطوقتهم بطوق الأحزان .. أنا فاعل ذلك كله يا بلال .. » .

وكاد وحشي يصاب بالذعر حينما سمع رجلا إلى جواره يقول :

ـ « هذا هو بلال العبد الحبشي يصعد أعلى وأشرف مكان في البيت العتيق .. » .

زمجر وحشي :

ـ « أنتم الذين مكنتموه من ذلك » .

— « بل رفعه الله يا وحشي .. » .
هدر وحشي كشيطان متمرد :
— « الله لا يرفع ولا يخفض .. إن حماقتنا هي التي جعلت بلالاً يقتعد هذه المكانة المقدسة .. » .
— « خسئت يا وحشي .. » .
استدار إليه وحشي قائلاً :
— « ماذا تقول ؟؟ » .
— « إذا كان الخالق لا يخفض أو يرفع فمن يفعل ذلك؟؟ »
— « لكأني أسمع صوت مسلم .. » .
— « تخيل ما شئت .. إن الغرور والجهل قد أعمياك عن إدراك البديهيات ، أو تظن نفسك إلهاً ؟؟ ألا تسمع ما يقول المسلمون « نصر عبده » .. محمد عبد من عبيد الله .. وبلال عبد من عبيد الله .. إنهم يا وحشي الأحمق يعنون ما يقولون.. ونحن نتخبط كالمجانين .. » .
وصرخ وحشي :
— « يا معشر قريش هذا رجل يكتم إسلامه .. » .
استدارت نحوه مئات العيون ، وأخذوا يستمعون إليه وهو يروي ما حدث في حماس بالغ وما أن انتهى من قوله ، حتى انصرفوا عنه ، ولم يسمع إلا تعليق مقتضب من أحد المشاهدين يقول :
— « لا تفسد علينا متعتنا يا وحشي بالله عليك .. » .

• • •

ومرت أيام ثلاثة أدى فيها المسلمون شعائرهم ، وعاد المهاجرون يسيرون هنا وهناك ، يزورون الأماكن التي ولدوا فيها ، والبيوت التي شبوا بين جدرانها ، ويتنسموا عرف الأرض الطيبة التي درجوا عليها ردحاً من الزمان ، قبل أن يلجئهم الطغيان والأضطهاد إلى الهجرة في سبيل الله ..وفي الليل يسمرون يذكرون أيام طفولتهم ، وجميل ذكرياتهم .. كان التجمع الإسلامي الزائر يسير على نهج قويم خلال الأيام الثلاثة ، يتخلقون بأخلاق الإسلام ، فلا يسكرون ولا يعربدون يؤدون كل يوم صلواتهم ، ويقتلون غرور أنفسهم ، ويعين قويهم ضعيفهم ، ويبر غنيهم فقيرهم ، والنبي يتنقل بينهم كالأب المحب الحنون ، وقريش وسائر أهل مكة يطلون من منازلهم فوق السفوح على هذا المشهد الفذ في التاريخ ، يرون رجالا هذه أخلاقهم ، لا يشربون خمراً ، ولا يأتون معصية ، ولا يغريهم الطعام ولا الشراب ، ولا تفتنهم في الحياة فتنة .. أي أثر يترك هذا المنظر الذي سما بالإنسان إلى ما فوق أسمى مراتب الإنسان ؟؟ ووحشي إزاء هذه المشاهد ممزق ضائع ، يستهويه عظمها ، ثم يدهمه الحقد ، فينطلق ليورث الأحقاد ، ويذكر قريشاً بثاراتها ، ويشحن النفوس بالبغضاء ، لكن قريشاً لا تستجيب لشيء من ذلك ..

ورأى وحشي خالد بن الوليد يقف وحده مفكراً على تل قريب ، هرول إليه وحشي ، وحياه فلم يلتفت خالد إليه واكتفى برد موجز على التحية ...

— « يا فارس بني « مخزوم » .. ومحقق النصر على المسلمين يوم أحد .. هذا يوم لا ينسى .. ستذكره الأجيال بالحسرة والهوان .. » .

استدار إليه خالد ورماه بنظرة شزراء دون أن يتكلم :

— « اعلم أنك يا خالد — كرجل حر ذي كبرياء — يؤذيك ما يحدث اليوم .. » .

وبدرت دمعتان من عيني خالد وأخذ يردد في شرود :

— « لبيك .. لبيك .. لا شريك لك لبيك .. » .

قهقه وحشي وقال :

— « أتسخر من المسلمين ومن كلماتهم ؟! هذا لا يكفي.. اختطف سيفك واقذف بنفسك في المعمعة .. » .

ولم يكترث خالد لقوله ومضى يردد :

— « لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده .. ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .. » .

استبد الشك والخوف بوحشي . فهتف في إشفاق :

— « خالد .. ماذا جرى لك ؟! » .

انقض عليه خالد ، وأخذ بتلابيبه ، ثم هتف :

— « اسمع يا عبد السوء .. أتعرف شيئاً عن الله ؟ » .

— « أي إله ؟؟ أنا لا أعرف إلا الخيبة التي حطت علينا ، والرعب الذي يسود أشرافنا ؟؟ » .

قال خالد وعيناه تتقدان حنقاً :

— « أتعرف شيئاً عن محمد ؟؟ » .

ارتجف وحشي ، وخاف أن يبطش به خالد ، فقال بعد تفكير :

ـ « رجل حسن السمعة ، حلو الشمائل ، أمين .. » .

ـ « أمثل هذا الرجل يفتري على الله الكذب ؟؟ » .

قال وحشي وهو يرتجف :

ـ « أنا لا أنظر إلى الأمر من هذه الزاوية .. لا يهم أمر محمد كفرد .. وإنما الذي يشغلني هو الأمر الأكبر .. النظام الذي يتقوض.. القيم التي يريد تحطيمها ، التعالي بدينه ومبادئه.. ».

دفعه خالد بعيداً وقال :

ـ « أنتم تكذبون ، وتتلاعبون بالألفاظ .. » .

رماه وحشي بنظرة فاحصة خبيثة وقال :

ـ « لماذا امتشقت سيفك وحاربت محمداً طوال المعارك الماضية ؟؟ » .

ـ « لم أسأل نفسي هذا السؤال إلا الآن .. وأنا أبحث عن جواب يقنعني ، ويمدني بشيء من اليقين .. » .

ثم صرخ خالد :

ـ « اذهب عني وإلا قذفت بك إلى بطن ذلك الوادي السحيق .. » .

* * *

مرت الأيام الثلاثة .. وأخذ المسلمون يرحلون إلى يثرب. وأخذ النسوة والرجال والأطفال يتطاعون من فوق قمم التلال إلى الركب العائد . وفي مقدمته محمد على ناقته « القصواء »

والنشيد الحلو يتردد في الآفاق « لا إله إلا الله وحده ، وصدق وعده .... » .

ويرين الصمت على مكة وينحدر القرشيون من القمم قاصدين دورهم في صمت رهيب .. يكتمون الآهات ، ويخفون الدموع ...

وتمتم وحشي بينه وبين نفسه وهو يشهد هذه التطورات الخطيرة « هذا يوم له ما بعده » ...وهرول إلى وصال .. هناك الدواء والسلوى ..

وجدها تقف لدى الباب شاردة حزينة شاحبة ، قال :

— « هيا بنا » .

— « إلى أين ؟! » .

— « لنشرب .. لنغرق الأحزان في طوفان المتعة والكأس »

قالت وعيناها محملقتان :

— « لن أبيع .. » .

— «لا أفهمك .. » .

— « حطمت الكؤوس ، وأحرقت الفراش الملوث .. » .

— « وصال .. هل جننت ؟! » .

— « اذهب عني .. » .

— «لم يبق لي إلاك »

قالت :

— « مللت العذاب .. » .

— « أنا أيضاً .. » .

— والنفاق ... » .

— « ... ... » .

— « أريد أن أغتسل من هذه الآثام والمبادىء العقيمة .. »

أكفهر وجهه وصاح فجأة :

— « أيتها المومس الرخيصة .. » .

اشتد شحوب وجهها وقالت :

— « سامحك الله .. كان في إمكاني أن أرد عليك بنفس الطريقة .. » .

ودفعها إلى الداخل وهو يقول :

— « إنني استطيع أن أرغمك على أي شيء أو أسحقك تحت قدمي هاتين .. » .

— « لا تستطيع .. » .

دارت رأسه ، تذكر عبلة والعناد والكبرياء الملعونة .. نفس القصة تتكرر ، هذا الزمان قد فسد فيه كل شيء ، لا بد وأن زلزالاً عنيفاً سينفجر ويجعل عاليها سافلها .

قال وهو يمسك بمعصمها بقوة :

— « أتميلين إلى الإسلام ؟؟ » .

ضحكت في مرارة وقالت :

— « لن يكون لديك فرصة للوشاية بي كما صنعت بعبلة » .

— لا أفهم .. » .

قالت :

— « من أبسط حقوقي أن تتركني وشأني .. أريد أن أخلو

إلى نفسي .. هل تحرمني هذا الحق ؟؟ إن إصرارك معناه مضايقتي وسيكون سهرنا مملا متوتراً .. كن عاقلا يا وحشي ودعني الليلة .. سنلتقي في الليلة القادمة .. » .

قال وقد هدأت اضطراباته :

— « وكيف أصبر ؟؟ أنت تعرفين » .

— « تعلّم . . لقد صبرت السنين الطويلة تحت سياط العبودية والقهر .. » .

— « آه .. لقد استنفدت تلك الليالي كل رصيدي من الصبر ... » .

ثم سادت فترة صمت قال بعدها :

— «يا وصال..لا أريد كأساًولا متعةمن نوع رخيص..أريد إنساناً يجلس معي..أشعر معه بالمؤانسة والعزاء..أنا كالغريق...».

رفعت رأسها في أسى وقالت :

— « مسكين أنت يا وحشي .. أنت ككل الضائعين لا تعرفون من الحياة .. إلا الأكل والشراب والمتعة الرخيصة دعني اليوم ... »

ولما وجدها على هذه الحال وكان أن مر بعض المارة واعدها في الليلة التالية ورجع أدراجه مطأطىء الرأس.

* * *

في الليلة التالية عاد وحشي إلى وصال .. دق الباب ... كان البيت خاوياً تصفر في جنباته الريح . وتمتمت امرأة عجوز تجر ساقيها جرّاً ، كانت تمر في تلك الساعة :

— « عد من حيث شئت .. » .

— « لماذا ؟؟ » .

— « لقد رحلت إلى حيث لا يعلم أحد .. » .

وخذلته ساقه فارتمى على عتبة الباب ... والدموع تتساقط من عينيه .

— ٢٢ —

قضى « خالد بن الوليد » قائد فرسان قريش . وبطلها العظيم ، ليالي وأياماً وهو نهب للأرق والحيرة الممضّة . أفكاره تجوب مكة وأحداثها ، وتنطلق إلى يثرب ترقب ما يحدث فيها ، أجل ... كان يلقي نظرة شاملة على كل ما حوله . ثم يستعيد الأيام الخوالي بذكرياتها .. هو يذكر يوم « أحد » .. تلك المعركة الهائلة التي كادت تدور الدائرة فيها على قريش . ويذكر كيف قام بحركة الالتفاف البارعة بعد أن انصرف رماة النبل من المسلمين عن مواقعهم .. فحقق خالد بذلك أعظم نصر تغنى به المشركون ، وأنقذ جيوشهم من فناء محقق .. وقريش تحفظ له هذه المكرمة ، ومن يومها وهو ذو مكانة عليا بينهم ، وذو تقدير خاص يرضى كبرياءه . ويشبع غروره .. وخالد يذكر ما حدث يوم الأحزاب .. ويذكر العام الفائت قبيل عقد « صلح الحديبية » بين محمد وقريش .. كان يقود عدداً من الفرسان . ويريد حرمان محمد ورجاله من زيارة البيت الحرام .. ومحمد كان قد خرج حاجاً لا محارباً .. ولهذا رفض الرسول الالتحام بقريش . وتجنب طريقهم ..

وتمتم خالد بينه وبين نفسه : « لماذا أخدع نفسي ؟؟ لم

أكن أحارب من أجل مبدأ .. أجل كنت أمارس هواية الحرب وأجرب براعتي وأبتكر .. فلا أجني سوى متعة الهواية ، وطرافة التجربة .. وأي مبدأ كنت أدافع عنه ؟؟ لم يكن لقريش دين واضح مقنع .. ولم يكن لدى كبرائها صورة معينة عن المستقبل والحياة والله وعلاقات البشر .. اللهم إلا تلك الصورة العتيقة الجامدة .. لقد ذابت شخصيتي في خضم التصور الأحمق الذي يصنعه رجالات مكة وأعلامها .. الكلمات الجوفاء الطنانة تطغى على كل شيء . ولا تحدد أمراً . أو تعطي مفهوماً مقنعاً واضحاً .. لكني لا أستطيع أن أقارن بين ما يجري في مكة وما جرى بالأمس القريب عندما قدم المسلمون زائرين ومعظمين للبيت الحرام .. القادمون من يثرب كتلة واحدة متماسكة ، قد تجمعوا حول كلمات واضحة قوية قد شكلت نفوسهم وسلوكهم .. يتصرفون عن بصيرة ويقين ، ويتحدثون عن إيمان وثقة .. يظلهم جو رائع .. إن قلبي يهفو لهذا المشهد العظيم ونحن — قريش — كنا نقتعد قمم التلال وفروع الأشجار نبحث في هذا التجمع الإسلامي الفريد عن أنفسنا .. عن مبادئنا عن الصورة التي نحلم بها .. عندئذ تضاءلت نفسي .. صغرت أمام عيني الانتصارات التي حققتها . والبطولات التي يتحدث عنها الناس .. سمعت محمداً يتكلم .. واأسفاه لماذا لم أسبق إلى صحبته منذ زمن بعيد ؟؟ وسمعت أبا سفيان يتكلم فألم بي الضيق والغثيان .. ما أبشع الفارق بين « الله أكبر » و « أعل هبل » إنني لأشعر الآن بالخزي والعار ومرارة الذكريات .. » .

لم يعد خالد يطيق الصبر . إن عقله يفور ويغلي ، وقلبه يضرب ويضج . وروحه تتشوق إلى أشياء تتسلط عليها . لا يستطيع منها فكاكاً .. وخرج خالد إلى الشارع يتنفس الهواء.. ويرقب الحركة الموارة .. كل شيء يمضي في مكة بارداً سقيماً.. لا حرارة ولا حيوية ولا حماسة والتلال المحيطة بها تقبع تحت وهج الشمس والصمت والغباء .. الناس يعرفون الحقيقة ، لكن الخوف يلجمهم . فيمضون في الطريق وكأنهم لا يبالون بشيء .. هو يعرف أن في نفوسهم زلازل وعواصف.. لم يكن خالد ليصدق أن هؤلاء الناس يمكن أن يهرعوا من جديد إلى معركة .. إلى حرب مع محمد .. انه قائد متمرس محنك .. ينظر إلى العيون . ويتسمع إلى الهمسات والتعليقات العابرة ، فيأتيه الانطباع الصادق عن الشعور العام .. الآن يؤمن خالد أن محمداً قد انتصر .. أجل .. انتصر على الرغم من أنه لم يزل مهاجراً في يثرب ، وعلى الرغم من أن مكة لم تزل تحت سلطان قريش وسطوتها .. إنه يرى على الوجوه سخطاً وتبرماً ، وبالأمس كانت الإشراقة الحلوة تلون الوجوه التي تتطلع من أعالي التلال إلى موكب المؤمنين وهم يرددون « لبيك .. لبيك .. » أجل .. لو لم يأت محمد غازياً إلى مكة .. لهرول إليه الألوف من سكانها يشهدون ألا إله إلا الله وأنه رسول الله ، ويبايعونه على المنشط والمكره كما فعل الأنصار من قبل .. آه .. لئن بقي قادة قريش سادرين في غيهم ولهوهم لصدمتهم الحقيقة المرة ، ولأفاقوا ذات يوم فوجدوا عامة الناس وقد انصرفوا عنهم ، وبقوا هم

وحدهم أذلاء ضائعين وحيدين .. إنها العزلة القاتلة التي يقاسي منها القادة حينما يصرفهم العمى العقلي ، والغرور الأجوف عن إدراك الحقيقة ..

وفي الطريق رأى خالد « وحشي بن حرب » وهو يتطوح من السكر ويقهقه في جنون :

— « هل سمعتم الخبر ؟؟ أسلمت « وصال » .. الداعرات يؤمن بمحمد .. أسلمت « وصال » ، وهجرت الديار .. وبقيت وحدي ألوك الأسى والأحزان .. » .

وتجمع حول وحشي عدد من المارة يمرحون ويسخرون ويتسلون .. وقال أحد الساخرين :

— « لقد عشقت محمداً فشدت إليه الرحال .. » .

التفت إليه وحشي في بلاهة لشدة ما به من سكر وقال :

— « إنها عربيدة .. » .

— « الإيمان يَجُبُّ ما قبله يا وحشي ويمحو خطايا الماضي »

لوح وحشي بسبابته معترضاً وقال :

— « لا .. لا .. إن خطاياها من النوع الذي لا يمحى .. وعندما يراها محمد فسيجلدها مائة جلدة .. بل ألف ألف جلدة »

واستطرد وحشي وهو يترنح ويبكي :

— « قلت لها لا تتركيني يا « وصال » كما تركتني «عبلة» كوني إلى جواري يا وصال .. فأنا المعذب الحزين .. وأنت صاحبة الفضيلة .. أنت السلوى و الحنان والبلسم الشافي .. » .

صاح أحدهم ساخراً :

– « أيها الداعر الرعديد .. » .

– « لم يكن لي في هذه الديار صديق إلا وصال وحربتي »

رد أحدهم مازحاً :

– « يكفيك حربتك .. » .

صاح في حدة :

– « لا .. إن حربتي قد أقتل بها أعدائي من البشر .. لكنها لا تنفع في قتل التعاسة والأحزان .. أنا قوي قادر .. لكني حزين .. لم يهزمني إلا الحزن أيها الناس .. آه .. لو كان الحزن رجلا لقتلته كما قتلت حمزة بن عبد المطلب .. آه .. ها هو حمزة .. إنني أراه .. أطفئوا ابتسامته .. إنني أكرهها.. السيوف تحاصرني من كل جانب .. أبعدوا شبح حمزة عني .. أتضحكون أيها الحمقى ؟؟ واكرباه .. لا أحد ينهض لنجدتي ..

ثم أخذ يجري ويتخبط هنا وهناك . ويدفع هذا . ويجذب ذاك . حتى انهارت قواه . فارتمى على الأرض ككلب جريح يعوي .. وسمع الواقفون صوت خالد يدوي كالرعد :

– « أيها الناس .. إليّ .. أيها الناس .. » .

فهرولوا نحوه . تاركين وحشي ملقى وحده على قارعة الطريق . وساد الصمت برهة . وخالد يشمخ وسطهم بهامته المديدة . ووجهه المحتقن . ولحيته المرتجفة ..

وقال خالد بصوت ثابت قوي النبرات :

– « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر .. ولا شاعر .. وأن كلامه من كلام رب العالمين . فحق على

كل ذي لب أن يتبعه .. » .

وكان عكرمة بن أبي جهل ، صديق خالد الحميم ، وأحد قادة قريش البارزين قادماً عن كثب ، فسمع ما قاله خالد ، فاقترب منه وقال :

– « لقد صبوت يا خالد .. » .

– « لم أصبو ولكني أسلمت يا عكرمة .. » .

– « والله ان كان أحق قريش ألا يتكلم بهذا الكلام لأنت »

قال خالد في دهشة :

– « لم ؟! » .

– « لأن محمداً وضع شرف أبيك حين جرح . وقتل عمك وابن عمك ببدر ، فوالله ما كنت لاسلم ولأتكلم بكلامك يا خالد .. أما رأيت قريشاً يريدون قتاله ؟! » .

زمجر خالد :

– « هذا أمر الجاهلية وحميتها ، لكني والله أسلمت حين تبين لي الحق .. » .

كان وحشي السكران يسمع ولا يكاد يصدق . هز رأسه مرات . وفتح عينيه جيداً ، ثم أخذ يحبو صوب الجميع ، وتمتم في ارتجاف :

– « ماذا يقول خالد ؟! » .

جاءه صوت يقول :

– « أسلم ابن الوليد وتبع محمداً على دينه .. » .

صاح وحشي برغم ثقل لسانه :

ـ « لقد فعل ما فعلته عبلة ووصال .. » .

ثم احتد قائلاً :

ـ « إن كان صادقاً في قوله فاقتلوه قبل أن يشيع أمره . »

فركله أحدهم بقدمه قائلاً :

ـ « ثكلتك أمك .. ألديك رأي يقال أيها العربيد الأحمق »

ـ « أنا ؟؟ أنا قاتل حمزة .. » .

ـ « لم يعد ذلك ميزة ترفعك . بل صار وزراً وعاراً يمرغك في الأوحال أبد الآبدين .. » .

قال وحشي في بلاهة :

ـ « وزراً وعاراً ؟؟ » .

وحدثت ضجة . واحتدم جدل صاخب . وخالد يشرح وجهة نظره . وفي خلال ذلك . أتى رسول من أبي سفيان يطلب خالداً على عجل . فانطلق خالد بهامته المديدة صوب بيت زعيم مكة الأكبر . وكان أبو سفيان يقف في انتظاره مضطرب الأنفاس . وعندما وقعت عيناه عليه قال :

ـ « أحقاً ما بلغني عنك يا خالد ؟؟ » .

ـ « أجل .. » .

استبد بأبي سفيان الغضب وقال :

ـ « واللات والعزى لو أعلم . إن الذي تقول حق لبدأت بك قبل محمد .. » .

قال خالد :

ـ « فوالله إنه لحق على رغم من رغم !! » .

فاندفع أبو سفيان في غضبه نحوه ، فحجزه عنه عكرمة الذي قال :

— « مهلاً يا أبا سفيان .. فوالله لقد خفت للذي خفت ، أن أقول مثل ما قال خالد . وأكون على دينه .. أنتم تقتلون خالداً على رأي رآه ، وقريش كلها تبايعت عليه ... والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يتبعه أهل مكة كلهم .. »

أطرق أبو سفيان .. ثم عاد منصرفاً إلى داخل الدار ، كل الذي أقامه وبناه وأقام من نفسه حارساً عليه ينهار .. يتحول إلى أنقاض .. ومحمد يجلس الآن في يثرب ، يقرأ القرآن ، ويدعو إلى الله ، ويضع القواعد والقوانين ، وينظم ملكاً لبني هاشم .. إن أبا سفيان لا يطيق التفكير في مثل هذه الأمور .. محمد في يثرب ينتصر ويقوى دون أن يتحرك من مكانه .. ومكة هنا تحتدم بالجدل والثورة والتمزق والوهن ... الخيبة تتجلى لأبي سفيان بوجهها البشع .. وعكرمة بن أبي جهل يعود إلى بيته حزيناً كئيبا .. وبرغم دفاعه عن خالد . وإدراكه لما يجري من أحداث في مكة ، برغم ذلك فقد بقي مصراً على كفره لا اعتقاداً فيما يؤمن به ، ولكن كبرياء وحقداً ..

ووحشي ملقى على جانب الطريق يهذي كمحموم :

— « أسلمت عبلة .. وتابعتها وصال .. ومن خلفهما سار خالد بن الوليد .. » .

ثم صاح بأعلى صوته الجريح :

— « يا ابن الوليد .. إن بلغت « يثرب »فأقرىء عبلة

ووصال السلام .. وقل لهما لم تركاني وحيداً أتعذب .. والعنهما لعناً كبيراً .. » .

ثم أجهش بالبكاء ...

— ٢٣ —

هرول وحشي إلى « عكرمة بن أبي جهل » .. لقد انفض السامر من حول وحشي ، ولم يعد له سوى عكرمة ، يجالسه ويجاذبه أطراف الأحاديث طوال الشهور الفائتة ، لقد اشتدت كراهية وحشي للناس ، إنهم يسخرون منه ، ويضحكون على تصوراته كلما أكثر من الشراب وغاب عقله ، وارتمى على جانب الطريق ، وتزداد سخريتهم كلما رأوه خائفاً مذعوراً عندما يتوهم أن شبح حمزة بن عبد المطلب يطارده .. ولعل ما جمع بين وحشي وعكرمة هو الحقد المقدس الذي يكنانه لمحمد ودعوته ، ودمهما الذي أهدره محمد ...

ووحشي يهرول إلى عكرمة اليوم وهو في أوج سعادته ونشوته ، إنه يحمل إليه أنباء سارة سوف تثلج قلبه ، وتنعش أمله . وعندما التقى الصديقان ، لوح وحشي بيده من بعيد وصاح :

— « جئتك بأعظم الأنباء . » .

— « تعطل السيف يا وحشي ، ولم يعد لدينا سوى الكلام »

— « كنت أرعى الإبل والشاة ، وجدت رهطاً قادمين

من مكة يحملون أنباء هامة .. أنتم تعلمون أن محمداً قد جرد حملة لحرب الرومان في الشام ... تصوروا .. ثلاثة آلاف من المسلمين ذهبوا ليحاربوا مائة ألف من الروم في « مؤتة » هل هذا شيء يصدقه عقل ؟؟ » .

قال عكرمة وقد بدا الاهتمام على وجهه :

– « أوجز الخبر . ثم فصله بعد ذلك .. » .

– « قتل الرومان قائد الجيش زيد بن حارثة . ثم قتلوا القائد الذي يليه جعفر بن أبي طالب . ومن بعده القائد عبدالله ابن رواحة ، ثم تولى القيادة خالد بن الوليد .. ذلك الصابيء .. » .

قال عكرمة وقلبه يدق :

– « هل قتل هو الآخر ؟؟ » .

– « ليت الأمر كان كذلك .. » .

– « ماذا جرى ؟؟ » .

– « حاول إنقاذ بقية المسلمين . وفر هارباً إلى يثرب ... وأهل يثرب يحثون في وجوههم التراب ويقولون لهم يا فُرّار .. »

أشرق وجه عكرمة وقال :

– « إنها ضربة في الصميم .. لقد توهمتم أن محمداً أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يخضع العرب جميعاً .. » .

وهنا دخل رجل من قبائل بني بكر وهم حلفاء قريش فأسرع يقول :

– « لكنكم نسيتم أن عديداً من القبائل تفد إلى يثرب وتعلن إسلامها . ومحمد يتسع نفوذه ويستشري سلطانه .. » .

قال وحشي :

ـ « ولهذا أقول أن هذا هو أنسب الأوقات لضرب محمد وإلا ضاعت الفرصة إلى الأبد .. » .

والتفت عكرمة إلى رجل بني بكر وقال :

ـ « وهذه أيضاً فرصتكم يابني بكر لضرب « خزاعة » والأخذ بثأركم منهم .. » .

وكانت خزاعة ـ أعداء بني بكر ـ قد دخلوا في حلف محمد وعهده ، عند إبرام صلح « الحديبية » ودخلت بنو بكر في حلف قريش وعهدهم . وكان بين خزاعة وبني بكر ثارات وأحقاد قديمة لم تنطفىء جذوتها إلا بعد هذا الحلف ...

واستطرد عكرمة قائلا :

ـ « ولن يستطيع محمد أن يخف لنجدة حلفائه من خزاعة وهو مبدد القوى ، مهزوم من الرومان .. وبذلك يفر حلفاؤه من حوله ، ويفقدون الثقة في عهوده واتفاقياته .. » .

قال رجل من بني بكر :

ـ « نريد سلاحاً ومالاً .. » .

ـ « سنمدكم بما تحتاجون إليه .. » .

وانتشرت أنباء معركة « مؤتة » في أرجاء مكة ، فطرب لها الأعداء ، وحزن المسلمون الأخفياء ، أما أبو سفيان فقد كان له رأي آخر ، إذ قال لعكرمة وغيره من شباب مكة المتحمسين :

ـ « إن عودة خالد بجيشه سالماً من مؤته لهو عين العقل

والبراعة ، إنه انتصار لا تدركه عقولكم ... أتدرون ماذا حدث بعد انسحاب المسلمين ؟؟ لقد سارعت القبائل العربية الشمال وفي جنوب الشام باعتناق الإسلام ، ودخل أغلب هذه القبائل في حلف محمد ، وأعلنوا العداء على الروم .. ماذا كان يريد محمد غير ذلك ؟؟ هل تتصورون أنه كان فعلا ينوي تحطيم إمبراطورية الرومان ؟؟ لا أظن الأمر كذلك .. » .

ثار الشباب في وجه أبي سفيان ، ورموه بالوهن والضعف وسيطرة الوهم على عقله ، وحاولوا إفهامه أن محمداً وجيشه في أضعف حالاتهما ، وأن الفرصة مواتية لضرب المسلمين وحلفائهم .. وضاعت صيحات أبي سفيان وتحذيراته في خضم ثورة الحمقى من شباب مكة ، فعاد إلى داره مهموماً حزيناً .

قالت زوجه هند :

— « ويحك !! أراك تغرق في مخاوفك أكثر مما ينبغي .. إن المسلمين أذل وأضعف مما تتصور ، ولو كانوا على جانب من الروية والتفكير لما تصدوا للروم .. » .

لوح بيده محتداً :

— « إن المسلمين لم يخسروا شيئاً يذكر يا امرأة .. لقد حققوا مكاسب كبرى ، إن محمداً يقيس الأمور بمقياس دقيق.. وكيف لا نخاف بأس رجل يتصدى لامبراطورية الروم ، ويعلم جنوده التنافس على لقاء الشهادة ، والاستباق إلى الموت؟؟ »

قالت هند محتدة أيضاً :

— « وعلى أي شيء نخاف ؟؟ ألم يهدر محمد دمي ؟؟ إذا

كانت النهاية هي الموت . فلم لا نموت في ساحة المعركة .. إن هذه المخاوف ستجعل محمداً ينال النصر عليكم لقمةً سائغةً دون مشقة .. » .

قال أبو سفيان في روية :

ــ « إن إهدار دم بضعة نفر لا يجعلنا نخاطر بأمن مكة كلها .. » .

ــ « ألا يهمك أمري لهذه الدرجة ؟؟ » .

ــ « لا أقصد ذلك يا هند .. إن الأمور تسوء .. ومحمد أصبح عدواً ذا خطر كبير ، وآلاف الرجال قد أسلموا قيادهم له ، وأرى أن الأمر يحتاج إلى روية وتعقل . وشباب قريش بتصرفاتهم قد يعجلون بالكارثة .. » .

قالت هند مؤنبة :

ــ « ألهذه الدرجة ترتعد فرائصك من قوة المسلمين وأنت الذي أذقتهم الذل والهوان ومرارة الهزيمة يوم « أُحد » ؟؟ » .

أدار وجهه بعيداً عنها وقال :

ــ « دعي هذا الأمر .. إن « أُحداً » لم تزد محمد إلا إصراراً وبأساً .. لقد استفاد منها ــ برغم هزيمته ــ أكثر مما استفدنا .. وكل ذي لب يستطيع الآن أن يدرك ذلك .. » .

ودق باب أبي سفيان فجأة ، وسمع أبو سفيان رجلاً يهتف بأعلى صوته :

ــ « يا أبا سفيان .. يا أبا سفيان .. العهد .. العهد .. »

هرول أبو سفيان ومن خلفه هند صوب الباب ، فوجد

رجلاً عاري الرأس ، قد علق الغبار بشعر رأسه ولحيته وأهدابه

– « ماذا جرى ؟؟ » .

قال الرجل :

– « أنا شيخ من خزاعة لقد غدر بنا بنو بكر ، داهمونا عند ماء لنا ، وهم يصيحون صيحة الحرب والثأر .. أخذونا على غرة ، وقتلوا منا خلقاً كثيراً .. » .

قال أبو سفيان :

– « كيف ؟؟ » .

صاح الرجل محتجاً :

– ألا تدري كيف؟؟لقد زودتم بني بكر بالمال وبالسلاح.

شحب وجه أبي سفيان وتمتم :

– « إنها الكارثة .. » .

قال الخزاعي :

– « لقد نقضتم عهد « الحديبية » ، وغدرتم بمحمدوحلفائه وليس هذا من شيمة العرب .. فوالله لن نسكت عن دمنا ولو ضحينا بآخر رجل من رجالنا .. » .

قالت هند بصوت خفيض يسمعه أبو سفيان ولا يسمعه الخزاعي :

– « ها هي الأحداث ترغمك على مواجهة محمد ، وتجرك جرّاً إلى المعركة .. الأحداث أقوى وأعقل منك .. » .

هز أبو سفيان رأسه في حسرة وقال :

– « إنها لبداية الخراب والدمار .. » .

وانفلت أبو سفيان إلى الشارع وهو ينادي :

ــ « يا أهل مكة .. إن دم خزاعة حرام حرام .. وما فعلته بكر نقض صريح لعهد « الحديبية » وأنا أبرأ منه .. فلتوضع السيوف في أغمادها حتى نبحث الأمر .. يا أهل مكة »

ومضى أبو سفيان في الطريق العام يدعو لوقف الصدام ، واللجوء إلى العقل والروية ، ويحذر الناس من مغبة ذلك الفعل الفاضح الذي ارتكبه حلفاؤه من بني بكر ..

* * * *

كان عكرمة وصحبه أثناء الليل يتقارعون الكؤوس ، ويجرعون الشراب ، وكان بينهم وحشي بن حرب ، وقال عكرمة :

ــ « كان أبو سفيان مثاراً للضحك وهو ينادي في شوارع مكة بالأمس .. إن الروية الزائدة لهي الجبن والخوف .. » .

قال وحشي بن حرب :

ــ « هذا نفس ما كنت أقوله ، وما زلت أردده وأؤمن به »

تمتم عكرمة :

ألا هُبّي بصحنك وأصبحينا
ولا تبقي خمور الأندرينا

قال وحشي ورأسه يدور :

ــ « لكننا لم نزل في السماء .. » .

رد عكرمة « سنبقى لنحتفل بانتصار بني بكر حتى الصباح »

ودخلت جارية رشيقة ، وأخذت ترقص ، على نغمات

الناي وضربات الأكف ، وخليط من القهقهات والتعليقات يغطي على الأنغام ، ثم وثب وحشي وقد لعبت الخمر برأسه وأخذ يرافق الراقصه ، ويتمايل مخموراً في مشهد بشع ، وإن اجتلب مزيداً من الضحك والفكاهات ..

أما شيوخ مكة وذوي الرأي فيها ، فقد باتوا ليالي يفكرون أن خزاعة لا شك سوف ترسل رسلها إلى محمد لتستنجد به ، وفاء بعهده ، وتنفيذاً لشروط « صلح الحديبية » ، ومحمد سيجد نفسه مضطراً للوفاء بعهده مهما كلفه ذلك من ثمن ، ولهذا أجمع رجالات مكة على أن يوفدوا أبا سفيان إلى يثرب لمقابلة محمد والتفاهم معه بشأن حادثة خزاعة ، ولكي يطلب منه أن يطيل أمد حلف الحديبية ، إلى عشر سنوات بدلا من سنتين ...

وجهز أبو سفيان رحله ، وركب ناقته ، وانطلق إلى يثرب وفي الطريق الطويل كان يفكر ، ها هو يمضي خاضعاً إلى محمد ، يطلب الأمان والسلام ، أهكذا تجري الأيام ؟؟ أأصبح محمد المهاجر المضطهد الغريب رجلا بيده مقاليد أمور العرب وأمنهم وسلامهم ؟؟ وكيف يلقى أبو سفيان عدوه الكبير ؟؟ وكيف يتقابل مع عمر وأبي بكر وغيرهم ممن أذاقهم الهوان في الماضي ، ونال من حريتهم وكبريائهم ، وجرد لهم الجيوش وحاربهم أعنف حرب وأشدها ؟؟

إن هذه السفارة لمليئة بالذلة والهوان ، لكن أبا سفيان على استعداد لأن يصبر ويتحمل حتى يحمي نظام مكة ، ويحفظ

حريتها ودينها وسلطانها .. ليست العبرة بما يفعله الآن ، لكن العبرة بالنتائج ، وهو على استعداد لأن يفعل أي شيء يوصله إلى الغاية التي يتطلع إليها ، وليقل عكرمة وغيره من شباب مكة ما يقولون .. هؤلاء الحمقى لا يعرفون أبعاد النكبة التي سيتعرضون لها وتتعرض لها مكة من جراء اندفاعهم وتهورهم.. وهل نسي أبو سفيان أن ابنته « أم حبيبة » زوجة لمحمد ، وأنها لا شك ستساعده على إنجاح مهمته ، وبلوغ غايته ؟؟

وبلغ أبو سفيان يثرب أو مدينة الرسول كما يطلقون عليها آنذاك .. استقبلته ابنته « أم حبيبة » استقبالاً يشوبه التحفظ ، ونظر أبو سفيان فوجد فراش الرسول ، فعول على الجلوس عليه ، وكم كانت دهشته عندما طوت ابنته الفراش عنه ، فقال :

– « أطويت الفراش رغبة بي عنه ، أم رغبة بالفراش عني »

قالت في إصرار :

– « هو فراش رسول الله ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه .. » .

كاد أبو سفيان يصعق من شدة الذهول ، فقال مغضباً :

– « والله لقد أصابك يا بنية بعدي شر ؟؟ » .

وانتزع أبو سفيان نفسه من البيت ضائق النفس ، جريح الكبرياء ، إن ابنته تسخر منه ومن دينه ،وتلقنه درساً قاسياً في الإباء والاعتزاز بالعقيدة ، العقيدة التي هي أغلى من الحياة والقرابة .. وقبل أن يمضي سألها :

ـ « هل أمرك محمد بذلك ؟؟ » .

قالت :

ـ « لم يأمرني به .. لكني أعرف ما يجب عمله ، وأتصرف بالطريقة التي تناسب قوماً يغدرون ويظلمون .. » .

ومضى أبو سفيان في طريقه يسأل عن محمد ، حتى إذا ما بلغه ، تطلع إلى وجهه المشرق ، وعينيه الصافيتين ، فأخذته الهيبة ، وارتجفت أوصاله . تجمعت في عقله آنذاك كل الذكريات القاسية ، وشعر بحرج بالغ ، وتضاؤل مؤلم ، لكنه ابتلع ريقه وقال :

ـ « جئت أعتذر عما بدر من بني بكر ، وأؤكد استمساكنا بالعهد ، وأطلب مده .. » .

أطرق الرسول ولم يجب بشيء ، وحاول أبو سفيان جاهداً أن يحصل على موافقة الرسول دون جدوى ، فذهب إلى أبي بكر وكلمه كي يتوسط لدى الرسول فأبى ، ثم ذهب إلى عمر بن الخطاب ، لكن عمر أغلظ له في القول وقال :

ـ « أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟؟ فوالله لو لم أجد إلا الذر لجاهدتكم به .. » .

فتركه أبو سفيان إلى علي بن أبي طالب ومعه فاطمة بنت الرسول ، وعرض عليهما الأمر ، وطلب منهما أن يجيراه ويستشفعا له عند الرسول ، فتبين له كيف أن الأمر أصعب وأعقد مما يتصور ، ثم قال علي :

ـ « والله ما أعلم شيئاً يغني عنك .. لكنك ـ يا أبا سفيان ـ

سيد بني كنانة ، فقم فأجر بين الناس ثم إلحق بأرضك ، وما أظن ذلك مغنياً ، ولكني لا أجد لك غيره .. » .

فذهب أبو سفيان إلى المسجد ، وهناك أعلن أنه أجار بين الناس ، ثم ركب راحلته وانطلق ذاهباً إلى مكة وقلبه يفيض أسى مما لقي من هوان على يد ابنته ، وعلى يد أولئك الذين كانوا قبل هجرتهم من مكة ، يرتجون منه نظرة عطف أو رضى ..

طريق العودة مظلم طويل ، يغص بالأحزان والآلام ، وأبو سفيان يمضي لاهث الأنفاس ، شارد النظرات ، مرهف السمع ، يبحث في زوايا مخه ومنحنياته عن أمل .. ماذا يقول لقريش وقد فشلت سفارته ، وضاع الأمل فيه ؟؟ أيتخلى عن قيادته للناس ، ويتركهم لمصيرهم المزعج ؟؟ أيدعو المكيين لحمل السلاح وخوض حرب أخيرة ضد محمد وليكن ما يكون؟ إنه لا يدري ماذا يفعل ، لم يعد قادراً على أن يحسم أمراً أو يقر قراراً .. أيعرج براحلته إلى شرق الصحراء ويقذف بنفسه في المتاهات لعله يجد مأوى يختفي فيه وينسى مكة وأحزانها ومستقبلها الغامض ، وعبث الشباب فيها ، والمصائب التي تتراكم من حولها ؟؟.. لا .. لن يهرب — لسوف يذهب إلى مكة ، ويلقي إليهم بالحقيقة المرة ، وليترك من ارتكبوا الحماقات وغدروا بالعهود ودعوا إلى الحرب .. ليتركهم كي ينقذوا البلد الحرام وأهلها مما جلبوه عليها من شقاء وتعاسة ..

عندما دخل أبو سفيان مكة .. وجد رهطاً من الصبية والشباب متجمعين حول وحشي المخمور .. ووحشي ملقى على قارعة الطريق ، ونظراته الزائغة الخائفة معلقة بشيء لا يرى وهو يهذي :

— « إني أراه .. ها هو حمزة بن عبد المطلب .. انني أعرفه جيداً .. هو لم يمت ، إنه يتقدم كالجمل الأورق وفي يده سيفه .. لسوف يقتلني .. النجدة .. سيقتلني .. أنقذوني منه .. لست أنا المسئول يا حمزة .. إن جبير بن مطعم هو الذي حرضني .. » .

وكان المحيطون بوحشي يقهقهون ويسخرون ، ولم يكن أحد منهم قد لحظ مقدم أبي سفيان . لكنهم فوجئوا به يقول في جد ووقار :

— « أجل .. إنه قادم يا وحشي .. قادم حقيقة .. ولن تنجو هذه المرة ... .

والتفت الناس إلى أبي سفيان في دهشة . لم يستطيعوا أن يفسروا كلماته ، فتجمهووروا حوله متسائلين عن سفارته ، لكن صوت وحشي انطلق قائلا :

— « إنهم لا يصدقونني يا أبا سفيان .. قل لهم .. لماذا تتركونني وحدي ؟؟ إن حمزة يقترب مني .. سيقتلني .. » .

— ٢٤ —

لأول مرة تستشعر مكة هماً بالغاً لم تستشعره من قبل ،

قلوب الناس تخفق في اضطراب وعيونهم على الشمال تحاول تخطي حواجز المكان والزمان ، وآذانهم تلتقط الهمسات ، متشوقة لأي نبأ جديد .. إن مكة تفكر بعمق أكثر من أي وقت مضى ، وتنتابها الرهبة والجزع ، فهي لا تستطيع أن تتصور الوضع الكامل للمستقبل القريب .. ما أشبه أزمة اليوم بالأزمة التي حدثت عام الفيل ، حينما قدم « أبرهة » بجيشه العرمرم ليدك الكعبة . يومها قال سيد العرب « إن للبيت رباً يحميه » .. لكن الأمر مختلف تماماً اليوم .. والقادمون إلى مكة لن يهدموا البيت ، بل سيرفعون من شأنه ، ويطهرونه من رجس الشرك ، وأوهام العقائد الباطلة . والقادمون اليوم لن يكونوا غزاة غرباء .. ولكنهم عرب مسلمون يقودهم محمد ابن عبد الله من خيرة قريش ... ابن مكة البار ..

الناس يتساءلون ماذا سيفعل محمد بعد أن رفض اعتذار أبي سفيان ، ولم يوافق على مد مدة « عهد الحديبية » ؟؟ هل سيجرد جيشاً لتأديب من غدروا ونقضوا العهد ؟؟ ومتى يكون ذلك ؟؟ وغرقت مكة في تساؤلاتها وتكهناتها ..

قال عكرمة بن أبي جهل :

– « ويحكم يا أهل مكة !! ماذا تنتظرون ؟؟ أتظلون في حيرتكم وتخبطكم حتى يدهمكم محمد بقواته ، ويستولي على مدينتكم . ويفعل بكم الأفاعيل ، فيسبي نساءكم وذراريكم ويذبح رجالكم ، ويجعل من نفسه ملكاً عليكم .. ويقضي على دينكم ودين آبائكم ؟؟ والله لا ملجأ لكم إلا لسيوفكم ،

فإن جبنتم ، وصدعتم للخوف والتردد فقد فقدتم كل أمل في الحياة والخلاص .. » .

وقالت هند زوجة أبي سفيان :

ـ « القول ما قال عكرمة بن أبي جهل .. الحرب هي وسيلة البقاء والحفاظ على كرامتنا . ثم إنه لا بديل لها بعد أن رفض محمد وساطة أبي سفيان ، إن رفضه يعني إعلان الحرب.. إنها بمثابة دفاع عن النفس والتخلف عنها هو الهزيمة أو التسليم.. »

ثم استطردت مهتاجة :

ـ « مالي أراكم قد جبنتم ؟؟ إنني لا أتصور أن محمد بن عبد الله قد أربككم لهذا الحد . وأثار في قلوبكم الخوف والانهيار .. أيها السادة الكبار . أنتم أقوى بأساً . وأشد مراساً وأكثر جنداً .. ذلك المهاجر الغريب وجنوده الأغراب لا يصح إن يصلوا بكم لهذه الدرجة . من الرعب .. إن قوته أقل بكثير مما يشيعه .. » .

هز أبو سفيان رأسه قائلاً :

ـ « إنني أدرى بقوتنا وبقوته منكم جميعاً .. استمعوا إلي جيداً .. إن الكثيرين من أهل مكة قد انعطفوا بقلوبهم نحوه وإن بقوا على دينهم القديم .. بل إن الناس في مكة يمرون بفترة غريبة أنا أدركها جيداً .. لا هم بالكافرين ولا بالمسلمين .. فترة حرجة لا يستطيعون أن يحاربوا فيها أو يحسموا أمراً .. بل لعلهم أقرب إلى محمد منا .. تلك هي الحقيقة المرة .. أما محمد ورجاله فقد ازدادوا عدداً وعدة .. لا يشوب إقدامهم

تردد ، ويقعد بهم شك أو وهن .. » .

قال عكرمة بن أبي جهل :

– « فماذا نفعل إذن ؟؟ » .

هز أبو سفيان رأسه في حيرة وقال :

– « هذا ما أفكر فيه .. أيمكن أن نبعث بوفد جديد إلى محمد ، على أن نقدم دية القتلى من خزاعة ، أو نسلم له المعتدين من بني بكر ؟؟ » .

قهقهت هند ساخرة :

– « لو فعلنا ذلك لأدرك محمد ما نعانيه من ضعف وخوف ولانقض على مكة وابتلعها في يوم وليلة .. » .

انطلق وحشي بن حرب قائلاً :

– « الموت ولا الهوان .. يجب أن نحمل سيوفنا ونندفع إلى يثرب .. إن بني بكر يريدون الحرب .. وكثيرون لهم ثارات عند محمد يتشوقون للمعركة .. لقد فرض علينا القتال ولا مناص من ذلك ..

وهاج الجمع وماج ، واختلطت التساؤلات والخلافات وارتفعت الأصوات . وساد الاضطراب وضاقت بهم الأرض بما رحبت . ايست هناك بارقة أمل ، لقد قضى محمد على يهود الجزيرة . وجذب إليه عديداً من القبائل ، حتّى غطفان وغيرهم أولئك الذين اشتركوا ضده في معركة الأحزاب قد انحازوا إلى صفه .. ومالت إليه اليمن ، وانصاع له قبائل شمال الجزيرة وجنوب الشام ...

وتمتم أبو سفيان :

– « واكرباه .. ألا إن شمسنا في الزوال ، ودولتنا توشك أن تدول .. الأمور تمضي بقوة قادرة .. وإرادتنا عاجزة عن أن تصمد للأقدار الغلابة .. إننا نتراجع ونضمر ونخبو برغم كثرتنا وبرغم ما نمتلكه من مال وسلاح .. لا أدري ماذا أقول.. لقد تزعزع إيماننا بكل القيم التي حملناها ودافعنا عنها ، وضحينا من أجلها .. إنني أتساءل لماذا لم ينفر الناس كما كانوا ينفرون ؟؟ هل فيكم من يستطيع أن يجيب على تساؤلاتي المعذبة يا رجالات قريش ؟؟ آه .. إن عامة الناس ليسوا مقتنعين بالحرب !! عن أي شيء يحاربون ؟؟ ليس لديهم قضية حقيقية يدافعون عنها .. لم يعد يكفي أن نحركهم باسم الثارات فقد ثأروا ذات يوم .. ولم نعد قادرين على تحريضهم باسم الدين .. والأخطر من ذلك إنهم لا يخافون محمداً مثلما نخافه نحن السادة .. إنهم يرون فيه المثل والقدوة والعدل والحب والإخاء .. يرون الأمة الحية التي تنمو وتترعرع في أرض يثرب .. ولماذا يخافه العامة هنا ، وهو سيزيد من قوتهم بقدر ما ينقص من كبريائنا وبأسنا ؟؟ يجب أن تتصوروا الأمور على هذا النحو أيها الرجال.. وأي تصور عداه فهو باطل .. يا إلهي كل شيء يذبل ويتوشح بالسواد .. ولا أكاد أرى بصيصاً من نور .. » .

وانهالت على أبي سفيان الاتهامات ، وناشته ألسنة الحاقدين والثائرين وخاصة من رجال بني بكر وأشياع عكرمة ، وأبو سفيان يغمض عينيه ، ويخفض رأسه ، ويستسلم للصمت ،

وأخذ يفكر ، وأخيراً لم يجد مناصاً من أن يحاول تهدئتهم فيقول :

ـ « أيها الرجال .. على أية حال لسنا في عجلة من أمرنا .. إن محمداً لن يتسرع في اتخاذ قرارات خطيرة .. إنني أعرفه.. هل تعتقدون أنه يجرؤ على مهاجمة مكة الآن ؟؟ مستحيل أن يفعل ذلك فالأمر ليس بهذه الدرجة من البساطة واليسر .. فدون ذلك دماء غزيرة تراق ، وحرب ضروس لا يعلم إلا الله مداها .. ولكي يهاجم محمد مكة فان عليه أن ينتظر ويستعد عاماً آخر أو أكثر من عام .. وسيكون أمامنا فسحة من الوقت للتفكير والتروي والاستعداد ،، فلا تجعلوا أنفسكم نهباً للقلق، ولا تفتحوا بين صفوفكم ثغرات يطل منها الخلاف والعناد.. ».

ونزلت هذه الكلمات على قلوب المجتمعين برداً وسلاماً ، وبددت كثيراً من الخوف والقلق ، وأحيت في نفوسهم الأمل، فأشرقت وجوههم بعد اكفهرار ، وانفرجت أساريهم بعد تقطيب ، وحوم على جمعهم قدر من الطمأنينة والهدوء ..

وقال وحشي بن حرب منتعشاً :

ـ « هذا هو الكلام الحق .. ولن يستدير العام إلا ونكون قد جمعنا جموعنا ، وسالت بنا الأباطيح والوديان ودهمنا محمداً في عقر داره ومحونا « يثرب » من الوجود .. » .

رماه أبو سفيان بنظره شزراً وقال :

ـ « ربما .. » .

وأردف عكرمة بن أبي جهل قائلا :

ـ « ولا يغرنكم انصياع القبائل لجانب محمد .. إنهم

يبحثون عن المغنم ، فلو استطاع أبو سفيان ومعه عدد من سادات قريش أن يطوفوا بهذه القبائل ، ويبذلوا لها الوعود ، ويمنوها بالمغانم الوفيرة ، لنكثوا بعهدهم مع محمد ولانضموا لجيشنا وحاربوا في صفوفنا .. » .

وعاد وحشي في تلك الليلة إلى بيته ، كانت لهفته إلى الكأس أقوى وأشد ، حاول أن يتجنبها فلم يستطع .. لقد أصبح سكره مر المذاق ، مليء بالرؤى المفزعة ، والتصورات المخيفة .. إن طيف حمزة يفسد عليه شربه ، ويدفعه إلى الصياح والاستنجاد بالناس كي ينقذوه من العدو المتوهم ... ومع ذلك فقد تناول الكأس بيد مرتجفة وأخذ يشرب في نهم بالغ ... لكن وجه حمزة .. والسيوف التي تحاصره .. كل ذلك جعله يصرخ ويستغيث ولا مغيث .. حتى ارتمى على فراشه كالمغشي عليه ...

— ٢٥ —

لم يكن أحد في مكة يعرف ما يجري من أحداث في يثرب فقد كان محمد يحيط تحركاته بتكتم شديد ، ويفرض على تصرفاته نطاقاً صلباً من السرية ، فقد دعا آلاف المسلمين للاستعداد للرحيل إلى جهة غير معلومة .. وعندما تم الحشد والاستعداد خرج محمد معهم وسط كتيبته الخضراء ، وكشف لهم عن نواياه .. إنهم ذاهبون إلى مكة ، وهم يأملون أن يتم فتح مكة دون إراقة دم ، كانوا خليطاً من المهاجرين والأنصار ومن

قبائل أسد وغطفان وفزارة وسليم أولئك الذين كانوا بالأمس يحاصرون محمداً في معركة الأحزاب .. وسار الجيش الإسلامي صوب مكة التي لم تزل تمزقها الخلافات والجدل العقيم ، والتردد المشين ..

وفي إحدى الليالي كان أبو سفيان يتجول خارج مكة مع اثنين من أصحابه .. وأشرف أبو سفيان ورفاقه على جبل عال فصدم إذ رأى نيراناً وحشداً مهولا ، فصاح في ذعر :

— « ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً .. » .

قال رفيق من رفاقه :

— « هذه والله خزاعة حمستها الحرب .. وهي تبغي الأخذ بثأرها من بني بكر وأعوانهم .. » .

هز أبو سفيان رأسه في رفض وقال :

— « خزاعة أقل وأذل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها

ولم يكن أبو سفيان يعلم أن بالقرب منه العباس عم الرسول الذي خرج من قبل ليتنسم الأخبار ولم يكن قد أسلم بعد ، فذهب إلى محمد ورأى ما رأى من استعداد ضخم ، ثم أعلن في النهاية إسلامه أمام ابن أخيه ، ثم قفل إلى مكة ليخبر أهلها بالخطر الذي يهددها إذا قاومت ، وفي أثناء عودته سمع حوار أبي سفيان ورفيقيه فصاح العباس بأعلى صوته تحت الظلام الضافي

— « يا أبا حنظلة .. » .

انتفض أبو سفيان في ارتباك ورد ..

— « هذا أبو الفضل العباس عم محمد .. ترى ما الذي

أنى بك الساعة هنا ؟؟ » .

اقترب العباس من أبي سفيان وقال في اهتمام بالغ :

– « ويحك يا أبا سفيان !! هذا رسول الله في الناس .. واصباح قريش إذا دخل مكة عنوة !! » .

ودارت الأرض بأبي سفيان . هذا يوم الفصل . كيف حشد محمد هذا الحشد ؟؟ ومتى تحرك دون أن يدري به أحد .. هل سيدخل مكة حقيقة ؟؟ لم يكن أحد يستطيع أن يتصور ذلك.. قريش لم تزل ترجف وتعبث وتلهو ، ورجالاتها يضطربون بين شتى الأفكار والآراء ، تخدرهم الكبرياء ، ويمزقهم الغرور ومحمد يقف على أبواب مكة ليقهر الغرور والكبرياء والآمال القديمة !! واكرباه ..

ثم مال أبو سفيان على العباس قائلاً :

– « وما الحيلة يا أبا الفضل فداك أبي وأمي ؟؟ » .

فأركبه العباس في عجز بغلته ، ثم انطلق به إلى رسول الله وأبو سفيان في ذهول يكاد يكون تاماً مما يرى ويسمع .. نيران ورجال وسلاح وجياد وإبل .. وصلوات .. وأصوات تقول هذا أبو سفيان عدو الله .. اضربوا عنقه .. لكن العباس يعلن بين الناس أنه قد أجاره فلا يصح أن يعتدي عليه أحد ..

جلس أبو سفيان أمام الرسول يرتعد .. ينظر إلى وجه محمد المشرق الباسم يغمره الإيمان واليقين والثقة ، ثم يعود إلى نفسه ليستشعر ما لحقه من اضطراب وحزن وأسى ، ويفكر فيما

يعتور مكة من جنون ووهن وتمزق .. إنها لحظات قاتلة . لكن أبا سفيان بحنكته ودهائه يحاول أن يبدو متمالكاً لأعصابه وأفكاره ..

وقال الرسول :

— « ويحك يا أبا سفيان . ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟؟ » .

قال أبو سفيان :

— « بأبي أنت وأمي .. ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى شيئاً بعد »

فابتسم النبي قائلا :

— « ويحك يا أبا سفيان ! ! ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله ؟ » .

ساد الشحوب وجه أبي سفيان ، واختلج جسده . أبعد هذا العداء الطويل ، والحرب المريرة ، والكبرياء البالغة ، والتشبث بالدين القديم ، والإصرار العنيد .. أبعد كل هذا يؤمن بمحمد ؟؟ إن الإيمان بإله واحد قد يكون معقولا ، أما الإقرار برسالة محمد فهذا أمر شاق على نفس أبي سفيان .. الأمر هنا يختلف .. إنها كبرياء رجل قاد قومه لحرب محمد .. وتفصد جبين أبي سفيان عرقاً وهو يقول :

— « بأبي أنت وأمي..ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! ! أما والله هذه فإن في النفس منها حتى الآن شيئاً .. » .

قال رجل من المهاجرين :

— « الرجل يرفض الإقرار بنبوة محمد .. » .
قال ثان : — « فلتضرب عنقه .. » .
قال ثالث : — « الرسول لا يفعلها .. » .
قال آخر : — « والعباس قد أجاره » .

وتركه العباس يفكر بعض الوقت ، ولم تخف حقيقة الأمر على أبي سفيان ،وأبو سفيان ، يؤمن بفكره ، ويمتعض بشعوره وكبريائه ، وبين الشعور والفكر هوة سحيقة .. فإما أن يتخطاها أبو سفيان في شجاعة أو يفتح الطريق لوساوس الكبرياء وثورة العاطفة والدماء التي لن تكسب مكة من ورائها شيئاً ، لحظات قصيرة مهولة في حياة أبي سفيان الذي مد بصره من حوله فرأى النيران المشتعلة والحشود ، وتكبير الرجال وتهليلهم ، ثم رمى ببصره عبر الظلمة فرأى من بعيد مكة بعين الحدس والتخمين.. إنهم هناك يغطون في نوم عميق، والساهرون منهم يتقارعون الكؤوس ، ويعبثون ويعربدون .. ثم عاد أبو سفيان يفكر في محمد .. تاريخه .. حياته .. أخلاقه .. الآيات التي نزلت عليه .. المعارك التي خاضها .. الدعوة التي يدعو إليها .. وفي لحظة من اللحظات النادرة الخالدة ..لحظة التنوير القدسي .. هتف أبو سفيان :

— « يا رسول الله ... أشهد ألا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله .. » .

ارتاحت نفس محمد ، وحمد العباس الله ، واغرورقت عين الحاضرين بالشكر والارتياح ، وكان على أبي سفيان

مسؤولية كبرى .. أن يسرع إلى مكة ويشرح لأهلها الأمر لعله يجنبهم الدمار والدماء التي لا طائل من ورائها ...

وقال أبو سفيان بعد أن شهد عرضاً مؤثراً لجيش المسلمين ولكتيبة محمد الخضراء :

— « يا أبا الفضل .. ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .. والله يا عباس لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً .. » .

وهرول أبو سفيان إلى مكة ، المهاجر الطريد الذي لم يكن له حول ولا قوة يقود أكثر من عشرة آلاف محارب . كل واحد فيهم يضارع كتيبة بأسرها كيف ؟؟ أيمكن أن يكون هذا من صنع الذكاء والبراعة السياسية وحدهما ؟؟ لا .. إن الله معه ..

وبلغ أبو سفيان مكة ، فوجد الناس في توتر وقلق ، إنهم يتوقعون خطراً ما . والحيرة ترتسم على الوجوه ، والقلق في العيون . واحتشدوا حول أبي سفيان عندما رأوه . فرفع هامته وقال بأعلى صوته :

— « يا معشر قريش ! هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن .. » .

وران على الجمع صمت رهيب ، ولم يعد يسمع إلا الأنفاس المتصاعدة اللاهثة ، وقطع الصمت صوت ساخر يقول :

— « وماذا تغني عنا دارك ؟؟ » .

وقال آخر :

– « محمد رسول الله حقاً .. وقد حان الوقت لكي نقولها دون خوف أو تردد » .

وقال ثالث :

– « لم يعد هناك أمل في المقاومة .. » .

أما وحشي بن حرب فقد أطلق صيحة شيطانية ، ونادى بأعلى صوته :

– « لا ملجأ إلا إلى السيوف نشهرها في وجوه الأعداء فإما النجاة أو الموت في ساحة الأبطال .. » .

فدفعه جماعة من الواقفين ، حتى سقط على ظهره . فقام ينفض عن ثيابه الغبار . وجرى مسرعاً صوب عكرمة حيث كان يجلس مع جماعة من بني بكر في الجهة الجنوبية من مكة.. وارتمى وحشي أمام الرجال لاهث الأنفاس ، وأخذ يقول في عبارات متقطعة :

– « جئتكم بأشأم الأنباء .. جئتكم بذل الدهر وعار الأبد» أسلم أبو سفيان بن حرب .. » .

صاحوا بصوت واحد :

– « ماذا ؟؟ » .

فمضى وحشي في حديثه دون أن يرد على تساؤلهم :

– « وتابعه أكثر أهل مكة .. » .

– « أنت تهذي يا وحشي .. » .

فأردف دون أن يعير تعليقاتهم التفاتاً :

— « ومحمد قدم في جيش كبير لفتح مكة .. » .

تلفت عكرمة يمنة ويسرة . وبرق الشر في عينيه فأرعد :

— « لن نستسلم إلا جثثاً هامدة .. الموت في المعركة ولا عار التسليم من أجل حياة تعسة .. » .

وتنادى بنو بكر وعكرمة وأشياعه ووحشي للسلاح ..

° ° ° °

وفتحت مكة أبوابها لجنود الله .. لحملة الحق والحرية والعدل والإخاء .. لكن بابها الجنوبي . حيث عكرمة ورجال بني بكر وأشياعهم . بقي موصداً يرفض التسليم .. وأوصى محمد جنوده بعدم إراقة الدماء وألا تقاتل إلا في حالة الإكراه.. الزبير بن العوام على الجناح الأيسر للجيش ويدخل مكة من الشمال .. وسعد بن عبادة قائد رجال المدينة يدخل مكة من الغرب . وأبو عبيدة قائد المهاجرين يدخل مكة من أعلاها عند جبل هند .. وخالد بن الوليد على الجناح الأيمن ليدخل مكة من الجنوب ... لكن سعداً قائد رجال المدينة استخفه الحماس وصاح « اليوم يوم الملحمة . اليوم تستحل الحرمة » فعزله الرسول فوراً وولى ابنه مكانه ... أجل .. فتحت المدينة أبوابها إلا باباً واحداً يقف عنده عكرمة وبنو بكر ووحشي وغيرهم .. وقفوا في مواجهة خالد بن الوليد ..

قال عكرمة :

— « ما أعجب الأيام .. ها هو خالد صديق الأمس .

ورفيق الكفاح في « أحد » وغيرها ... ها هو يأتي لحربنا .. والله لن تمر يا صديق العمر دون أن نشهر في وجهك السيوف »

وعاد وحشي يكرر في جنون :

— « الموت ولا العار .. » .

استمر القتال وقتاً قصيراً ، وتلفت عكرمة حواله ، فوجد جنود المسلمين قد انتشروا في أرجاء مكة ، ونزلوا صوب البيت الحرام ، آه .. إن « هبل » يسقط الآن من عليائه .. لقد سقط إلهنا العتيد .. يسقط دون أن يحرك ساكناً .. وأصبحت مقاومتنا قطرة في بحر لجى .. لا فائدة .. لقد أهدر محمد دمي.. لا شيء سوى الفرار .. الآن .. الفرار ولا الموت ...ثم اتجه إلى رفاقه :

— « لم يعد لدينا وقت .. يجب أن نبادر بالهرب قبل أن يدهمنا المسلمون من كل جانب .. » .

لطم وحشي خديه وقال وهو يعول :

— « وأين أمضي ؟؟ » .

قال عكرمة :

— لا تبك كما تبكي النساء .. أنا ذاهب إلى اليمن .. » .

وقال بضعة نفر :

— « نحن معك يا عكرمة .. » .

وقال رجل حزين :

— « ولماذا لا نبقى ونعلن إسلامنا .. إن محمداً سيعفو عنا »

فلم يهتم أحد بكلامه . وقال وحشي وهو يمسك بحربته :

— « إنني هارب إلى الطائف .. إنها لم تزل تشتعل عداء ضد محمد والمسلمين .. هناك سأجد الأمن والحرية .. » .

وتفرقت شيعة الحقد والعناد كل في طريق .. أما أهل مكة فقد جاءوا إلى الرسول يعلنون رضاءهم بما تم . فيهتف بهم الرسول مردداً آية خالدة من آيات القرآن الكريم :

— « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتَعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . إن الله عليم خبير .. » .

غمغم أبو سفيان بينه وبين نفسه :

— « آه .. المقاييس الجديدة للدولة الجديدة .. كلنا من ذكر وأنثى ..لا فرق بيني وبين الموالي.. والكرم ليس بالنسب ولا المال .. ولكن بالتقوى .. العالم القديم يميد .. والأسس التي حرستها بعقلي وسيوف أهل مدينتي . والتي ضحينا في سبيلها بالغالي من الدماء والآمال كل هذه الأسس تنهار .. آه .. »

وتوقف أبو سفيان عن التفكير حينما سمع الرسول ينادي قائلاً :

— « يا معشر قريش ... ماذا ترون أني فاعل بكم ؟؟ » .

قالوا :

— « خيراً .. أخ كريم ، وابن أخ كريم .. » .

قال محمد :

— « اذهبوا فأنتم الطلقاء .. » .

انطلقت الحناجر مكبرة مهللة . لا إله إلا الله وحده . صدق وعده ، ونصر عبده . وأعز جنده . وهزم الأحزاب وحده » .

ومال أحدهم على رسول الله قائلاً :

— « أتريد أن تستريح في بيتكم .. » .

بدا التأثر على وجهه الكريم وقال :

— « ما تركوا لي بيتاً .. » .

ثم آوى إلى القبة التي ضربوها له أعلى مكة قبالة جبل هند..

وتوجس الأنصار خوفاً . إن الرسول قد يتركهم ويبقى بمكة..

فابتسم الرسول قائلاً :

— « معاذ الله .. المحيا محياكم . والممات مماتكم .. »

وقدمت هند زوجة أبي سفيان لتسلم . وكان الرسول قد أهدر دمها لتمثيلها بجثة حمزة فعفى عنها وقبل إسلامها . فعادت مسرعة إلى صنمها الخاص تحطمه وتدوسه بالنعال وتبد عليه ...

كما قدمت زوج عكرمة وطلبت لزوجها العفو . فوافق الرسول فهرولت إليه . وكان على وشك أن يبحر في سفينة إلى اليمن .. وأسلم جميع أهل مكة ...

أما وحشي ... فقد أخذ السير صوب الطائف .. ضارباً في صحراء التيه والعذاب والأحزان ...

— « كانت الصحراء متوهجة مغبرة .. وهو يسير مسرعاً لا يسيطر على ذهنه في البداية سوى شيء واحد .. النجاة ..

ومن آن لآخر يلتفت وراءه ، ينظر إلى مكة .. جنود محمد في كل مكان .. وبلال يصعد فوق الكعبة ويؤذن .. انطفأ كل أمل لسادات مكة .. نامت الآمال الكبيرة إلى الأبد .. أسلم أبو سفيان وجبير وهند .. راية التوحيد تخفق هناك في الآفاق.. كلمات محمد تتلى في كل بيت .. الآلاف يحتشدون وراءه يكبرون ويسبحون .. تحطمت هامة هبل .. سقطت الآلهة الزائفة ..

— « آه .. وامصيبتي !! لقد اشتد بي الظمأ .. وأنا أسير وحدي نهباً للعذاب والخوف والضياع .. أهذه هي النهاية؟ أيمكن أن يبعث محمد ورائي بجنوده؟؟ أوه .. إنني أهول في الأمر إن محمداً الآن عنده الكثير من الأمور تشغل ذهنه وفرار واحد مثلي لن يشغل حيزاً صغيراً من تفكيره .. لكن كيف ؟؟ هل وصلت إلى درجة من التفاهة لا تجعل محمد يفكر فيّ ؟؟ إنني قاتل عمه .. أنا قاتل حمزة .. » .

وأخذ يتلفت في خوف ، أيمكن أن يطارده شبح حمزة في عز النهار ، وهو لم يشرب كأساً ، ولم يغب ذهنه ؟؟ وعاد يتلفت ، فيخيل إليه أن هناك شبحاً وراءه ، فإذا نظر خلفه خيل إليه أن الشبح انتقل أمامه ، وهكذا أخذت رأسه تدور يمنة ويسرة ، وأمام وخلف حتى شعر بالدوار . وأوشك أن يسقط من فوق ناقته .

— « أكاد أجن !! ولم لا أجن ؟؟ لقد تحققت نبوءآت عبلة . وبلغت وصال شاطىء الأمان ونالت ما تصبو إليه من

استقرار وإيمان وتوبة .. يزعمون أنها أصبحت من الصالحات ، وأنها نذرت نفسها لله . والبعض يقول أنها قد تزوجت .. أيمكن أن يحدث ذلك ؟؟ أين أذهب ؟؟ إن كل مكان يذكرني بأحزان .. لم أكن سعيداً في مكة . وإن ذهبت إلى يثرب فسأجد الأحزان والتعاسة في انتظاري . والحبشة .. لا أريد أن أذهب إليها .. لا أعرف فيها أحداً .. ولا أشعر نحوها بشعور الحنين إلى الوطن ، واليمن .. آه .. إنني أكره الغربة .. وسيعرفون من أنا . برغم كل شيء فأنا لا أستطيع أن أبعد عن مجرى الأحداث .. كالفراشة التي تعلم أن في النار حتفها . لكنها تحوم حولها مستنشقة عبيرها القاتل ، سكرى بنورها .. وامصيبتاه تفرق الشمل وتحطمت الآمال .. ومرغت كبريائي في التراب.. »

ولمح من بعيدخمسةرجال يمتطون جيادهم ، أصابه الخوف بما يشبه الشلل فجمد في مكانه لحظات ثم اندفع يضرب ناقته ويوجهها إلى طريق جانبي كي يختفي خلف صخرة ، أو في بطن كهف من الكهوف، ولم يكن يعلم أثناء اضطرابه وهرولته أنهم قد أبصروا به . ومال خلف كتلة كبيرة من الحجر ، وأناخ راحلته ، وانكمش إلى جوارها صامتاً يتسمع الطريق .. وتمتم :

« لو كانوا من المسلمين فستكون كارثة : قد يتعرف أحدهم عليّ .. عندئذ لن أفلت من حكم محمد .. بمن أستنجد أو أستغيث ؟؟ » .

وتطلع إلى السماء .. « أهناك إله أسكب بين يديه عبراتي وضراعتي لعله ينجيني من الخطر المحدق ؟؟ تهشمت الآلهة في مكة ولم يبق غير إله محمد ، أأضرع إليه ؟؟ » .

وحال لون وجهه إلى صفرة ظاهرة حينما سمع وقع حوافر الخيل وسمع أحد الرجال يقول :

— « لقد دلف إلى هنا .. إنني واثق من ذلك » .

وقال الثاني :

— « لا بد من العثور عليه .. » .

وانتفض جسد وحشي وكاد يغشى عليه ، لكنه تماسك وحبس أنفاسه ، وسمع رجلا منهم يقول :

— « أنا لا أدري سبباً لهروبه .. هل ظن أننا قطاع طريق؟؟

وأخذت خطواتهم تقترب ، ووحشي يزداد انكماشاً ورعباً وأخيراً وجدهم منتصبين أمامه ، فأجهش بالبكاء طالباً الرحمة قال قائدهم :

— « ماذا دهاك ؟؟ » .

قال وهو يمد يديه في ذلة :

— « إنني مسكين تعس .. أنشد المغفرة .. » .

— « يا رجل لسنا قطاع طريق .. » .

سدد إليهم نظرات مبللة بالدموع وقال :

— « من أنتم ؟؟ » .

— « رجال من « هوازن » جئنا نتنسم أنباء محمد .. » .

قال وقد فغر فاه دهشة :

— « محمد ؟؟ » .

— « أجل .. » .

— « أتريدون الدخول في دينه ؟؟ » .

قهقه قائد الركب في سخرية وقال :

— « إن هوازن لها دينها وكبرياؤها ، وهي لم تكن في يوم من الأيام في حاجة إلى قرشي كي يبدل دينها ، أو يغير نظام حياتها .. » .

ضحك وحشي من فيض السرور وقال وقد فاض قلبه بالسعادة :

— « أحقاً ما تقولون ؟؟ » .

— « أجل ... » .

— « إذن فأعطوني شربة ماء .. » .

— « دهمنا محمد على حين غرة »

— «مسافر بلا زاد ولاماء وأنت لم تبعد عن مكة إلا قليلا؟

قال وحشي وهو يعب من إناء الماء الذي دفعوه إليه :

قال قائد الركب :

— « نعلم ذلك ، لكن هل دانت له مكة ؟؟ »

قال وحشي وهو يلتقط أنفاسه :

— « دخل مكة في جمع غفير لم أشهد مثله . . وجمع إليه المهاجرين والأنصار ، ورجالا من قبائل غطفان وفزارة وسليم وغيرهم .. كانت مكة تلهو وتعبث وتمزقها الخلافات وهو

يعد عدته ثم تنهد في حسرة وقال :
« وفتحت مكة أبوابها وبلال يؤذن فوق الكعبة ودخلت سادات قريش في دين محمد وأسلم أبو سفيان زعيمها .. انتهى كل شيء .. » .
وصمت الرجال بينما عاد وحشي يقول :
— « من أنت أيها الرجل ؟؟ » .
— « أنا مالك بن عوف النضري .. » .
قال وحشي في طرب :
— « زعيم هوازن وسيدها ؟؟ » .
— « أو تعرفني يا فتى ؟؟ » .
— « ومن منا لا يعرف الفارس المعلم ، والبطل المغوار.. ».
— « من أي قبيلة أنت ؟؟ » .
تلعثم وحشي لحظة ثم قال :
— « أنا .. أنا .. وحشي بن حرب .. قاتل حمزة .. » .
ضحك مالك بن عوف ملء شدقيه وقال :
— « أهو أنت ؟؟ » .
— « أتعرفني ؟؟ » .
— « بالطبع .. لكن لم أكن أتصور أنك على هذه الدرجة من الجبن والهلع .. » .
طأطأ وحشي رأسه في أسى وقال :
— « إن محمداً أهدر دمي .. لم أستسلم .. حاربت أنا وعكرمة بن أبي جهل ورجال من بني بكر .. لكن كان عبثاً

أن نستمر في المقاومة وقد سيطرت جيوش محمد على مكة بأسرها .. فلذت بالفرار .. وعندما رأيتكم توهمت أنكم من المسلمين .. فخفت على حياتي .. تلك هي الحقيقة .. أيموت الإنسان هكذا بسرعة دون أن يحقق غايته ؟؟ إنني لا أنشد الحياة إلا لأجد الفرصة كي أحارب محمداً من جديد .. لن أسلم له نفسي بلا ثمن .. يجب أن يعلم أن عداءه لي . وإهداره لدمي سوف يكلفه الكثير .. » .

هز مالك بن عوف رأسه قائلا:

— « أبشر يا وحشي .. إن ورائي عدداً من الرجال الأقوياء سينفرون لضرب محمد .. إنه لا شك قادم إلينا .. فهو يريد أن تدين له العرب قاطبة .. ونحن نرفض دعوته ، والانصياع لأمره .. وسنسبقه إلى الاستعداد ، ونحصره في مكة ونقضي عليه قضاء مبرماً .. » .

قال وحشي في فرح صبياني :

— « وسينصركم كثيرون من أهل مكة .. إن عدداً كبيراً منهم قد أسلم تقية ، وخوفاً على أنفسهم .. » .

قال مالك بن عوف في صوت أجش :

— « إن من يقبل القهر والذل ليس من الرجال .. » .

— « لا فض فوك يا مالك .. » .

قال مالك وهو يجذب عنان فرسه :

— « حسناً .. إلى أين أنت راحل ؟ » .

– « إلى الطائف .. إن أهلها لا يقلون تحمساً وثورة ضد محمد عن هوازن .. » .
– « أتريد شيئاً يا وحشي .. » .
– « رافقتكم السلامة .. » .
– « فلتبلّغ «عروة بن مسعود » زعيم ثقيف عنا السلام.. ».
ومضى وحشي في طريقه ، وقد ازداد حماساً ، وتسرب إلى قلبه غير قليل من الرضى والسعادة ، وكيف لا يسعد وهو يرى قبائل هوازن الصعبة المراس ، تعد العدة ، وتسرع لضرب محمد ورجاله ؟؟ لم تزل الدنيا عامرة بالرجال الكبار الذين يعرفون كيف يذودون عن كبر يائهم .. وكيف يحقدون ويعادون وتمتم وحشي : – « اللعنة عليك يا أبا سفيان .. أيها المتردد الضعيف يا داعي الحكمة والروية .. لو استمر القتال بضع ساعات لشهدت مكة أروع مذبحة للمسلمين .. » .
وبلغ وحشي الطائف بعد عناء وجهد ، لم يكف عن المسير أثناء الليل والنهار ، وضن على نفسه بأي قسط من الراحة .. وهناك تجمهر حوله الرجال ، وأخذوا يتساءلون عن صحة ما بلغهم من أنباء محمد وفتح مكة ..
واستمع إليه الرجال صامتين يفكرون .. إنهم يذكرون جيداً يوم أتاهم محمد بنفسه – قبل الهجرة – يدعوهم إلى عبادة الله ، ويطلب منهم الإيمان برسالته ، وأن يحموه من ظلم قريش وبطشها .. ويذكرون أنهم قابلوا محمداً أسوأ استقبال ، آذوه .. وسبوه وقذفوه بالأحجار .. وبقوارص

الكلم حتى دمعت عيناه ، واتجه بدعواته إلى الله ...

يذكرون كل ذلك .. فهل سيأتي محمد لتأديبهم ؟؟

وصاح أحد رجال ثقيف :

— «يا بني ثقيف .. إن مدينتكم حصينة .. وأسوارها متينة البناء ، وحصونها تستعصي على الغزاة .. ومحمد لا شك قادم إليكم .. فأعدوا أنفسكم ليوم شاق عصيب ، وتزودوا بالمؤن والسلاح .. إنكم تستطيعون أن تصمدوا في وجه محمد .. ولا تتركوا أمركم للصدف .. إنها معركة حياة أو موت .. معركة كبرى .. فانفروا جميعاً واستمسكوا بدينكم ، وموتوا دون «إلهكم اللات» فتعزوا وتسعدوا .. ويتقهقر عدوكم .. ويتحدث بمجدكم العرب في كل مكان .. » .

وصدر هدير عن الجمع الحاشد :

— «هذا هو الحق .. » .

وسأل وحشي رجلا من الواقفين :

— «أهذا هو عروة بن مسعود ؟؟» .

فجاءه الجواب بالنفي .. وأخبروه أن عروة باليمن ...

— ٢٧ —

تعانق سهيل ووحشي عند اللقاء عناقاً حاراً ذابت في خضمه الشحناء الماضية والاختلاف في الرأي والعقيدة ، وقال وحشي بعد أن استقر به المقام :

– « كنت متهيباً المجيء إلى الطائف ، فقد خفت ألا أجدك ، ربما تكون يا سهيل قد لحقت أنت الآخر بمحمد ، وخاصة أنك تخفي إسلامك منذ فترة ليست بالقصيرة .. عندما وقعت عيني عليك كأني قد عثرت على نفسي .. إن الصديق المخلص يا سهيل أعظم نعمة في هذا الوجود . وهذا أمر لا يتبينه المرء إلا في دياجير الملمّات الخانقة .. أعرف أني قد قسوت عليك في آخر لقاء لنا بمكة ، وأعرف أنك شديد التمسك بدعوة محمد .. ومع ذلك فقد كنت على ثقة تامة بأنك سوف تفسح لي في قلبك وبيتك مكاناً رحباً .. » .

قال سهيل :

– « أنت هنا على الرحب والسعة .. وشعوري نحوك لم تغيره الأحداث . وإني لعلى يقين بأنك ستنصاع للحق آخر الأمر

هتف وحشي محتداً :

– « لو لم يكن في الدنيا غير الحق الذي لدى محمد لما تبعته »

– « لا تكن متعنتاً .. » .

شرد وحشي . وبدا الحزن في نظراته وعلى وجهه وتمتم :

– « تركت داري وإبلي وأغنامي ومستقبلي في مكة .. إنه لشيء قاس أن يجبر الإنسان على النجاة بحياته .. فالمرء عند ذلك يستشعر الكثير من الهوان والحقد والغيظ .. » .

وابتسم سهيل قائلاً :

– « اني لجد سعيد أن تشعر بهذا الآن. » .

– « كيف تسعد لعذابي ؟! » .

— « ألم يحدث هذا لمحمد وصحبه عند هجرتهم ؟؟ ».
— « هم الذين اختاروا ذلك » .
— « وأنت ؟؟ » .
— « أنا يا سهيل لو بقيت لضرب محمد عنقي .. » .
هز سهيل رأسه وقال :
— « لماذا تترك موطنك ؟؟ » .
— « لأنجو بحياتي .. » .
— « انك لم تزل تفكر في نفسك .. تفكيرك في أضيق الحدود » .
— « ماذا كنت فاعلا ؟؟ » .
— « كان عليك يا وحشي أن تفكر : هل محمد على حق أم لا ؟؟ » .
— « وما قيمة التفكير إذا كانت حياتي مهددة ؟؟ » .
— « الرجال الشرفاء يا وحشي يتبعون الحق ولو كان في ذلك حتفهم .. » .
— « حياتي أثمن من أي شيء في الوجود . ثم إن الحق الذي يدعو إليه محمد لم يدخل قلبي .. » .
— « أنت وشأنك .. » .
وصمت سهيل برهة ثم قال :
— « لقد كنت أفكر في اللحاق بمحمد .. إنه يخوض أهم المعارك الآن وأخطرها شأناً .. لقد فاتني شرف المعارك الماضية .. وكان يجب أن أكون في مكة عند فتحها .. وما أظن

أن مقامي بثقيف في الطائف سيطول .. » .

قال وحشي :

— « ولم لم تفعل ذلك ؟؟ » .

— « آه .. هذا هو السؤال .. ربما يكون لي بعض العذر.. ».

ولم يشأ سهيل أن يفصح عن ذات نفسه ، لقد كان يقوم بمهمة كبرى في سبيل دعوة محمد ، كان يمارس التجارة ، ويتنقل من مكان إلى آخر ، ومن بلد لبلد ، ويخالط كبار القوم ، ويعيش في الطائف – إحدى قلاع العداء ضد محمد – وكان عليه أن ينقل إلى المسلمين في المدينة كل ما يلتقطه سمعه من أنباء ، وما تقع عليه عينه من تحركات وأحداث .. إنه لا شك يؤدي دوراً بالغ الخطورة ..

قال وحشي :

— « فيما تفكر يا سهيل ؟ »

ابتسم سهيل قائلاً :

— « ماذا تعني ؟؟ » .

— « سينتصر محمد بإذن الله .. والرسول على حق يا وحشي إن عبداً مثلي ومثلك قد صعد الكعبة ، وارتكز على أعلى قمة في البيت الحرام ، وجلجل صوته بالآذان يدعو الناس إلى الصلاة كي يقفوا صفاً واحداً متساوين متحابين .. بلال يا وحشي .. أتذكره ؟؟ » .

هز وحشي رأسه قائلا :

— « أجل .. رأيته .. ورأيت الطمأنينة تبدو على ملامح

وجهه وفي نبرات صوته ، وخطواته .. لكنه ساذج لا يفكر بعمق .. لا يتعذب في البحث عن الحقيقة .. » .

قال سهيل :

— « إنك تسمي الأمور بغير مسمياتها . وتحاول أن تشوه جمال الإيمان عند الآخرين . حتى ترضي نفسك ، وتلتمس المعاذير لعنادك .. وتبرر خطأك .. بلال ليس ساذجاً .. إنه أشجع مني ومنك . وأكثر تضحية . وأعمق تفكيراً .. هداه الله فالتقت بصيرته بنور الحق في وقت مبكر .. آمن والشرك في عنفوانه ، وتعرض للعناء والبلاء حتى أوشك على الموت .. تزلزلت الجبال وإيمانه لم يتزلزل .. بل كان يردد أثناء إشرافه على الموت « أحد .. أحد .. » .

أشاح وحشي في ضيق وقال :

— « لن أسلم حتى يسلم أبو جهل في قبره .. ولا تفرح بالنصر الذي حققه محمد في مكة .. إن كثيرين ممن أسلموا بعد الفتح تنطوي قلوبهم على الحقد والكفر .. ويتربصون بمحمد الدوائر . وقبائل « هوازن » تصارع محمداً الآن صراعاً رهيباً فلو انتصرت هوازن لما استطاع أن يعود محمد إلى مكة فلسوف يجهزون عليه إن عاد .. » .

قال سهيل :

— « لو أخذنا الأمور بمنطق الاستعداد الحربي وحده ،

ونظرنا فرأينا محمداً يقود اثني عشر ألفاً .. لتوقعنا انتصار المسلمين .. » .

* * *

أصبح الصباح ، وامتلأت الطائف بعديد من الأخبار والتكهنات ، وأغلب الأنباء تجمع على أن « هوازن » ومن والاها من ثقيف والقبائل الأخرى ، قد نصبت للمسلمين كميناً في الفجر ، وحصرتهم في مجال ضيق بين جبلين ، وانحدرت من أعالي الجبال ، وأثارت الارتباك والذعر في صفوف المسلمين وأخذتهم على حين غرة ، حتى أن المسلمين في عتمة الفجر ، وجو المباغتة والاضطراب ، أخذ بعضهم يضرب بعضاً ، ولاذوا بالفرار ..

وصفق وحشي بيديه فرحاً ، بينما أطرق سهيل في شيء من الضيق ، وظل صامتاً دون أن يعلق بكلمة واحدة .. وبعد ساعات قليلة ، وقف أهالي الطائف ينظرون إلى الموكب القادم وهم لا يريدون أن يصدقوا أعينهم ..

ماذا جرى ؟؟

هذا هو مالك بن عوف قائد هوازن ومن والاها يأتي هارباً مذعوراً عليه الغبار والجراح والتعاسة ، ومن خلفه عدد من رجالات هوازن المهزومين وقليل ممن نجوا من رجال الطائف

قال وحشي وقد اكفهر وجهه :

— « خبروني .. إنني لا أفهم .. » .

قال مالك بن عوف وقد تجمهر حوله عديد من الناس :

— « في الحقيقة أنني أشد حيرة مما رأيت .. هزمناهم في البداية .. ولوا هاربين حتى إن أبا سفيان قال إن هزيمة المسلمين وفرارهم لا يردها إلا البحر .. قتلنا من المسلمين خلقاً كثيراً .. وفجأة حدث ما لم يتوقعه أحد .. صمد محمد بعدد قليل .. ونادى المهاجرين والأنصار وذكرهم بالبيعة والعهد والجنة .. وكلمات أخرى كثيرة كانت كالسحر .. فتجمعوا حوله من جديد .. وانقلبت الآية .. كان معنا نساؤنا وأولادنا وإبلنا وآغنامنا .. ماذا أقول .. استولى محمد على كل شيء .. انتصر وأخذ النساء والأطفال سبايا ، والرجال أسارى .. وغنم المال والإبل والأغنام والجياد .. وأي حياة تهنأ لنا بعد أن فقدنا المال والولد والكرامة ؟! » .

ثم التفت إلى الحاضرين قائلاً :

— « وقد جاء دوركم يا أهل الطائف . إما الاستسلام أو الحرب الضروس فاختاروا أيهما شئتم .. » .

صاحوا بصوت كالرعد :

— « الحرب .. ولو فنينا عن آخرنا .. » .

— « ومحمد يذكر إساءتكم القديمة .. ولن يرحمكم .. ».

قال سهيل معرضاً نفسه لنقمة الحاضرين :

— « محمد يغفر لمن جاءه معتذراً .. ألم يقل لأئمة العداء في مكة اذهبوا فأنتم الطلقاء ؟! » .

وهدرت أصوات الرجال . ورموا سهيلاً بكل ما يعرفون

من كلمات السب المقذعة . ولكزه رجل يقف إلى جواره :
– « اخسأ يا عبد السوء .. » .
وصممت الطائف على أن تعد نفسها إعداداً كاملاً لحرب قاسية ، ورفضت أن تكفر بصنمها « اللات » ، أو تضع يدها في يد محمد .
وفي الصباح اختفى سهيل ...
أخذ وحشي يبحث عنه في كل مكان فلم يعثر له على أثر .

– ٢٨ –

منذ « أحد » ووحشي لم يسمع بخبر يثلج قلبه عن محمد خاصة ، عندما يصاب المسلمون بأذى . أو يتعرضون لما يشبه الهزيمة . فإن أمراً كهذا يُدخل السرور على نفس وحشي . وكان يتمنى أن تدور الدائرة على المسلمين إذا ما دهموا الطائف وتحصن بنو ثقيف وأشياعهم وراء الأسوار والحصن المتينة البناء . وصمدوا للمسلمين صموداً قوياً . وكان لديهم الطعام والمال والرجال والسلاح . ومعهم العناد الشديد أيضاً ، وجرب المسلمون وسائل عدة لاقتحام الحصون والأسوار . مستعملين مختلف الخطط والأسلحة . لكنهم تعرضوا للنبل والسهام . ولم يكن هناك وسيلة سوى محاصرة بني ثقيف اوقت طويل ، فأعلن الرسول أنه ذاهب عنهم طوال الأشهر الحرم وأنه سوف يعود إليهم في وقت قريب ...

وفاض السرور بوحشي الذي شارك في الدفاع عن الطائف وبذل أقصى ما يستطيع من جهد ، ألم يعجز المسلمون عن اقتحام الطائف ، وهم الذين فتحوا مكة في وقت قصير . وهزموا هوازن هزيمة نكراء ؟؟ إلا أن ثقيفاً – كما يعتقد وحشي – ستكون هي الصخرة العاتية التي ستتحطم عليها آمال المسلمين ..

قال وحشي لسهيل عندما عاد من سفرته المفاجئة :

– « أين كنت ؟؟ » .

– « آثرت يا وحشي أن أكون على الحياد .. فتركت الطائف حتى تنتهي المعركة .. » .

ولم يفكر سهيل في أن يخبر وحشياً بالحقيقة . ولا يكشف له الستار عن مهمته الخطرة التي خرج في سبيلها إلى المسلمين كي يصف لهم الموقف في الطائف ، والاستعدادات الجارية فيها.

وقال وحشي :

– « ألا ترى يا سهيل أن الأيام دول . وأن محمداً ورجاله قد عادوا مقهورين ؟؟ إن النصر السهل الذي توقعته أنت لم يكن سوى إفراط في الآمال لا مبرر له .. » .

قال سهيل :

– « ومع ذلك فإن لي رأياً آخر في الموضوع .. » .

– « ماذا ؟؟ » . .

– « لن يستدير العام حتى تكون الطائف قد أعلنت إسلامها وانحازت لصف محمد .. إن القبائل المجاورة كلها قد أسلمت ، وهل يكبدون بني ثقيف خسائر كثيرة ومضايقات عدة ..

ولا يمكن أن تعيش الطائف في معزل عن الأحداث ، أو تعيش وحدها في عناد والعرب من حولها قد انفضوا عنها وانحازوا لمحمد .. إن المسألة مسألة وقت ليس إلاّ ... » .

وقدم رجل أثناء ذلك ، ودق الباب في عنف ، ففتح سهيل له وقال ماذا وراءك من أنباء :

— « ألم تسمعوا ؟؟ » .

وثب وحشي من مكانه ، وجرى صوب صديقهما قائلا :

— « ماذا هناك ؟؟ » .

— « فر مالك بن عوف سيد هوازن .. » .

قال وحشي :

— « فر مالك ؟؟ كيف ؟؟ ولماذا ؟؟ » .

— « لقد ذهب رجال من هوازن إلى رسول الله ، وأعلنوا إسلامهم ، وطلبوا أن يرد عليهم نساءهم وأبناءهم ، فسر محمد بذلك وأجابهم إلى طلبهم ، ثم حملهم رسالة إلى مالك بن عوف النضري ، وهي أن الرسول على استعداد لأن يعطيه نساءه وأمواله ومائة من الإبل إذا عاد إليه تائباً مسلماً ، وهكذا ركب مالك جواده ، وانطلق في غفلة من ثقيف إلى محمد .. ».

فهقه سهيل في سعادة وقال :

— « والبقية تأتي .. » .

قال الصديق :

— « هذا ما حدث فعلا .. لقد كانت ثقيف تضرب كفاً بكف ولا تكاد تصدق ما جرى فإذا بزعيم ثقيف عروة بن

مسعود الذي كان غائباً في اليمن أثناء الحرب يعود .. ويطلب من قومه أن ينهضوا من عنادهم وغرورهم ويعلنوا إسلامهم.. ثم وقف بينهم وأذن للصلاة .. فأمطروه بسهامهم حتى قتلوه.. »

صرخ سهيل :

— « قتلوه ؟! » .

— « أجل يا سهيل .. لقد كان يبتسم ويردد : الحمد لله الذي كتب لي الشهادة في سبيله .. » .

تمتم سهيل :

— « رحمه الله .. كنت أعلم أنه يخفي إسلامه .. وقد حذره محمد من الجهر برأيه إذ أن الوقت لم يحن بعد .. ولكنه كان رجلا شجاعاً ، لا يخشى في الحق لومة لائم .. إن دمه لن يضيع هدراً .. فإما أن يسعى محمد ليثأر له ، أو تبادر ثقيف باعتناق الإسلام .. » .

قال وحشي في ضيق ظاهر :

— « خيراً فعلت ثقيف ، إن الزعيم الخائن ليس له جزاء سوى القتل .. ولقد قضى عروة بن مسعود جزاء خيانته .. » .

ومرت أيام عاصفة ، شعرت فيها ثقيف بالقلق الشديد ، الخطر يتهددها من كل جانب ، ولا يكاد يقر لها قرار ، أو يهنأ لها نوم ، فمحمد سوف يدهمها إن عاجلا أو آجلا . وقد آن الأوان لكي يدفعوا جزاء عدوانهم وجحودهم .

وقال عقلاء الطائف :

— « إن الرجل — محمد — على حق ، ونحن نكابر بلا

مبرر .. ونعرض أنفسنا وأجيالنا للخطر .. » .

قال وحشي وقد اندس بينهم !

— « وكرامتنا ؟؟ » .

— « الحق فوق كل اعتبار .. كفى اندفاعاً وحماقة .. إن دم عروة المسكين في أعناقنا وهو عار لن تمحوه الأيام .. ».

قال وحشي :

— « الحق هو ما ترونه أنتم لا ما يفرضه محمد عليكم.. »

— « هراء .. » .

ولم يكد يمر وقت قصير حتى بادر زعماء ثقيف بالذهاب إلى محمد كي يعلنوا إسلامهم ، ويبدوا أسفهم على ما فات من أخطاء ...

وسر محمد بوفد ثقيف ، وأكرم وفادتهم ، وقد كللت مساعيهم لديه بالنجاح . فعادوا إلى الطائف بعد أن أرسل النبي معهم أبا سفيان بن حرب . والمغيرة بن أبي شعبة كي يقوموا بتحطيم صنم « اللات » معبود الطائف .

ووقف وحشي ينظر سطور المأساة الأخيرة . .

« أبو سفيان ؟؟ ماذا أرى ؟؟ هل ذهب عقلي أم عميت عيناي ؟ رأس الكفر في مكة ، وأكبر عدو لمحمد .. يأتي ليسحق إله ثقيف ويسير بينهم بدعوة محمد ؟؟ ويحك يا وحشي المسكين المعذب !! لقد ضاع الأمل ، وأرى اليأس ينشر جناحيه السوداوين على أفقك التعس ... أحاط بك الموت من كل جانب .. أسلمت الحجاز كلها ، ولم يبق فيها إلا رجل واحد .. هو أنت .. أيمكن أن يكون هؤلاء جميعاً على ضلال

وأنت على حق .. لقد ضعت .. عشت تائهاً طول عمري في بيداء السراب القاتل الكثيف لا أكاد أتبين الحقيقة .. ماذا بعد أن أسلم أبو سفيان وأصبح أحد الدعاة .. وأسلمت هند .. وأسلم عكرمة .. وجبير .. وأسلمت ثقيف .. وهوازن ومالك ابن عوف ؟؟ انتهى الأمر .. وأصبح المستحيل حقيقة واقعة واقعة تمشي في طول الجزيرة وعرضها على قدمين ثابتين .. وامصيبتاه !! أين أذهب ؟؟ هل سأنتظر حتى أجدني بين يدي محمد ، والسيف فوق عنقي .. ثم ينتهي كل شيء .. » .

وصرخ وحشي والدموع تغرق خديه :

— « لا .. لا .. لسوف أضع حداً لنهايتي بيدي .. أين حربتي .. لا بد أن أغرسها في قلبي ... » .

وتناول حربته ، وسددها إلى صدره . وإذا بيد تمتد إليه فجاة ، وتمسك الحربة :

— « ماذا تفعل ؟؟ » .

— « ما الذي أتى بك الآن يا سهيل ؟؟ » .

— « ألا إن باب الله مفتوح يا وحشي .. وليس على باب باب الله حراس ولا عتاة .. إنه يفتح لأي طارق .. وعندما تدخل يا وحشي ستجد النور والأمل والخير .. والغفران .. » .

التفت إليه وحشي في ذهول وقال :

— « ماذا تقول ؟؟ إنك تخدعني .. تريد أن تقدمني ضحية إلى رسولك .. » .

— « وحشي .. أنا لا أقول إلا الحق .. » .

— « لقد قتلت حمزة يا سهيل .. إنه عم الرسول .. هل نسيت ؟؟ » .

— « لا يصح أن تفكر في أمر كهذا .. » .

— « فيم أفكر إذن يا سهيل ؟ » .

— « تفكر في دعوة الله .. هل هي الحق ؟؟ وبعد ذلك فليكن ما يكون .. » .

قال وحشي :

— « سأموت .. » .

— « لسوف يعصمك إسلامك .. » .

— « أنا لا أثق في أحد .. » .

— « لأنك لا تعرف الله ، ولم تجرب العيش في رحاب النبوة .. » .

زمجر وحشي في حدة :

— « لسوف أفر إلى الحبشة أو اليمن ، أعرف أن هناك الشقاء والعذاب والندم .. لكني لن أسلم رقبتي لسيوف المسلمين

انتزع سهيل الحربة ، وقال في إصرار :

— « لن أتركك للضياع ، هذه آخر فرصة .. لسوف أسوقك سوقاً إلى الحق .. إلى الحياة الكريمة .. » .

انفجر وحشي باكياً ، وأخذ يعول كثكلى ، وكان يقول من بين دموعه :

— « آه .. إنني أعرف أنه الحق .. أشعر أن ضوءاً قد سلطه الله الآن على قلبي لا أستطيع نكرانه .. وأشعر أن أفكاري

مكشوفة ومقروءة للجميع .. محمد على حق يا سهيل .. أدركت ذلك بفكري وروحي منذ زمن بعيد .. لكني كنت أحاول أن أطمس الحقيقة .. أن أخفيها وراء ستار كثيف من العناد والحماقة لم يكن الأمر في حاجة إلى دليل .. لقد رأيت المسلمين يحاربون ورأيت بلالاً يؤذن .. وشهدت عبلة وهي تلفظ الخوف والجمود ولا ترهب الحديد والنار .. ورأيت وصال البغي الخاطئة .. تخلع عنها بغيها القديم .. وخطاياها المزمنة وتفر إلى الله .. آمن العبيد والسادة .. والفقراء والأغنياء .. والخطاة والفضلاء.. فتح محمد ذراعيه لكل الناس .. بحثت عن الحرية الحقيقية . والكرامة الأصيلة . والأخوة الصادقة فلم أجدها إلا لديه .. لكن .. آه .. كان بيني وبينه دم حمزة .. حتى أولئك الذين أغروني بقتل حمزة أسلموا ... » .

أسرع سهيل قائلاً . وقد تندت عيناه بالدموع :

– « إذا كان قد عفى عن أئمة الكفر . والمحرضين على قتل عمه . أفلا يغفر لك ؟؟ والله إن محمداً ليفرح برجل يأتيه مسلماً أكثر من فرحه بملء الأرض ذهباً ... » .

التفت إليه وحشي وقد بدا الاستسلام والارتياح على وجهه وقال :

– « أواثق مما تقول ؟؟ » .

– « كل الثقة .. إذهب إليه . واشهد أنه لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول لله ..عندئذ تعصم دمك ومالك .. والأهم من هذا كله .. يعود إلى نفسك .. الأمن الذي فقدته طول عمرك .. وتنمحي أحقادك القاتلة .. وتزول عنك الكبرياء

الفارغة .. لأنك عندئذ تكون في كنف الله .. بارىء السموات والأرض .. رب الناس جميعاً .. » .

طأطأ وحشي رأسه قائلاً :

— « آمنت بالله .. » .

ثم صمت برهة . وقد أشرقت ملامح سهيل بالبشر والسعادة وقال وحشي وقد زاغت نظراته :

— « لكني أراه .. » .

قال سهيل :

— « من ؟؟ » .

— « حمزة بن عبد المطلب .. إنني أراه .. في يقظتي وفي نومي .. إنه ينظر إليّ الآن .. يبتسم .. أكاد أجن .. إنني لا أدري معنى لابتسامته الغامضة .. إنني أتعذب يا سهيل .. أنقذني خذ بيدي .. لشد ما أنا خائف .. » .

احتضنه سهيل بين ذراعيه ، وضمه إليه في رفق وقال :

— « أنت أخي .. لا تخف .. لقد جاء في كتاب الله « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » .. والإسلام يا وحشي يجب ما قبله .. فاذا ما وقفت بين يدي محمد ، ونطقت بالشهادتين.. فاعلم أنك قد ولدت من جديد .. بلا خطايا ولا ذنوب ولا أحزان ... »

جفف وحشي دموعه قائلاً :

— « إن كلماتك كالبلسم الشافي .. إنها تفتح قلبي وعيني على عالم رائع بهيج ... يفيض بالنور والحب والأمل .. » .

أشرقت الشمس على « وحشي » وهو يغذ السير صوب المدينة . كان أكثر هدوءاً واطمئناناً . لم يعد يرهب الموت ، لكنه كان مشفقاً أشد الاشفاق من لقاء الرسول . كيف تلتقي نظراته بنظرات الرسول ؟؟ إن شبح الشهيد العظيم سوف ينتصب بينهما يثير الألم والذكريات . والناس من حول الرسول سينظرون إليه نظرات كلها الغيظ والحقد . فهم يعْرفون مدى الألم العميق الذي حز في نفس محمد يوم رأى حمزة مسفوك الدم ، ممثلاً به أشنع تمثيل ..

— « أجل .. أنا الذي قتلته غيلة .. جبنت عن لقائه في ميدان مكشوف ... لم أكن في حالة عقلية سليمة كنت على استعداد أن أفعل أي شيء لأنال حريتي ... لا تهم الوسيلة ، لم استطع أن أتصور العلاقة الحتمية بين الغاية والوسيلة ، تصورت أن الحرية شيء ينال بإجراء شكلي ، وطقوس معينة .. فإذا بي بعد أن نلتها أتعس حالاً ، وأشد التصاقاً بالقيود والعذاب والضياع .. وكنت قصير النظر لم أفكر فيما يسمى بالمبادىء ...

كانت تبدو لي خرافة لا تستحق التفكير فيها . الناس كما كنت أعتقد قطيع من الوحوش ، كل يفكر في نفسه .. فيفترس ليأكل ويملأ جوفه ، ويرضي غرائزه .. كنت أشبه بالحيوان .. تلك هي الحقيقة المرة .. لم أتبين أن هناك طائفة أخرى من الناس تعيش وتموت في ظل قيم رائعة ما حلم الإنسان

بأعظم منها .. بئست الصفقة !! ليت الأيام تعود ، وليتني أستطيع أن أبدأ من جديد فاتجنب الكثير من الحماقات ..

كنت أعمى البصيرة .. مندفعاً .. أفكر في أنانية وحقد ، ولم أكن أعلم أن الأنانية والحقد ، لا تسوقان إلا إلى الدمار والعذاب.. إنهما لم يأخذا بيد أحد إلى عالم الحرية والحب والسعادة ترسبت أحقاد السنين في لحظة حمقاء ، فأوردتني مورد الخطيئة الكبرى ... قتلت حمزة .. يا للعار !! وكنت أفخر بذلك وأشمخ بأنفي يا للغار !! واليوم أذهب إلى مدينة الرسول .. سأدخلها متسللاً خجلا .. مطأطىء الرأس ، كسير النظرات .. يلاحقني الندم والماضي الأسود .. والتاريخ الكريه .. لو قتلني محمد لكان محقاً فيما يفعل .. ليكن أي شيء .. فليكفني أنني استبنت طريق الحق ، وتفتح قلبي لنور الهداية . وآمنت بالله ورسوله .. » .

وبلغ وحشي المدينة بعد ليالي وأيام .. ودخلها مستتراً متخفياً حتى لا يتعرف عليه أحد ، وأخذ يتحسس أخبار الرسول ويسأل عن مكانه ، وأخذ يشق الطريق إليه .. هناك وجده جالساً في تواضع رزين ، عيناه تشعران بالثقة ، وتفيضان بالحب ، قبس الإيمان يتجلى على جبينه الطاهر . فاندفع فجأة ، وانطلق قائلاً :

— «جئتك يا محمد أشهد ألا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله»

ابتسم الرسول في رضى ، ثم دقق النظر في الرجل الواقف أمامه ، وسرعان ما ذبلت ابتسامة الرسول ، وبدأ الألم والضيق

على وجهه وقال في تأثر :

ـ « أوحشي أنت ؟؟ » .

قال وحشي :

ـ « نعم يا رسول الله .. » .

وسادت فترة صمت قصيرة ، كانت مليئة بآلاف المشاعر التي لا يعلم كنهها إلا الله ، وقال الرسول بصوت متهدج :

ـ « اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة .. » .

انهمرت دموع وحشي ، وأخذ يروي كل شيء .. والرسول يستعيد اللحظات الأليمة ، فعلى أكتاف الشهداء الأبطال وعلى رأسهم حمزة ، قام هذا البناء العظيم ، وفاض النور في كل الأرجاء ، وامتدت دعوة الله ، فشملت الجزيرة .. وروعة النصر وحلاوته لا يُنسيان محمداً هؤلاء الجند الأوائل الذين ضحوا بأغلى ما يملكون في سبيل الله ... وما أن انتهى وحشي من كلامه حتى قال رسول الله اوحشي :

ـ « ويحك !! غيّب وجهك عني .. » .

لقد أسلم وحشي ..

وأصبح واحداً من المسلمين الأحرار ..

لكن ..

وا أسفاه .. إن كلمة الرسول ظلت ـ وستظل ـ تطن في رأسه « ويحك .. غيّب وجهك عني » إنها كلمات تحمل في طياتها العذاب والأرق والندم العميق .. كلمات أعنف وأقسى من القتل ..

– «آه يا سهيل .. ليته قتلني واسترحت .. محمد يقول لي غيّب وجهك عني .. كلماته يا سهيل ستدور في عرض الجزيرة وطولها .. وسيحملها التاريخ ، كي تتناقلها الأجيال المقبلة .. كلمات تنغرس في قلبي ورأسي وجسدي فتحرمني السعادة ، وتشوب سعادتي باعتناقي دعوة الله ... او قالها يا سهيل إنسان غير محمد لما حركت في جسدي شعرة ، ولا أثارت في نفسي قلقاً أو هماً .. الناس يروحون ويجيئون، وينعمون بالحديث إلى رسول الله ، ويبش في وجوههم ، ويشنف آذانهم بنبراته القدسية ، ونصائحه الغالية .. ويلمسون يديه ، ويبثون إليه آمالهم وآلامهم .. وأنا وحدي حزين .. أنظر إليه من بعيد .. محاولاً جهدي ألا يراني .. وأملأ عيني بطلعته النبوية .. لكنني أظل أشعر بالظمأ الحارق إلى القرب منه .. إلى حديثه العذب.. إلى نفحاته الشذية .. سأظل ظامئاً طول حياتي يا سهيل .. وفي المسجد .. أبحث عن ركن آوي إليه ، حتى لا تقع عيناه عليّ وهو على المنبر .. ألم يقل لي «غيّب وجهك عني ؟؟» .. لكأنما قد صبغ وجهي التعس بدم الشهيد .. أو لعل محمداً أدرك بحدسه ما يكان يعتمل في صدري من أحقاد .. آه .. إن قتل حمزة هو أساس للبلاء كله في حياتي.. هو الذي أفقدني الأمل في النجاة ، ولوّن حياتي باليأس ، وجرّني إلى العناد والحقد الزائد .. وأوقعني في الكثير من المتاهات والخطايا ، كأن مصرع حمزة لعنة أصابت أمني وهنائي ، وأضاعت حبي وآمالي في الغد الباسم .. غيب وجهك عني .. يا لها من كلمات قاسية ! !

لعلها أقسى من الجحيم ذاته .. اللهم رحمتك .. لكن ثق يا سهيل
نني لن استسلم لليأس ... إن ذلك الظمأ الخالد سيدفعني إلى
الفناء في سبيل الله .. وسأظل أحب محمداً حباً أروع من حب
أي مسلم آخر .. ولسوف أنطلق مجاهداً في سبيل الله لا أرهب
الموت حتى أنال الشهادة ... عندئذ يبتسم لي محمد ... وأكون
في الجنة مع النبيين والصديقين والشهداء .. مع محمد .. ولسوف
أدعو الله أن يوفقني لعمل عظيم .. ولن أفقد الأمل ... لن
أفقد الأمل ما حييت ... » .

وعلمت المدينة بإسلام « وحشي » ، واستعاد الناس أيام
« أحد » وما جرى فيها من أحداث ، ودفعهم حب الفضول
لأن يلاحقوا « وحشياً » بنظراتهم أينما حل وحيثما رحل ..
قال زوج عبلة لها :

ـ « أما سمعت الخبر ؟؟ لقد أسلم قاتل حمزة .. » .

قالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خالصة :

ـ « وحشي بن حرب ؟؟ » .

ـ « أجل .. » .

ـ « هذا نبأ سار .. لشد ما أسعد بعودة الخطاة إلى الله ..
هذا المسكين تعذب كثيراً ، واضطرب في حياته أيما اضطراب
والناس مختلفون يا زوجي الحبيب ، منهم من يجد الطريق الأقصر
إلى الحق ، ومنهم من تضل خطاه ، وتعمي بصيرته ، فيضرب
في التيه ، ويقاسي الكثير من الظمأ والحرمان والضياع ... ثم

يصل في النهاية مرهقاً مكدوداً .. وهو أشد ما يكون لهفة إلى النور والري .. » .

* * *

قالت وصال لزوجها :

– « النسوة يتحدثن عن قاتل حمزة الذي أسلم بالأمس.. »

– « كان يجب أن يضرب عنقه .. ومع ذلك فقد عفا الرسول عنه . لكنه قال له : غيّب وجهك عني .. إنها أقسى من الموت على نفس الإنسان .. » .

قالت وصال :

– « دعه يقلق ويتعذب بعض الوقت . فقد كان عنيفاً عنيداً . إن ما فعله الرسول درس مؤثر ، سوف يصفي جوهره وينقي فؤاده من الشوائب .. يا إلهي .. لقد أسلم العرب جميعاً حتى وحشي بن حرب ... صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده .. » .

* * *

والتقى وحشي بسيده القديم جبير بن مطعم ، وامتلأت نفس وحشي بالرضى حينما سمع جبيراً يقول له :

– « أهلاً أخي .. » .

شرد وحشي بضع لحظات . وأخذت كلمة « أخي » تردد صداها في أذنيه ، فيحلو رنينها . وتصعد نبراتها . وتبدو كاللحن العذب الجميل ... « أخي » .. إنها أروع من الحرية.. والمال .. ونساء الأرض قاطبة ..

« لقد سعدت حينما علمت بنبأ إسلامك يا وحشي .. كنت مع الرسول... » .

قال وحشي في لهفة :

— «أكان يتحدث عني ؟؟ » .

— « الحقيقة أنني سمعت الخبر من صحابته .. » .

أطرق وحشي صامتاً في أسى ، واستطرد جبير :

— « لشد ما أنا سعيد بقربي من محمد .. إنني ألتقط كلماته وأحفظها عن ظهر قلب . وأرويها بنصها لكل من لاقيت .. ».

قال وحشي وقد ترقرقت الدموع في عينيه :

— « لكنه صلى الله عليه وسلم قال لي : غيب وجهك عني »

قال جبير :

— « أنت تعلم حب الرسول لحمزة .. كلمة قالها ليخفف عن نفسه ما ألم بها من حزن عميق ، وذكريات أليمة .. » .

— « أنت الذي أغريتني بقتله .. » .

— « أجل .. وليغفر الله لي ولك ، وصدق الله إذ يقول : «إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء.. ».

— « صحيح ؟؟ » .

— « أجل .. بنص كتاب الله ... والإسلام يجبّ ما قبله ، وأنت اليوم ولدت من جديد .. » .

قال وحشي وهو يجفف دموعه :

— « لكن شابت ولادتي كلمات قالها رسول الله ، سوف تلتصق بتاريخي أبد الآبدين .. » .

تمتم جبير :

– « يا لها من أيام ! ! إنني أشد ندماً منك على ما فات .. لكن هكذا شاءت إرادة الله أن تدمي أقدامنا في طريق الشوك ، وأن نذرف الدموع ، ونتكبد الآلام ... حتى نبلغ مطلع النور » .

تمتم وحشي في شرود :

– « أجل .. مطلع النور .. حيث تبدو الحقيقة وهي أروع ما تكون صفاء وصدقاً .. وفي أرضها الخصبة تورق نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب و .. « والأمل.... » .

– ٣٠ –

الخـــاتمة

ومرت الأيام ، ووحشي يتفيأ ظلال العقيدة الكبرى ، التي أذهبت عنه الحزن وملأت قلبه بالحب والأمل ، وعمرت فكره بالقيم العظمى ، وأسقطت من قلبه وحياته آلهة الزيف والغرور والجهل ، لكن أمور الناس تضطرم في يوم من الأيام التي لا تنسى ، ويصاب القوم بالذهول ، وهم لا يستطيعون أن يصدقوا ما يجري من أحداث ، لقد مات محمد .. فكادت تلتاث عقولهم ، وانتابهم ما يشبه الضياع .. وصرخ عمر في حدة

– « إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توفي ، وأنه والله ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين

ليلة . ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . ووالله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى . فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنه مات .. » .

مسكين عمر بن الخطاب . إن حبه للرسول قد تمكن من قلبه أشد التمكن .وحياته الطويلة المليئة بأعلى القيم وأغلاها إلى جوار الرسول لا يجوز أن ينطفيء توهجها هكذا دفعة واحدة .. لكنها الحقيقة المؤلمة .. مات الرسول ..

ويقف أبو بكر الصديق في هدوء حزين صاخب . ويقول بصوت يتخلله البكاء :

— « أيها الناس .. من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ! ! ثم تلا الآية الكريمة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل . أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟؟ ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً ، وسيجزي الله الشاكرين .. » .

آه .. خر عمر إلى الأرض ما تحمله رجلاه . موقناً أن الرسول قد مات .. وانهمرت دموعه .. ودموع الناس الواقفين وقد هزتهم الحقيقة الأليمة ... مات محمد .. لكنه حي بالدعوة الخالدة التي حمّله الله أمانتها .. بالمبادىء العظيمة التي قضت على الجهالة والشرك والظلم والاستغلال . بآيات الله التي ضمنها كتابه الخالد .. مات محمد البشر . وعاش محمد الرسالة .. مات بعد أن حمل إلى العالم كلمات الله الأخيرة ..

ـ « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام ديناً .. » .

وارتمى وحشي على الأرض وقد بلغته الأنباء المؤسفة . ثم نهض بعد ساعة وهرول إلى المشهد العظيم :

ـ « أتموت يا مفجر ينبوع الحقيقة في صحراء حياتنا القاحلة ؟؟ كيف ؟؟ أتموت يا مورق الأمل في قلب التعساء والمحزونين ؟؟ كيف ؟؟ أتموت يا حامي الضعفاء ، ومحرر العبيد ، وقاهر الطغاة والأدعياء ؟؟ وأنا .. وحشي بن حرب .. أعيش ؟؟ لماذا أعيش ؟؟ غيبت وجهي عنك في الدنيا .. فهل تحرمني جلال النظر إليك في الآخرة يا شفيع المحرومين والمعذبين والمساكين في هذه الأرض ؟؟ عهد عليّ .. أن أحمل روحي على كفي ، وأنهض إلى أي أرض تقام فيها النصب للآلهة الزائفة .. فإما أن أسقطها أو أموت على أبوابها شهيداً حتى ألقاك يا حبيبي .. غيبت وجهي عنك وأنا أشد ما أكون شوقاً إليك ، وكلما اختفيت عنك أحرقني الشوق بنيران لا ترحم ، وازداد توهج الحب في قلبي السقيم .. لكنك كنت معي يا حبيبي كنت أتمثل نظراتك .. وابتساماتك ، وكلماتك القدسية كنت أعيش معك بكل كياني ، وأحيى في المعاني التي صببتها في روحي ، وصنعت لي منها عالماً بهيجاً أتحرك فيه ، وأنا أعظم ما أكون سعادة ورضى ، وأملاً .. يا واهب السعادة والرضى والأمل بنور الله وكتابه مت يا حبيبي ، لكنك لم تزل معي .. أراك .. أشعر بك .. أسمع كلماتك .. أتذكر نضالك العظيم .. ولن تستطيع

قوة في الأرض أن تفرق بيني وبينك يا حبيب القلب والروح والفكر ..

فليزعموا أنك مت .. فأنت معي لا تغيب عن عيني وروحي المآذن تهتف باسمك الغالي .. والمصلون يرددون اسمك .. المتحررون من إسار العسف والجهل والعبودية يصلون عليك .. وأنا أصلي عليك يا حبيبي .. » .

وأجهش وحشي بالبكاء ..

وربت سهيل على كتف وحشي في حنان وقال :

ـ « أدى الأمانة ، وأكمل الرسالة ، وتركنا على المحجة البيضاء .. وعلينا أن نسير ونسير .. لا نهاية للسفر ، إنه الجهاد الأزلي الدائم ، في الشرق والغرب ، والشمال والجنوب .. نظل دائمي الترحال .. نحمي الحقيقة وننشر النور .. فإن الظلام لم يزل يرعد على التخوم .. وأرض الله واسعة يا وحشي .. » .

* * *

أصبح أبو بكر بعد وفاة الرسول خليفة للمسلمين ، ولم يكد يستقر به المقام ، حتى جاءته الأنباء تترى عن تمرد بعض القبائل وارتدادها عن الإسلام ، وكان من نصيب « وحشي » أن يذهب إلى أرض اليمامة في صحبة خالد بن الوليد للتصدي « لمسيلمة الكذاب » الذي ادعى أنه شريك محمد في الأمر ، وكانت فتنة داهمة ، وحرباً ضروساً راح ضحيتها الآلاف من المسلمين .

ويهرول وحشي إلى الجهاد وهو يقول :

— « أجل .. لا نهاية للسفر .. ولن نترك إنساناً حاقداً يطمس نور الحقيقة الكبرى . أو يجتث أفراح الأمل في قلب الإنسان .. » .

وإبان احتدام المعركة في أرض « اليمامة » . أخذ وحشي يبعث بنظراته هنا وهناك . حتى وجد رجلا أشعث الشعر . يقف على ثلمة جدار ، ويناضل في استماتة . وصرخ وحشي :

— « إنه هو .. « مسيلمة الكذاب » .. ثم يسدد وحشي حربته . نفس الحربة التي رمى بها حمزة ذات يوم مشئوم .. ثم اطلقها فاستقرت بين ثديي مسيلمة . وخرجت من بين كتفيه فتهاوى الكذاب على الأرض . وانقض عليه أحد المسلمين بسيفه فأجهز عليه ..

وانتهت المعركة بانتصار الحق ..

وجلس وحشي يهز حربته . ويقول :

— « بحربتي هذه قتلت خير الناس بعد رسول الله حمزة ابن عبد المطلب . وشرّ الناس مسيلمة الكذاب .. » .

ثم أغفا قليلاً من شدة التعب والسهر . وبعد ساعة أفاق من نومه فرحاً سعيداً ، ووجهه ينطلق سعادة وبشراً ، وأخذ يصيح « الله أكبر .. الله أكبر .. » .

جاءه أحد المجاهدين قائلاً :

— « ماذا جرى يا وحشي ؟؟ » .

قال وحشي . وعيناه تسبحان في الأفق الصافي ، وكأنه في حلم رائع بهيج :

— « رأيته في منامي .. كان فوق جواد أبيض .. وابتسم لي ، كنت خائفاً .. لكنه طوقني بذراعيه وقبلني .. وأخبرني أنني سأكون معه في الجنة .. » .

— « من هذا يا وحشي ؟؟ » .

— « حمزة بن عبد المطلب .. عم الحبيب .. رسول الله .. ورأيت من حولنا الحدائق الخضراء والرياحين .. وريح المسك.. وحمائم تسجع .. وأنغاماً حلوة شجيئة .. أجل .. مطلع النور .. حيث تبدو الحقيقة .. وهي أروع ما تكون صفاء وصدقاً .. وفي أرضها الخصبة تورق نفس الإنسان بالخير والرخاء والحب والأمل .. » .

* * *

وعاش وحشي بعدها مجاهداً ، وسار مع جموع المسلمين صوب الشمال ، واشترك في معركة « اليرموك » ضد حشود الرومان ، وأبدى بطولة فائقة ..

ثم يؤكد الرواة أن أجله قد وافاه على فراشه في حمص بالشام ، في السنة الخامسة والعشرين للهجرة .

تمـــت

كتب للمؤلف

روايات :

١) الطريق الطويل
٢) اليوم الموعود
٣) في الظلام
٤) عذراء القرية
٥) طلائع الفجر
٦) ليل الخطايا
٧) رأس الشيطان
٨) الربيع العاصف
٩) أرض الأنبياء
١٠) الفداء الخالد
١١) الذين يحترقون
١٢) ليل العبيد
١٣) ابتسامة في قلب شيطان
١٤) الكأس الفارغة
١٥) الرايات السوداء
١٦) قاتل حمزة
١٧) الظل الأسود
١٨) نور الله

مجموعات قصص قصيرة :

١٨) موعدنا غداً
١٩) دموع الأمير
٢٠) العالم الضيق
٢١) عند الرحيل

مسرحيات :

٢٢) على أسوار دمشق

دراسات :

٢٣) اقبال الشاعر الثائر
٢٤) شوقي في ركب الخالدين
٢٥) المجتمع المريض
٢٦) الطريق إلى اتحاد إسلامي
٢٧) الإسلامية والمذاهب الأدبية

شعر :

٢٨) نحو العلا
٢٩) أغاني الغرباء